لبنانُ هذا مِن مُروجِكَ قِطعةٌ   فيه بَشاشةُ كُلِّ مَرْجٍ مُمرِعِ

قُلْ لِلبَنفسجِ في سُفوحِكَ والرُّبى   ولِّي شَبيهُكَ في الوَداعَةِ فاخْشعِ

وأْمُرْ طُيورَكَ أن تَنوحَ على فَتًى   قد كانَ يَهواها وإنْ لمْ تَسْجَعِ

قد عاشَ مِثلَكَ لِلمُروءةِ والعُلَى   مُتعفِّفاً كالزاهِدِ المتَورِّعِ

مُترفِّعاً في قَولِهِ وفَعـــالِهِ   عمَّن غَوى وهَوى ولَمْ يَترفَّعِ

كَمْ حَرَّضتْهُ النفسُ في نَزواتِها   لِيكونَ صاحِبَ حيلَةٍ أوْ مَطمَعِ

فأجابها: يا نَفسُ لا تَتورَّطي   صَدأُ النفوسِ هِيَ المطَامِعُ فاقْنعي

لَيسَ المحارِبُ في الوَغى بِأشدَّ بَأ   ساً مِن مُحارِبِ نَفسِهِ أو أشجَعِ

***

يا صاحبي أضنيتَ جسمَكَ فاسترِحْ   وأطلتَ، يا يعقوبُ، سُهدَكَ فاهجَعِ

حدَّثتَ قومَكَ حقبةً فتسمَّعوا   والآن دورُ حديثِهِمْ فتسمَّعِ

هجروا الكلامَ إلى الدموعِ لأنَّهمْ   وجدوا البلاغةَ كلَّها في الأدمُعِ

كيفَ التفتُّ وسرتُ لا ألقى سوى   مُتوَجِّعٍ يشكو إلى متوجِّعِ

حتى الأُلى نَفَثوا عليكَ سمومَهُمْ   حزَّ الأسى أكبادَهُمْ كالمِبضَعِ

عرفوا مكانَكَ بَعْدَ ما فارقتَهُمْ   يا ليتَهُمْ عرفوهُ قَبْلَ المصرَعِ

ولكمْ تمنَّوا لو تعودَ إليهمُ   أنتَ الشبابُ إذا مضى لم يرجعِ

حنُّوا إلى أرَجِ الأزاهِرِ بعدما   عَبِثَتْ بها أيدي الرياحِ الأربعِ

واستعذبوا الماءَ المسلسلَ بعدما   نَضَبَ الغديرُ وجفَّ ماءُ المشرعِ

يا لوعةَ الأحبابِ حينَ تساءلوا   عنهُ وعادوا بالجوابِ الموجِعِ

إنَّ الذي قد كانَ مَعْكُمْ قد مضى   من موضعٍ أدنى لأرفعِ موضعِ

من عـــالمٍ متكلِّفٍ متصنِّعٍ   تشقى نفوسٌ فيهِ لم تتصنَّعِ

للعالمِ الأسمى الطهورُ، ومن نجا   وَرَدَ الأنامِ إلى جوارِ المُبدِعِ

●

ليالي بوسطن

إن أغِبْ، ياصحبُ، عن ذاكَ الحمى	لم أزلْ مَعْكُمْ كما أنتمْ معي
فإذا الأنجمُ شعّتْ في السما	قلتُ هذي أنتمُ في مجمعِ
وإذا الشادي بلحنٍ رنّمـا	خلتهُ أصواتكمْ في مسمعي

***

آهِ لو يُغني خيالٌ عن عيانِ	كانَ كالمنهلِ رسمَ المنهلِ
ولعاشَ المرءُ في دنيا الأماني	يقطعُ الدنيا ولم ينتقلِ
وسلونا عن مكانٍ بمكانِ	ولأغنى آخرٌ عن أولِ

***

ولنابتْ عن نجومٍ نيّراتْ	صُوَرٌ مطبوعــةٌ في الورقِ
واكتفينا بخريرِ الساقياتْ	في الدُّجى عن مائها المندفقِ

***

يا ليالي «بوسطنٍ» هلْ ترجعين	فأرى صَحْبي الكرامَ البررَة ؟

ويزولُ الهمُّ عن قلبي الحزينْ	بالوجوهِ المشرقاتِ النضِرَهْ
إنــه يسألني في كلّ حينْ	أينَ تلكَ الجنّةُ المختصرَة ؟

***

ذهبتْ ، يا قلبُ ، إلا ذكرياتْ	كبروقٍ ضحكتْ في الغسَقِ
تأنسُ العينُ بها في الظلماتْ	وهي تفنى في رحابِ الأفقِ
يا ليالي بوسطنٍ ليتَ الحياةْ	عدلتْ فينا فلم نفترقِ

العنقاء

أنا لستُ بالحسناءِ أولَ مولَعٍ   هيَ مطمعُ الدنيا كما هي مطمعي

فاقصصْ عليَّ إذا عرفت حديثَها   واسكنْ إذا حدّثتَ عنها واخشعِ

أَلَمحتَها في صورةٍ ؟ أشهدتَها   في حالةٍ ؟ أرأيتها في موضعِ ؟

إني لنوو نفسٍ تهيمُ وإنها   لجميلةٌ فوقَ الجمالِ الأبدعِ

ويزيدُ في شوقي إليهـا أنها   كالصّوتِ لم يُسفرْ ولم يتقنّعِ

فتّشتُ جيبَ الفجرِ عنها والدُّجى   ومددتُ حتى للكواكبِ إصبعي

فـإذا هما متحيرانِ كلاهما   في عاشقٍ متحيرٍ متضعضعِ

وإذا النجومُ لِعِلمِها أو جَهلِها   مترجرجاتٌ في الفضاءِ الأوسعِ

رقصت أشعّتها على سطحِ الدجى   وعلى رجاءٍ فيَّ غيرَ مشعشعِ

. . .

والبحرُ ... كم سائلتُهُ فتضاحكتْ   أمواجُهُ من صوتيَ المتقطّعِ

فرجعتُ مرتعشَ الخواطرِ والمُنى   كحمامةٍ محمولةٍ في زعزعِ

وكأنَّ أشباحَ الدهورِ تألبتْ   في الشطِّ تضحكُ كلُّها من مرجعي

. . .

ولكم دخلتُ إلى القصورِ مفتشاً   عنها، وعجتُ بدارساتِ الأربعِ

إن لاحَ طيفٌ قلتُ : يا عينُ انظري ،   أو رنَّ صوتٌ قلتُ : يا أذنُ اسمعي

فإذا الذي في القصرِ مثلي حائرٌ   وإذا الذي في القفرِ مثلي لا يعي

. . .

قالوا : تورّعْ، إنها محجوبةٌ   إلّا عنِ المتزهّدِ المتورّعِ

فوأدتُ أفراحي وطلّقتُ المنى   ونسختُ آياتِ الهوى من أضلعي

وحطمتُ أقداحي ولما أرتوِ   وعففتُ عن زادي ولما أشبعِ

وحسبتُني أدنو إليها مسرعاً   فوجدتُ أني قد دنوتُ لمصرعي

ما كان أجهلَ نُصّحي وأضلَّني   لما أطعتُهمُ ولم أتمنّعِ

إني صرفتُ عن الطاعةِ والهوى   قلبي، ولا ظفرٌ لمن لم يطمعِ

فكأنني البستانُ جَرَّدَ نفسَهُ   من زهرِهِ المتنوّعِ المتضوّعِ

ليحسَّ نورَ الشمسِ في ذرّاتِهِ   ويقابلَ النسماتِ غيرَ مقنّعِ

فمشى عليه من الخريفِ سُرادقٌ   كالليلِ خيّمَ في المكانِ البلقعِ

وكأنني العصفورُ عرّى جسمَهُ   من ريشِهِ المتناسقِ المتلمّعِ

ليخفَّ محملُهُ، فخرَّ إلى الثرى   وسطا عليهِ النملُ غيرَ مروّعِ

. . .

وهجعتُ أحسب أنها بنتَ الرؤى   فصحوتُ أسخرُ بالنيامِ الهجّعِ
ليستْ حُبوراً كلها دنيا الكرى   كم مؤلمٍ فيها بجانبِ مفزعِ
تخفي أمـــانيَّ الفتى كهمومهِ   عنه، وتحجبُ ذاتَه في برقعِ
ولربما التبستْ حوادثُ يومهِ   بالغـــابرِ الماضي وبالمتوقَّعِ
يا حبّذا شططُ الخيالِ وإنمـــا   تُمحى مشاهدهُ كأن لم تُطبعِ
لمـــا حلمتُ بها حلمتُ بزهرةٍ   لا تُجتنى، وبنجمةٍ لم تطلعِ
ثم انتبهتُ فلم أجد في مخدعي   إلا ضلالي والفراشَ ومخدعي
من كان يشربُ من جداولِ وهمهِ   قطعَ الحياةَ بغلةٍ لم تُنقعِ

. . .

ذهبَ الربيعُ فلم تكنْ في الجدولِ الشادي، ولا الروضِ الأغنّ الممرعِ
وأتى الشتاءُ فلمْ تكنْ في غيمهِ   الباكي، ولا في رعدهِ المتفجعِ
ولمحتُ وامضةَ البروقِ فخلتها   فيها، فلم تكُ في البروقِ اللمّعِ
صفرتْ يدي منها وبي طيشُ الفتى   وأضلّني عنها ذكاءُ الألمعي
حتى إذا نشرَ القنوطُ ضبابهُ   فوقي، فغيّبني وغيّبَ موضعي
وتقطّعتْ أمراسُ آمالي بهـــا   وهي التي من قبل لم تتقطّعِ
عَصرَ الأسى روحي فسالتْ أدمعاً   فلمحتها ولمستها في أدمعي
وعلمتُ حينَ العلمُ لا يجدي الفتى   أنّ التي ضيّعتها كانت معي!

رسم سياسي

وقال يصف رسماً سياسياً رآه
في «جريدة النيل» الأسبوعية

رَسْمٌ تعلّمَ منهُ ناظري الوَلَعَا   كأنَّ طَرْفيَ قلبي فيه قدْ وُضِعَا
يُمثِلُ البيضَ حولَ الصّينِ قد وَقَفوا   وذلكَ الدُّبُّ في (منشوريا) رَتَعَا
مشى بهِ نحوَها في نَفْسِهِ أملٌ   وراحَ يَمْشي إلى ما بعدَها جَشِعَا
كالنّارِ تأكلُ أكلاً ما يُصادفُها   والسيلُ يَجْرفُ ما يَلْقاهُ مندفِعَا
فقامَ (بالصُّفْرِ) داعٍ من حليفَتِهِمْ   مليكةِ الهندِ أنْ هُبّوا فقد طَمِعَا
قالتْ أحذركُمْ مَنْ يُخادِعُكمْ   فطالما خَدعَ الإنسانُ فانْخَدَعَا
إني مَحَضْتُكُمْ نُصحَ الصَّديقِ عَسَى   خيراً يُفيدكُمْ فالنُّصحُ كم نَفَعَا

وغيرُ مُنتفعٍ بالنصحِ غِرُّ فَتى
إذا تحدَّثَ ذو عقلٍ صَغى وَوَعى

سارتْ إليهمْ فتاةٌ وانثنتْ وَجلاً
وما رأى أحَدٌ هذا ولا سَمِعا

حتَّى إذا ما رأتْ منشوريا اختنقتْ
بالقومِ ضِيقاً وَخرقُ الشرِّ مُتَّسِعا

كادتْ تطيرُ سروراً بالنَّجاحِ وَقدْ
كادتْ على الهندِ تقضي قبلَ ذا جزَعا

نُبِّئتْ أنَّ الوَغى في الصينِ دائرةٌ
فما لها صادفتْ في النيلِ مُرْتَبَعا ؟

•

تعالي

تعالَيْ نتعاطاها كَلَوْنِ التبرِ أو أسطع
ونسقي النرجسَ الواشي بقايا الراحِ في الكاسِ
فلا يعرفُ مَنْ نحنُ ولا يُبصرُ ما نصنعْ
ولا ينقلُ عندَ الصُّبحِ نجوانا إلى الناسِ

***

تعالي نسرقُ اللذاتِ ما ساعفنا الدهرُ
وما دمنا وما دامتْ لنا في العيشِ آمالُ
فإنْ مرَّ بنا الفجرُ وما أوقظنا الفجرُ
فما يوقظنا علمٌ ، ولا يوقظنا مالُ

***

تعالي نطلقُ الروحينِ منْ سجنِ التقاليدِ
فهذي زهرةُ الوادي تذيعُ العطرَ في الوادي
وهذا الطيرُ تياهٌ فخورٌ بالأغاريدِ
فمن ذا عنَّفَ الزهرةَ أو من وبَّخَ الشادي ؟

أرادَ اللهُ أن نعشقَ لما أوجدَ الحسنا
وألقى الحبَّ في قلبكِ إذ ألقاهُ في قلبي
مشيئتهُ ... وما كانت مشيئتهُ بلا معنى
فإنْ أحببتِ ما ذنبكِ أو أحببتُ ما ذنبي ؟

***

دعي اللاحي وما صنَّفَ والقالي وبهتانَهْ
ألِلجدولِ أن يجري وللزهرة أن تعبقَ ،
وللأطيارِ أن تشتاقَ أياراً وألوانَهْ ،
وما للقلبِ، وهو القلب، أن يهوى وأن يعشقَ؟

***

تعالي ، إنّ ربَّ الحبِ يدعونا إلى الغابِ
لكي يمزجنا كالمـــاء والخمرةِ في كاسِ
ويغدو النورُ جلبابكِ في الغابِ وجلبابي
فكم نصغي إلى الناس ونعصي خالقَ الناسِ

***

يريد الحبُّ أن نضحكَ فلنضحكْ مع الفجرِ
وأن نركضَ فلنركضْ مَعَ الجدولِ والنهرِ

وأن نهتفَ فلنهتفْ مع البلبلِ والقمري
فمن يعلمُ بعدَ اليومِ ما يحدثُ أو يجري ؟

***

تعالي ، قبلما تسكتُ في الروضِ الشحاريرُ
ويذوي الحورُ والصفصافُ والنرجسُ والآسُ
تعالي ، قبلما تطمرُ أحلامي الأعاصيرُ
فنستيقظُ لا فجرٌ ، ولا خمرٌ ، ولا كاسُ



الإبريق

ألا أيها الابريقُ ما لكَ والصلَفْ ... فما أنتَ بلّورٌ ولا أنتَ من صَدَفْ
وما أنتَ إلّا كالأباريقِ كلّها ... ترابٌ مَهينٌ قد ترقّى إلى خزَفْ
أرى لكَ أنفاً شامخاً غيرَ أنّهُ ... تلفّعَ أثوابَ الغُبارِ وما أنِفْ
ومسّتهُ أيدي الأدنياءِ فما شكا ... ومصّتهُ أفواهُ الطّغامِ فما وَجَفْ
وفيكَ اعتزازٌ ليسَ للديكِ مثلُهُ ... ولستَ بذي ريشٍ تضاعَفَ كالزّغَفْ
ولا لكَ صوتٌ مثلُهُ يصدعُ الدجى ... وتهتِفُ فيه الذكرياتُ إذا هتَفْ

...

وأنصتُّ أستوحيهِ شيئاً يقولُهُ
كما يسكتُ الزُّوارُ في معرِضِ التُّحَفْ
وبعدَ ثوانٍ خِلتُ أني سمعتهُ
يُبربرُ مثلَ الشيخِ أدركَهُ الخرَفْ

فقالَ: «سقيتُ الناسَ»، قلتُ له: أجلْ
سقيتَهمُ ماءَ السحابِ الذي وَكَفْ
ودمعَ السواقي والعيونِ الذي جرى،
وماءَ الينابيعِ الذي قد صفا وشَفْ
فقالَ: ليذْكُرْ فضلَ الماءَ وليُشِدْ
بمدحي، ألمْ أحمِلْهُ؟ قلتَ: لكَ الشرَفْ!
فقالَ: ألم أحفظْهُ؟ قلتُ: ظلمتَهُ
فلولاهُ لم تُنقَلْ، ولولاكَ ما وَقَفْ!

•

الكرنفال

أمستْ ثيابي وكلُّها خِرَقُ — تُشبهُ روضاً ألوانُهُ فِرَقُ

من أزرقٍ كالسماء جاوَرَهُ — أحمرُ قانٍ كأنَّهُ الشَّفَقُ

وأبيضٍ ناصعٍ ، وأسودَ فا — حمٍ ، فذاكَ الضُّحى وذا الغَسَقُ

كأنَّ قوسَ السَّحابِ باتَ على — جسمي رداءً ، وما أنا الأُفُقُ

بُرْدٌ عجيبٌ قد خاطهُ لَبِقُ — فليسَ بِدعاً إنْ حازَهُ لَبِقُ

لمـا تنكرتُ لمْ يَعُدْ صَحْبي — يَدرونَ أني الصديقُ إن رَمَقوا

لِذاكَ لم يَشفقوا على جَسَدي — مِنَ الرَّمايا ولو دَرَوا شَفِقوا

مَرَرْتُ بالحانقينَ فابتسموا — لمـا رأوني وكلُّهم قَلِقُ

لَوْ عَـلِموا أنني عدوُّهُمُ — أوشكَ يقضي عليهمُ الفَرَقُ

أرخى الدُّجى ذَيلَهُ ورُحتُ أجرُّ — الذيلَ عُجْباً وغيري النَّزِقُ

والجمعُ حولي يَضِجُّ مبتهجاً — كأنَّهُ السيلُ حينَ يندفقُ

تألَّبوا كالغَمامِ واتَّصلوا — بعضٌ ببعضٍ كأنهم حَلَقُ

وانتشروا والدروبُ واسعةٌ — كالأنجمِ الزُّهرِ حينَ تَنبثِقُ

أطلقتُ نفسي مِنَ القيودِ إلى — أنْ صِرتُ كالسَّهمِ حينَ يَنطلِقُ

وبتُّ والقومُ كلَّما اجتمعوا — رَمَيْتُهُمْ (بالبذورِ) فافترقوا

أسخرُ منهم لأنهم سَخِروا — مني ، اختلفنا ونحنُ نَتَّفِقُ

والحربُ بيني وبينهم نَشِبَتْ — حربٌ ، ولكنْ سهامُها الوَرَقُ

فلا رماحٌ هناكَ مُشْرَعَةٌ ، — ولا سيوفٌ هناكَ تُمتَشَقُ

لم أخشَ غيرَ الحسانِ ناظرةً — أشدُّ فعلاً من الظُّبى الحَدَقُ

هذا هو الكرنفالُ فاستبقوا — إليهِ فهو السرورُ يُختَلَقُ

ضرة جلق

ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامتها له الجالية في مونتريال .

لا تقلقي يومَ النوى أو فاقلقي — يا نفسُ كلُّ تجمّعٍ لتفرّقِ
اللهُ قدّرَ أنْ تمسَّ يدُ الأسى — أرواحنا كيما ترقَّ وترتقي
أوفى على الشهبِ الدُّجى فتألقتْ — لولا اعتكارُ الليلِ لم تتألقِ
والفحمُ ليس يَضيء إنْ لم يضطرمْ — والندُّ ليسَ يضوعُ إنْ لم يحرقِ
لا أضربُ الأمثالَ مدحاً للنوى — ليتَ الفراقَ ويومه لم يُخلقِ
ما في الوداع سوى تعلثمِ ألسُنٍ — وذهولِ أرواحٍ وهمٍّ مطبقِ

. . .

عنّفتُ قلبي حينَ طالَ خفوقُهُ — فأجابَ : بل لُمني إذا لم أخفقِ
أنا طائرٌ قد كانَ يمرحُ في الربى — وعلى ضفافِ الجدولِ المترقرقِ
فطوى القضاءُ مروجَهُ وفضاءهُ — ليَزُجّ في قفصِ الحديدِ الضيّقِ
لا ، بل أنا مَلِكٌ صحوتُ فلم أجدْ — عرشي ، ولا تاجي ، ولا إستبرقي

. . .

هانَتْ معاذيري وضاعَتْ حكمتي — لما سمعتُ حكايةَ القلبِ
لوْ تعدلُ الدنيا بنا لم ينتثرْ — شملٌ نظمناهُ ولم

. . .

للهِ مونتريالكُمْ ذاتُ الحِلَى — ومدينةُ الطودِ الأشمّ ا
كم وقفةٍ لي عند شاطىءِ نهرِها — لا أستقي منهُ ، وروحي
متعلماً منهُ التواضعَ والندى — والصفحَ عن عَبَثِ الجهولِ ا
أعطى الحقولَ حياتَها ومضى كأنْ — لم يُعْطِها شيئاً ولم يت
من كانَ لا يَدري فيقظةُ زرعِها — من فَضْلِ هذا الهاجعِ المس
ضيّعتُ عند الواعظينَ سعادتي — ووجدتُها في واعظٍ لم
ملءُ المدائنِ والقرى آلاؤهُ — وهباتُهُ ، ويعيشُ عَيْشَ ا
لولاهُ لم يخضرّ قاعٌ مجدبٌ — لولاكُمْ شَجَرُ المنى لم
عَرَضَتْ محاسنَها الحياةُ عليكُمْ — فأخذتمُ بأحبّها وا
أنا منكمُ في روضةٍ معطارةٍ — من مُونقٍ فيها اللحاظُ
ألعطرُ يعبقُ من جميعِ ورودِها — ما أنْ مررتَ بزهرةٍ لم

. . .

للهِ مونتريالكُمْ وجلالُها — هي رومةُ الصغرى وضرّةُ
رقّتْ عليّ نجومُها وتواضعتْ — حتى لكدتُ أحسُّها في

فكأنما هي أنتمُ وكأنما أرواحكمْ من نورها المتدفقِ
رَجعَ الشبابُ إليَّ حينَ هبطتُها واليومَ أخرجُ من شبابي الريقِ
سأطيرُ عنها في غدٍ بحشاشةٍ مكلومةٍ ، وبناظرٍ مُغْرَورقِ
ويغيبُ عنّي طودُها وقبابُها وقصورها خلفَ الفضاءِ الأزرقِ
وتظلُّ صورتُها تلوحُ لخاطري بعضُ الرؤى سلوى وإنْ لم تَصْدُقِ

عبد الحميد بعد اعلان الدستور

أبا الشعبِ إطلعْ من حجابِكَ يلتقي بطرفكَ مثلُ العارضِ المُتَدَفِّق
جماهيرُ لا يحصي اليَراعُ عديدَها هيَ الرملُ إلا أنهُ لمْ ينسَّق
هوَ الشعبُ قد وافاكَ كالبحرِ زاخراً
وكالجيشِ يقفو فيلقٌ إثرَ فيلق
تطلّعْ تجدْهُ حولَ قصركَ واقفاً يحدّقُ تحديقَ المُحِبِّ لموفَّق
لقد لبستْهُ الأرضُ حلياً كأنها أياديكَ فيهِ لم تزَلْ ذاتَ رونق
وألقتْ عليهِ الشمسُ نظرةَ عاشقٍ غيورٍ تلقّاها بنظرةِ مُشْفِق
يهشُّ لمرآكَ الوسيمِ وإنّمــا يهشُّ لمرأى الكوكبِ المتألِّق
ويعشقُ منكَ البأسَ والحلمَ والنّدَى كذلكَ من ينظُرْ إلى الحسنِ يَعْشَق
يكادُ بهِ يَرقى إليكَ اشتياقُهُ فيا عَجَباً بحرٌ إلى البَدْرِ يرتقي
تفرّقَ عنكَ المفسدونَ وطالما رموا الشعبَ بالتفريقِ خوفَ التفرُّق
وكم أقلقوا في الأرضِ ثمّ تراجعوا يقولونَ شعبٌ مقلقٌ أي مُقْلِق
وكم زوّروا عنهُ الأراجيفَ وادّعوا وأيدَهمْ ذيّاكُمْ الزاهدِ التقي
لمن يرفعُ الشكوى؟ وقد وقفوا لهُ على البابِ بالمرصادِ فاسألْهُ يَنْطِق

وأما ولا واشٍ ولا متجسسٌ فقد جاء يسعى سَعْيَ جذلانَ شيّقِ
يُطارحكَ الحبَّ الذي أنتَ أهلهُ وحسبُكَ منهُ الحبُّ غيرَ مزوّقِ
وها جيشُكَ الطامي يضجُّ مكبّراً بما نالَ من عهدٍ لديكَ ومَوْثقِ
يُطأطىء إجلالاً لشخصِكَ أرؤساً يطأطىء إجلالاً لها كلُّ مفرقِ
لهامٍ متى تنذرْ بهِ الدهرَ يصعقُ وإنْ يتعرّضْ للحوادثِ تَفْرَقِ
يفاخرُ بالسّلمِ الجيوشَ وإنّهُ لأضربها بالسيفِ في كلِّ مأزقِ
وأشجعها قلباً وأكرمها يداً إذا قالَ لم يترُكْ مجالاً لأحمقِ
ألا أيها الجيشُ العظيمُ ترفّقاً ملكتَ قلوبَ الناسِ بالعرفِ فاعتقِ
ويا أيها المَلِكُ المقيمُ (يلدزٍ) أرى كلَّ قلبٍ سِدّةً لكَ فارتقِ
ألا حبّذا الأجنادُ عَوْناً لخائفٍ ويا حبّذا الأحرارُ ورداً لِمُستقِ
ويا حبّذا عيدُ الجلوسِ فإنّهُ أجلُّ الذي ولّى وأجلُّ ما بقي

•

لما . . .

عجباً لمن أمسى وكلُّ فخارهِ بنضارهِ المخبوءِ في الصندوقِ
ماذا يقولُ إذا اللصوصُ مضوا بهِ وأقامَ بعد نضارهِ المسروقِ ؟
إنْ يرفعِ المالُ الكريمَ فإنه للنذلِ مثلُ الحبلِ للمشنوقِ
لمّا صديقي صارَ من اهلِ الغنى أيقنتُ أني قد أضعتُ صديقي ! . .

•

وداع وشكوى

أزِفَ الرّحيلُ وحانَ أن نتفرّقا
فــإلى اللّقا يا صاحبيَّ إلى اللّقا

إن تبكيا فلقد بَكيتُ من الأسى
حتى لكِدتُ بأدْمعي أن أغرَقا

وتَسعّرتْ عندَ الوَداعِ أضالعي
ناراً خشيتُ بِحرّها أنْ أحرَقــا

ما زلتُ أخشى البَينَ قبلَ وقُوعِهِ
حتى غدوتُ وليسَ لي أنْ أفرَقا

يومَ النوى ، للهِ ما أقسى النّوى
لولا النّوى ما أبغضتْ نفسي البَقَا

رُحنا حيارَى صامتينَ كأنّمــا
للهَوْلِ نَحذَرُ عندَه أنْ ننطِقا

أكبادُنا خفّــاقةٌ وعيونُنا
لا تستطيعُ ، منَ البكا ، أن ترْمُقا

نتجاذبُ النظَراتِ وهيَ ضعيفةٌ
ونغالبُ الأنفاسَ كيلَا تُزْهَقا

لو لم نُعلّلْ باللقــاء نفوسَنا
كادَتْ مع العَبَراتِ أن تتدفّقا

يا صاحبيَّ تصبّرا فلرُبّما
عُدنا وعــادَ الشّملُ أبهى رَوْنَقا

إن كانَتِ الأيّامُ لم ترْفُقْ بنا
فمِنَ النُّهى بنفوسنا أنْ نرْفُقا

إنَّ الذي قدَرَ القطيعةَ والنّوى
في وُسْعِهِ أنْ يجمعَ المُتفرّقا ! ..

•

ولقدْ ركبتُ البحرَ يزأرُ هائجــاً
كالليثِ فارقَ شِبلَهُ بــل أحنقَا

والنفسُ جازعةٌ ولستُ ألومُها
فالبحرُ أعظمُ ما يُخافُ ويُتّقى

فلقدْ شهدتُ بـه حكيماً عاقلا
ولقدْ رأيتُ بـهِ جهولًا أخرقا

مُستوفزٌ ما شاء أنْ يلهو بِنا
مُترفّقٌ مـا شاء أنْ يترفّقا

تتنازعُ الأمواجُ فيهِ بعضُها
بعضاً عَلَى جَهْلٍ تُنازِعنا البقا

بينـا يَراها الطرفُ سُوراً قائماً
فاذا بها حالتْ فصارتْ خَندقا

والفُلكُ جاريةٌ تَشقُّ عُبابَهُ
شقّاً ، كما تَفري رداءً أخلقا

تَعلو فنحسبُها تَؤمُّ بِنـا السُّها
ونَظنُّ أنّا راكبونَ مُحلّقا

حتّى إذا هبطتْ بنـا في لُجّةٍ
أيقنتُ أنَّ الموتَ فينا أحدقا

والأُفقُ قد غطّى الضبابُ أديمَهُ
فكأنّما غَشِيَ المدادَ المُهرقا

لا الشمسُ تسطعُ في الصباحِ، ولا نرى
إمّا استطالَ الليلُ، بَدراً مُشرِقا

عِشرونَ يوماً أو تزيدُ قضيتُها
كيفَ التفتُّ رأيتُ ماءً مُغدِقا

(نيويوركُ) يابنتَ البخارِ، بنا اقصدِي
فلعلّنا بالغربِ ننسَى المَشرِقا

وطنٌ أردناهُ عَلَى حُبِّ العُلى
فأبَى سِوى أن يستكينَ إلى الشقا

كالعَبدِ يَخشَى ، بعد ما أفنَى الصبَى
يلهو بـه ساداتُهُ ، أن يُعتَقا

أوَ كلّما جـاءَ الزمانُ بمصلحٍ
في أهلِهِ قالوا . طغَى وتزندقا ؟

فكأنّما لم يكفِهِ ما قد جنَوا
وكأنّما لم يكفِهم أن أخفقا

هذا جزاءُ ذوي النُّهَى في أمّةٍ
أخذَ الجمودُ عَلَى بَنيها مَوثِقا

وطنٌ يَضيقُ الحرُّ ذرعاً عندهُ
وتراهُ بالأحرارِ ذرعاً أضيقَا

ما إنْ رأيتُ به أديباً مُوسراً
فيما رأيتُ، ولا جَهولاً مُملِقَا

مَشَتِ الجهالةُ فيهِ تَسحبُ ذيلَها
تِيهاً، وراحَ العِلمُ يمشي مُطرِقا

أمسَى وأمسَى أهلُهُ في حـالةٍ
لو أنها تعرو الجمـادَ لأشفقَا

شعبٌ كما شاءَ التخاذلُ والهوى
مُتفرّقٌ ويكادُ أن يَتمزّقَا

لا يرتضي دينَ الآلهِ مُوفِّقاً
بينَ القلوبِ ويَرتضيهِ مُفرِّقا

كلِفٌ بأصحابِ التعبُّدِ والتقى
والشرُّ مـا بينَ التعبُّدِ والتقَى

مُستضعَفٌ، إنْ لم يُصبْ متملقاً
يوماً تملّقَ أنْ يَرى متملقا

لم يعتقدْ بالعلمِ وهو حَقائقٌ
لكنّهُ اعتقَدَ التمائمَ والرُّقى!

ولربمـا كرهَ الجمودَ وإنما
صَعْبٌ علَى الانسانِ أن يتخلّقَا!..

وحُكومةٌ ما إنْ تُزحزِحُ أحمقاً
عنْ رأسِها حتى تُولّي أحمقا

راحتْ تُناصِبُنا العداءَ كأنما
جِئنا فَرِيّاً أو رَكِبنا مُوبِقـا

وأبتْ سِوى إرهاقِنا فكأنما
كلُّ العَدالةِ عندَها أنْ نُرهقَا

بينَا الأجانبُ يعبثُونَ بهـا كما
عَبِثَ الصَّبا سَحراً بأغصانِ النَّقا

(بغدادُ) في خطرٍ (ومصرُ) رهينةٌ
وغداً تَنالُ يدُ المطامعِ (جِلّقا)

ضَعُفَتْ قوائمُها ولمـا تَرعوي
عن غيِّها حتى تزولَ وتُمحقَا

قيلَ اعشقوها قلت: لم يَبْقَ لنا
معَنا قلوبٌ كي نُحِبَّ ونَعْشَقَا

إن لم تكنْ ذاتُ البنين شَفيقةً
هيهاتَ تَلْقى من بنيها مُشْفِقَا

أصبحتُ حيثُ النفسُ لا تخشَى أذىً
أبداً وحيثُ الفكرُ يغدو مُطلَقَا

نفسي اخلُدي ودَعي الحنينَ فإنما
جهْلٌ بُعَيْدَ اليومِ أن تَتَشوّقا

هذي هي «الدُّنيا الجَديدةُ» فانظُري
فيها ضياءَ العِلمِ كيفَ تألّقَا

إني ضَمِنْتُ لكِ الحياةَ شَهيّةً
في أهلِها والعيشَ أزهرَ مُونِقَا

•

عام ١٩١٠

إني سكتُّ وما عدمتُ المنطقا ... لولا أخوكَ سبقتُ فيكَ الأسبقا

وهززتُ أوتارَ القلوبِ بصامتٍ ... يشتاقُ كلُّ مهذبٍ أن ينطقا

فبعثتُ في أفواههم مثلَ الطلى ... ونفثتُ في أسماعهم شبهَ الرقى

وألنتُ قاسي الشعرَ حتى يُبتغى ... وشددتُ منه اللينَ حتى يُتّقى

وجلوتُ للأبصارِ كلَّ خريدةٍ ... عصماءَ تحسدُها النجومُ تألقا

تبدو فتتركُ كلَّ قلبٍ شيّقٍ ... خلواً، وتتركُ كلَّ خالٍ شيّقا

ولّى أخوكَ فما أمضّنيَ النوى ... ولقد قدمتَ فما هششتُ إلى اللقا

أقبلتَ والدنيا إليَّ بغيضةٌ ... هلّا سبقتَ إليَّ أسبابَ الشقا؟!

حنقتَ بلا سببٍ عليَّ وإنــه ... سببٌ جديرٌ عندَه أن أحنقا

علقتْ أخي كفُّ المنونِ وكدتُ أن ... أسعى على آثارِهِ لولا التُّقى

ما أشفقتْ نفسي عليَّ وإنما ... أشفقتُ أن أبكي الصديقَ المُشفقا

ودّعتُه كالبدرِ عندَ تمامِهِ ... والبدرُ ليسَ بآمنٍ أن يُمحقا

ولقدْ رجوتُ لهُ البقاءَ وإنما ... يدنو الحِمامُ لمن يحبُّ له البقا

قيلَ اعشقوها قلت : لم يَبقَ لنا
مَعَا قلوبٌ كي نُحِبَّ ونَعشقَا

إن لم تكنْ ذاتُ البنين شَفيقةً
هيهاتَ تَلقى من بنيها مُشفِقَا

أصبحتُ حيثُ النفسُ لا تَخشى أذىً
أبداً وحيثُ الفكرُ يغدو مُطلَقَا

نَفسي اخلُدي ودَعي الحنينَ فإنما
جهلٌ بُعَيْدَ اليومِ أن تَتشوّقَا

هذي هي « الدُّنيا الجَديدةُ » فانظُري
فيها ضياءَ العِلمِ كيفَ تألَّقَا

إني ضَمِنتُ لكِ الحياةَ شَهيّةً
في أهلِها والعيشَ أزهرَ مُونِقَا

عام ١٩١٠

إني سكتُّ وما عدمتُ المنطقا ... لولا أخوكَ سبقتُ فيكَ الأسبقا

وهززتُ أوتارَ القلوبِ بصامتٍ ... يشتاقُ كلُّ مهذبٍ أن ينطقا

فبعثتُ في أفواههم مثلَ الطلى ... ونفثتُ في أسماعهم شبهَ الرقى

وألنتُ قاسي الشعرَ حتى يُبتغى ... وشددتُ منه اللينَ حتى يُتقى

وجلوتُ للأبصارِ كلَّ خريدةٍ ... عصماءَ تحسدُها النجومُ تألّقا

تبدو فتتركُ كلَّ قلبٍ شيّقٍ ... خلواً ، وتتركُ كلَّ خالٍ شيّقا

ولي أخوكَ فما أمضني النوى ... ولقد قدمتَ فاهششتُ إلى اللقا

أقبلتَ والدنيا إليَّ بغيضةٌ ... هلّا سبقتَ إليَّ أسبابَ الشقا ؟ !

حنقتَ بلا سببٍ عليَّ وإنـــهُ ... سببٌ جديرٌ عندهُ أن أحنقا

علقتْ أخي كفُّ المنونِ وكدتُ أن ... أسعى على آثارهِ لولا التُقى

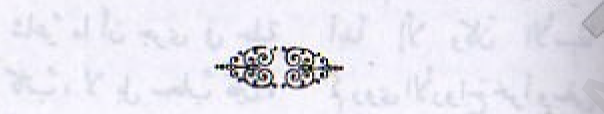
ما أشفقتْ نفسي عليَّ وإنما ... أشفقتُ أن أبكي الصديقَ المُشفقا

ودّعتهُ كالبدرِ عندَ تمامِهِ ... والبدرُ ليسَ بآمنٍ أن يُمحقا

ولقدْ رجوتُ لهُ البقاءَ وإنما ... يدنو الحمامُ لمن يحبُّ له البقا

أصبحتُ مثلَ النسرِ قُصَّ جناحُهُ فَهَوَى ، ولو سَلِمَ الجناحُ لحلّقا
نائي الرجاء فلا أسيرٌ موثقٌ أرجو الفكاكَ ، ولستُ حراً مُطلقا
ولقدْ لبستُ من السَّوادِ شعاراً حتى خضبتُ من الحِدادِ المَفرِقا
وزجرتُ عيني أن تُسَرَّ بمنظرٍ ومنعتُ قلبي بعدَهُ أن يَخفقا
لا أظلمُ الأيامَ فيما قد جَنَتْ لا تأمنِ الأيامَ أن تتفرّقـــا
كُنْ كيفَ شئتَ فلستُ أسكنُ للمنى بعدَ الحبيبِ ، ولستُ أحذرُ موبقا
عامٌ نسيتُ سعودَهُ بنحوسِهِ قد يَحجبُ الليلُ الهلالَ المُشرقا
لم أنسَ طاغيةَ الملوكِ وقد هَوَى عن عَرْشِهِ وأسيرهُ لما ارتقى
والشاهُ منخلعُ الحشاشةِ واجفٌ أرأيتَ شاهاً قطُّ أصبحَ بَيْدَقا ؟
ما زالَ يحتقرُ الظبى حتّى غدا لا تُذكرُ الأسيافُ حتى يُصعقا
بِتْنا إذا التركيُّ ضجَّ مهللاً عَبَثَ الهوى بالفارسيِّ فصفّقا
ذكرى تحرّكُ كلَّ قلبٍ ساكنٍ حتّى ليعشقَ بعدَها أن يعشقا
فيمَ على النيلِ النحوسُ ولم يَكُنْ دونَ الخليجِ ولا الفراتِ تَدفّقا
إن لم أذُدْ عن أرضِ مصرَ موفقاً أودى بآمالي الزمانُ موفقا
ما بالها تَشكو زوالَ بَهائِها وهيَ التي كانتْ تزينُ المشرقا
قدْ أخلقتْ كفُّ السياسةِ عهدَها إنَّ السياسةَ لا تُراعي موثقا
كذبوا على مصرَ وصُدّقَ قولُهُمْ والشرُّ إن يجدِ الكذوبَ مصدّقا

وأبوا علينا أننا لا نتّقي من مأزقٍ حتى نصادفَ مأزقا
يتهلكوا بنا في كلِّ وادٍ ضيّقٍ حتّى قتلنا أن يُصيبوا ضيّقا
مَنَعُوا الصحافةَ أن تَبُثَّ شكاتَنا منعوا الكواكبَ أن تبينَ وتشرقا
لَوْ أنصفوا رَفَعُوا القيودَ فإنّما يشكو الأسيرُ الأسرَ إما أرهقا
وسعوا إلى سَلْبِ القناةِ فأخفقوا سعياً ، وشاءَ اللهُ أن لا تُخفقا
عَرَضَ الحسابَ المستشارُ ولم يَكُنْ لولا السياسةِ حاسباً ومدقّقا
أيكونُ غاصبنا ويزعمُ أنَّهُ أمسى علينا مُحسناً متصدّقا
أبني الكنانةِ لستُمْ أبناءَهــا حتى تَقُوا مصرَ البلاءَ المُطبقا
إن تحفظوها تحفظوا في نَسْلِكُمْ ذكراً يخلّدُ في الليالي رونقا



في يوبيل شكيب أرسلان

امنحيني، يا نجومُ، الألقا   وَهَبيني، يا زهورُ، العبقا
أبعثُ الشعرَ إلى الدنيا هَوًى   وضياءً وغنـــاءً شَيِّقا
فإذا خامرَ نفساً طربت   وإذا لامسَ قلباً خَفَقَا
وإذا يُتــلى لمشتاقٍ سلا   وإذا يُروى لباكٍ صفَّقا
فَمِنَ الشعرِ لقومٍ حكمةٌ   ومن الشعرِ لأقوامٍ رُقى
أنا لا أستعذبُ الشعرَ إذا   لم أجِدْهُ روضةً أو أُفقا

...

حبَّذا ليلتَنَا من ليلةٍ   يُكرمُ الأحرارُ حراً لَبِقَا
شاعرٌ ما أن جرى في حلبةٍ   أبداً إلّا وكانَ الأسبقا
كاتبٌ، لا بل سحابٌ هَتِنٌ،   كم روى الأرواحَ خمراً وسقى
قُلْ لمن حاولَ أن يلحقَهُ   إنَّ هذا عارضٌ لن يُلحقا
قَــلَمٌ يَهمي على أُمّتِهِ   رحمةً إذ تمطرُ الدنيا شقا
وإذا ما أوذيتْ أو ظُلِمَتْ   أمطرَ الدنيا شواظاً محرقا

وحوَتْ زعقاتُهُ كابنِ الشَّرى   ريعَ في عِرّيسهِ أو ضُويقا
هُوَ للحقِّ إلى أن ينجلي   وعلى الباطلِ حتى يُزهقا
أنفقَ العمرَ على خدمتها   آهِ ما أغلى الذي قد أنفقا
قُلْ لِمن أرجفَ كي يقلقَهُ   في حماهُ إنَّهُ لن يَقلقــا
ولِمَنْ حاولَ أن يغضبَهُ   إنــه أعلى وأسمى خُلُقَا
أأمــيرٌ تتقيه دولةٌ   يتوقى كاشحاً مختلقا ؟
وَهوَ مثلُ الشمسِ لن يبلغَهَا   صاعدٌ مهما تعالى وارتقى
إنَّ يوبيلَكَ يوبيلُ النهى   هنأتْ بغدادُ فيه جُلَّقا

•

الفراشة المحتضرة

لو كانَ لي غيرُ قلبي عندَ مرآكِ   لمّـــا أضافَ إلى بلواهُ بلواكِ

فيمَ ارتجاجُكِ هل في الجوِّ زلزلةٌ   أم أنتِ هاربةٌ من وجهِ فتّاكِ ؟

وكمْ تدورينَ حولَ البيتِ حائرةً   بنتَ الربى ليسَ مأوى الناسِ مأواكِ

قالوا فراشةُ حقلٍ لا غَناءَ بها   ما افقرَ الناسَ في عيني وأغناكِ !

سِماهُ غاويةٍ ، أطوارُ شاعرةٍ ،   على زَهـــادةِ عبّادٍ ونسّاكِ

طغراءُ مملكةٍ وشْيُ حواشيها   مَنْ ذوّبَ الشمسَ ألواناً ووشّاكِ

رأيتُ أحلامَ أهلِ الحبِّ كلّهمِ   لمّا مثلتِ أمامي عندَ شبّاكي

من نائمينَ على ذلٍّ ومَتربةٍ   ومن تجّارٍ وأشرافٍ وأملاكِ

وقصَّ شكواكِ قلبي قصةً عجباً   من قبلُ أنْ سمعتْ أذناي شكواكِ

أليسَ فيكِ من العشّاقِ حيرتُهمْ ؟   فكيفَ لا يفهمُ العشّاقُ نجواكِ ؟

*

حلمتُ أنَّ زمانَ الصَّيفِ منصرمٌ   ويلاهُ ! حقّقتِ الأيامُ رؤياكِ

فقد نعاهُ إليكِ الفجرُ مرتعشاً   وليسَ منعاهُ إلّا بعضَ منعاكِ

فالزهرُ في الحقلِ أشلاءٌ مبعثرةٌ   والطيرُ ؟.. لا طائرٌ إلّا جناحاكِ

مدَّ النهارُ إليهِ كفَّ مختلسٍ   وفتّحَ الليلُ فيهِ عينَ سفّاكِ

شاءَ القضاءُ بأنْ يَشقى فجرّدهُ   مِنَ الحليِّ وأنْ تشقَي فأبقاكِ

لم يبقَ غيرُكِ شيءٌ من محاسنهِ   ولا من العابدينَ الحسنَ إلّاكِ

تزوّدَ الناسُ منهُ الأُنسَ وانصرفوا   وما تزوّدَ إلّا اليأسَ جفناكِ

*

يا روضةً في سماءِ الروضِ طائرةً   وطائراً كالأقاحي ذا شذىً ذاكِ

مضى مع الصَّيفِ عهدٌ كنتِ لاهيةً   على بساطٍ من الأحلامِ ضحّاكِ

تمسينَ عندَ مجاري الماءِ نائمةً   وللأزاهرِ والأعشابِ مَغداكِ

فكلّما سمعتْ أذناكِ ساقيةً   حنّتْ للسفحِ من شوقٍ مطاياكِ

وكلّما نوّرتْ في السّفحِ زنبقةٌ   صفّقتِ من طربٍ واهتزَّ عطفاكِ

فما رشفتِ سوى عطرٍ ولا انفتحتْ   إلّا على الحسَنِ المحبوبِ عيناكِ

وكم لثمتِ شفاهَ الوردِ هائمةً   وكمْ مسحتِ دموعَ النرجسِ الباكي

وكم ترجّحتِ في مَهْدِ الضياءِ على   توقيعِ لحنِ الصبا أو رجعهِ الحاكي

*

وكم ركضتِ فأغريتِ الصغارَ ضُحى   بالركضِ في الحقلِ ملهاهمْ وملهاكِ

منّوا بأسرِهمِ إياكِ أنفسَهمْ   فأصبحوا بتمنّيهمْ أساراكِ

جروا قُصاراهمُ حتى إذا تعبوا … وقفتِ ساخرةً منهمْ قُصاراكِ
لولا جَناحاكِ لم تسلمْ طريدتُهمْ، … قد نجّاكِ ، ولكنْ أينَ منجاكِ؟
ها أنتِ كالحقلِ في نزعٍ وحشرجةٍ … وتهتْ قُواكِ كما استرخى جَناحاكِ
أصبحتِ للبؤسِ في مغناكِ تائهةً … كأنهُ لم يَكنْ بالأمسِ مغناكِ

★

فراشةَ الحقلِ ... في روحي كآبتهُ … مما عراهُ ومما قد تولّاكِ
أحببتهُ وهو دارٌ تلعبينَ بها … وسوفَ تهواهُ نفسي وهوَ مثواكِ
قد باتَ قلبي في دنيا مشوّشةٍ … منذُ التفتُّ إلى آثارِ دنياكِ
لا يستقرُّ بها إلّا على وَجَلٍ … كالطيرِ بينَ أحابيلٍ وأشراكِ

★

خلتْ أرائكُ كانتْ أمسِ آهلةً … غنّاءَ ، فاليومُ لا شادٍ ولا شاكِ
أرضٌ خلاءٌ وجوٌّ غيرُ ذي ألقٍ … بلى ، هناكَ ضبابٌ فوقَ أشواكِ
فيا رياحَ الخريفِ العاتياتِ كفى … عصفاً فقد كثُرتْ في الأرضِ قتلاكِ
يفِ اعتذارُكِ إنْ قالَ الالهُ غداً: … هل الفراشةُ كانتْ مِنْ ضحاياكِ ؟
يا نغمةً تتلاشى كلّما بَعُدَتْ … إنْ غبتِ عنْ مسمعي ما غابَ معناكِ
ما أقدرَ اللهَ أنْ يُحييكِ ثانيةً … مع الربيعِ كما مِن قبلُ سوّاكِ
فيرجعُ الحقلُ يزهو في غلائلهِ … وترجعينَ وأغشاهُ فألقاكِ !

روحي فداك

لما رأيتُ الوردَ في خدّيكِ
وشقائقَ النعمانِ في شفتيكِ
وعلى جبينكِ مثلَ قطراتِ الندى
والنرجسَ الوسنانَ في عينيكِ
ونشقتُ من فَوْدَيكِ ندًى عاطراً
لمّـا مشتْ كفّاكِ في فَوْديكِ
ورأيتُ رأسكِ بالأقاحِ متوّجاً
والفلُّ طـاقاتٌ على نهديكِ
وسمعتُ حولكِ همسَ نسماتِ الصَّبا
عندَ الصباحِ تهزُّ من عطفيكِ
أيقنتُ أنكِ جنةٌ خـلّابةٌ
فحننتُ من بَعدِ المشيبِ إليكِ

ولذاكَ قد صيَّرتُ قلبي نحـــلةً

يا جنَّتي حتى يحــــومَ عليكِ

روحي فداؤكِ إنها لو لم تكُنْ

في راحتيكِ هَوَتْ على قدميكِ...

•

يا جنَّتي

ــــا رأيتُ الوردَ في خدَّيكِ ... وشقائقَ النعمانِ في شفتيكِ

ونشقتُ من فَوْديكِ ندىً عاطراً ... لمّا مشتْ كفّاكِ في فوديكِ

ورأيتُ رأسكِ بالأقاحِ متوَّجاً ... والفلُّ طاقاتٍ على نهديكِ

وسمعتُ حولكِ همسَ أرواحِ الصبا ... عندَ الصباحِ تهزُّ من عطفيكِ

أيقنتُ أنكِ جنّةٌ خلّابةٌ ... فحننتُ من بعدِ المشيبِ إليكِ

ولذاكَ قد صيَّرتُ قلبي نحلةً ... يا جنَّتي كيما يحومَ عليكِ

روحي فداؤكِ إنها لو لم تكنْ ... في راحتيكِ هَوَتْ على قدميكِ

•

هدية العيد

أيُّ شيءٍ في العيدِ أهدي إليكِ / يا ملاكي، وكلُّ شيءٍ لديكِ؟
أسواراً؟ أم دُملجاً من نُضارٍ؟ / لا أحبُّ القيودَ في معصميكِ
أم خموراً؟ وليسَ في الأرضِ خمرٌ / كالتي تسكبينَ مِنْ لحظيكِ
أم وروداً؟ والوردُ أجمله عندي / الذي قد نشقتُ من خدّيكِ
أم عقيقاً كمهجتي يتلظّى؟ / والعقيقُ الثمينُ في شفتيكِ
ليسَ عندي شيءٌ أعزُّ من الروحِ / وروحي مرهونةٌ في يديكِ



أخت البلجيك

يا لَوعةً حارَ النُّطاسي فيكِ / كَمْ يَشتكي غيري وكَم أُخفيكِ
إنْ بُحتُ بالشكوى فغايةُ مُجهَدٍ / لَمْ تُبقِ لي كَبِداً فأستبقيكِ
أجنايةُ الطرفِ الكحيلِ على الحشا / اللهُ حسبي في الدمِ المسفوكِ
ما في الشرائعِ لا ولا في أهلِها / مَن يَستحِلُّ الأخذَ مِن جانيكِ
يا هذهِ كم تَشحذينَ غِرارَهُ / أو ما خشيتِ حدَّهُ يؤذيكِ
يا أختَ ظبي القاعِ لو أعطيتِهِ / لحظيكِ صادَ الصائديهِ أخوكِ
روحي فدى عينيكِ مَعاً جارتا / في مهجتي وأبي فداءُ أبيكِ
زمناً فكلُّ مُصمَّمٍ ومُقوَّمٍ / تابٍ وكلُّ مُسرَّدٍ وحبيكِ
اللهَ في قتلى جفونِكِ إنَّهمْ / ظلَموا نفوسَهُمُ وما ظلموكِ
إنْ تُبصريني أحتمي فتكاتِها / فلقدْ أصولُ على القنا المشبوكِ
كَمْ تجحدينَ دَمي وقدْ أبصرتُهُ / ورداً على خدّيكِ غيرَ مَشوكِ
رُدّي حياتي إنّها في نظرةٍ / أو زورةٍ أو رشفةٍ مِن فيكِ
لو تنظرينَ إلى قتيلِكِ في الدُّجى / يرعى كواكبَهُ ويسترعيكِ
والليلُ مِن همِّ الصباحِ وضوئهِ / حيرانُ حيرةَ عاشقٍ مَهتوكِ

لعجبت من زور الوشاة وإفكهم ... ومن الذي قاسيت في حبك

حولي إذا أرخى الظلام سجوفه ... ليلان: ليل دجى وليل شكوك

تمتد فيه بي الكآبة والأسى ... مثل امتداد الحرف بالتحريك

مالي إذا شئت السلو عن الهوى ... وقدرت أن أسلوك لا أسلوك

فكي إساري إن خلفي أمة ... مضنوكة في عالم مضنوك

وأجية سد القنوط عليهم ... والخوف كل معبد مسلوك

لا تسأليني كيف أصبح حالهم ... إني أخاف حديثهم يشجيك

باتوا برغمهم كما شاء العدى ... لا حزنهم واه ولا بركيك

لا يملكون سوى التحسر إنه ... جهد الضعيف الواجد المفلوك

تترقرق العبرات فوق خدودهم ... يا من رأى درراً بغير سلوك

أخذ العزيز الذل من أطواقه ... والجوع يأخذ مهجة الصعلوك

قل للمبذر في الملاهي ماله ... ماذا تركت لذي الأسى المتروك

أيبيت يشرب من معين دموعه ... وتبيت تحسوها كعين الديك؟

ويروح في أطماره وتميس في ... ثوب لأيام الهناء محوك

إن كنت تأبى أن تشاركه سوى ... نعمى الحياة فأنت غير شريك

يا ضرة البلجيك في أحزانها ... تبكيك حتى أمة البلجيك

حملت ما يعيي الشواهق حمله ... يا ليت ما حملت في شانيك

سل البغاة عليك حمر سيوفهم ... لا أنت جانية ولا أهلوك

جن القضاء فغال حسنك قبحه ... وأذل أبناء الطغام بنيك

لا أشتكي الدنيا ولا أحداثها ... هذي مشيئة ذي المشيئة فيك

لو أملك الأقدار أو تصريفها ... لأمرتها فجرت بما يرضيك

ولو انها تدري وتعقل لانثنت ... ترمي بأسهمها الذي يرميك

إن يفتديك أخو الغنى بنضاره ... فبدرهمي وبمهجتي أفديك

ومنازل البؤساء أولى بالندى ... ولأنت أولاها بمال ذويك

***

يا أمة في الغرب ينعم شطرها ... رفقاً بشطر بائس منهوك

جادت عليكم، قبلما كنتم، بكم ... جودوا ببعض العسجد المسبوك !!!

•

الشعر والشعراء

بعيشكَ هل جزيتَ عن القوافي ... بغير (أجدت) أو (لافضَّ فوكَ)؟

جزاؤكَ من كريمٍ أو بخيلٍ ... رقيقاً كانَ شعركَ أو ركيكا

كلامٌ ليسَ يُغني عنكَ شيئاً ... إذا لم يقتلِ الآمالَ فيكا

وربّما يمنُّ عليكَ قومٌ ... كأنكَ قد غدوتَ بهم مليكا

إذا أرسلتَ قافيةً شروداً ... فقد أيقظتَ في الناسِ الشكوكا

وقد تُبلى بأحمقَ يدعيها ... فإن تغضبْ لذلكَ يدعيكا

•

سقوط ارضروم

أعِدْ حديثكَ عِندي أيُّها الرَّجلُ ... وقلْ كما قالتِ الأنباءُ والرُّسلُ

قد هاجَ ما نقلَ الرّاوونَ بي طرباً ... ما أجملَ الرُّسلَ في عيني وما نقلوا

فاجمعْ رِواياتِهمْ واملأْ بها أذني ... حتى تراني كأنّي شاربٌ ثملُ

دعْ زُخرُفَ القولِ فيما أنتَ ناقلُهُ ... إنَّ المليحةَ لا يُزري بها العطَلُ

فكلُّ ننعمْ إذا قلتَ «السّلافُ» فمْ ... وكلُّ قولٍ، إليهمِ ينتمي، عسَلُ

لا تسقني الرّاحَ إلّا عِندَ ذكرِهِمِ ... أو ذكرِ قائدِهمْ أو ذكرِ ما فعلوا

هُمُ المَناسيحُ يحيي الأرضَ جودُهُمُ ... إذا تنكّبَ عنها العارضُ الهطِلُ

هُمُ المَصابيحُ تستهدي العيونُ بها ... إذا اكفهرَّ الدُّجى واحتارَتِ المُقَلُ

هُمُ الغُزاةُ بنو الصِّيدِ الغُزاةِ، بهمْ ... وبطشِهمْ بالأعادي، يُضرَبُ المثَلُ

قومٌ يَبيتُ الضّعيفُ المُستجيرُ بهمْ ... مِنْ حولِهِ الجُندُ والعسّالةُ الذُّبُلُ

فَما يُلِمُّ بمنْ صافاهُمُ ألمٌ ... ولا يدومُ لمَنْ عاداهُمُ أملُ

تَجري العُلوجُ إذا هزّوا صوارمَهُمْ ... أيَّ الدّماءِ بها في الأرضِ تَنهَمِلُ

***

أيَطلبُ التُّركُ أنْ تعلو أهِلّتُهُمْ ... ...

«وللغرندقِ»، رأيٌ مثلُ صارمهِ   يزلُّ عن صفحتيهِ الحادثُ الجَلَلُ
المقبلُ الصدرِ، والأبطالُ ناكصةٌ   تحتَ العجاجةِ لا يبدو لها قُبُلُ
والباسمُ الثغرِ، والأشلاءُ طائرةٌ   عن جانبيهِ وحرُّ الطعنِ متصلُ
سعدُ السعودِ على السؤالِ طالعةٌ   لكنّهُ في ميادينِ الوغى زُحَلُ
في كلِّ سيفٍ سوى بتّارهِ فَلَلٌ   وكلُّ رأيٍ سوى آرائهِ زَلَلُ!

***

يا ابنَ الملوكِ الأُلى قد شادَ واحدُهُمْ   ما لم تُشيِّدْهُ أملاكٌ ولا دُوَلُ
وقائدَ الجيشِ ما للريحِ مُنفَرَجٌ   فيهِ، ولكن لها من حولِها زَجَلُ
توهّمَ التركُ لمّا حانَ حَيْنُهُمُ   أنّ الأُلى وَتَروا آباءَهُمْ غفلوا
حتى طلعتَ من «القوقاسِ» في لَجِبٍ   تضيقُ عنهُ فِجاجُ الأرضِ والسُّبُلُ
فأدركوا أنّهم ناموا على غررٍ   وأنّكَ البدرُ في الأفلاكِ تنتقلُ
يا يومَ صبّحتَهُمْ والنقعُ معتكرٌ   كأنّهُ الليلُ فوقَ الأرضِ منسدلُ
ليلٌ يسيرُ على ضوءِ السيوفِ بهِ   ويهتدي بالصليلِ الفارسُ البطلُ
بكلِّ أروعَ ما في قلبهِ خَوَرٌ   عندَ الصدامِ، ولا في زندِهِ شَلَلُ
وكلِّ منجردٍ في سرجهِ أسدٌ   في كفّهِ خذِمٌ، في حدّهِ الأجلُ
وكلِّ راعفةٍ بالموتِ هادرةٍ   كأنّها الشاعرُ المطبوعُ يرتجلُ
سوداءَ تقذفُ من فُوّهاتها حِمماً   هي الصواعقُ إلّا أنّها شُعَلُ

لا تحفظُ الدرعُ منها جسمَ لابسِها   ولا يُنجّي الحصونَ الصخرُ والرَّمَلُ
فالبيضُ تأخذُ منهم كيفما انفتلت   والذعرُ يُمعِنُ فيهم كيفما انفتلوا
وكلّما وصلوا ما انبتَّ باغتَهُمْ   ليثٌ يُقطِّعُ بالفصّالِ ما وصلوا
فأسلموا «أرضروماً» لا طواعيةً   لو كانَ في وسعهمْ إمساكُها بخلوا
كم حوّطوها وكم شادوا الحصونَ بها   حتى طلعتَ فلا حصنٌ ولا رجُلُ
وفرَّ قائدُهُمْ لمّا عرضتَ لهُ   كما يفرُّ أمامَ القشعمِ الحَجَلُ
ومن يَشُكُّ بأنّ الوَعلَ منهزمٌ   إذا التقى الأسدُ الضرغامُ والوَعِلُ؟
لم يقصرِ الرمحُ عن إدراكِ مُهجتهِ   لكنْ حمى صدرَهُ وقعَ الظُّبى، الكَفَلُ(1)
تعلّمَ الركضَ حتى ليسَ تلحقُهُ   هُوجُ الرياحِ ولا خيلٌ ولا إبلُ
يخالُ من رُعبهِ الأطوادَ راكضةً   معْهُ وما ركضتْ قُدّامَهُ القُلَلُ
ويحسبُ الأرضَ قد مادتْ مناكبُها   كذاكَ يمسخُ عينَ الخائفِ الوَجَلُ
وباتَ «أنورُ» في «يلدزَ» مُختبئاً   لأُمّهِ وأبيهِ الثُّكلُ والهَبَلُ

---

(1) المعنى أن الرمح لم يقصر عن ادراك صدر التركي لقتله، ولكن التركي لم يستقبل الرمح بصدره وانما استقبله بظهره... كناية عن الجبن والفرار.

يطيرُ، إن صرّتِ الأبوابُ، طائرُهُ
وَيصرخُ «الغوثَ» إمّا وَسوسَ القفلُ

في جَفنِهِ أرقٌ، في نفسِهِ فرقٌ — في جِسْمِهِ سقَمٌ، في عقلِهِ دَخلُ

في وجهِهِ صُفرةٌ حارَ الطّبيبُ بها — ما يصنعُ الطبُّ فيمَن داؤهُ الخبَلُ؟

لم يبقَ فيهِ دمٌ كيما يجمّعهُ
في وجههِ، عِندَ ذكرِ الخيبةِ، الخجلُ

يطوفُ في القصرِ لا يلوي على أحدٍ
كأنّهُ ناسِكٌ في القفرِ معتزلُ

لا بهجةُ الملكِ تُنسيهِ هَواجِسَهُ — ولا تروّحُ عنهُ الأعينُ النُّجلُ

يَزيدُ وحشتَهُ إعراضُ عُوّدِهِ — وينكأُ الجرحَ في أحشائِهِ العذَلُ

إذا تمثّلَ جيشَ التّركِ مُندحِراً
ضاقَتْ بهِ، مثلَما ضاقَتْ بذا، الحِيَلُ

***

يا كاشفَ الضُّرِّ عمّن طالَ صبرُهُمُ
على النّوائِبِ، لا مرّتْ بكَ العِلَلُ

أطلقتَهم مِن قيودِ الظُّلمِ فانطلقوا — وكلُّهمْ ألسُنٌ تدعو وتبتهلُ

لو كانَ ينشرُ ميتاً غيرُ بارئِهِ
نَشرتَ، بعدَ الرّدى، أرواحَ مَن قُتِلوا

بَغى عليهِمْ عُلوجُ التّركِ بَغيَهُمُ — لم يشحذوا لِلوَغى سيفاً ولا صقلُوا

خانوهُمُ وأذاعوا أنّهمْ نفرٌ — خانوا البِلادَ بما قالوا وما عمِلوا

يا للطّغامِ! ويا بُهتانَ ما زعَموا
متى أساءَ إلى ذي المخلَبِ الحمَلُ؟

هبُوا الرّجالَ لأمرٍ أحدثوا حدَثاً
فما الّذي جنتِ العذراءُ والطّفلُ؟

أجدُّكُم، كلّما جوٌّ خلا، «أسدٌ»
وجدُّكُم، كلّما شبّتْ وغىً، «ثُعَلُ»؟

قد جاءَ مَن يمنعُ الضّعفى ويُرغِمُكم
إنْ تحمِلوا عنهمُ النّيرَ الّذي حمَلوا

أمِنتْ «أرمينيا»، ممّا تحاذرُهُ — فلن تعيثَ بها الأوغادُ والسّفَلُ

***

ظنّوكَ في شُغُلٍ حتّى دهمتَهُمُ — فأصبحوا ولهمْ عن ظنّهمْ شغُلُ

مزّقتَ جمعَهمُ تمزيقَ مقتدِرٍ — على المهنّدِ، بعدَ اللهِ، يتّكِلُ

فهمْ شراذمُ حيرى لا نظامَ لها — كأنّهمْ نَورُ الآفاقِ أو هَمَلُ

ألبستَهمْ ثوبَ عارٍ لا تطهّرُهُ — نارُ الجحيمِ ولو في حرّها اغتسَلوا

«جاويدُ» فوقَ فراشِ الذُّلِّ مضطجِعٌ
و«طلعتٌ» بِرداءِ الخوفِ مشتمِلُ

أتستقرُّ جنوبٌ في مضاجعها / وفي مضاجعها الأرزاء والغيلُ؟
وتعرفُ الأمنَ أرواحٌ تروّعها / ثلاثةٌ: أنتَ والنيرانُ والأسلُ؟!

لو لم تقاتلهمْ بالجيشِ قاتلهمْ / جيشٌ بغيرِ سلاحٍ إسمهُ الوجلُ
أجريتَ خوفَ المنايا في عروقهمُ / فلن يعيشَ لهمْ نسلٌ إذا نسلوا
قدْ ماتَ كهلهمُ من قبلِ ميتتهِ / وشاخَ ناشئهمْ من قبل يكتهلُ
وقد ظفرتَ بهمْ والرأسُ مشتعلٌ / كما ظفرتَ بهمْ والعمرُ مقتبلُ
فتحٌ تهللتِ الدنيا بهِ فرحاً / فكلُّ ربعٍ، خلاءَ أستانةٍ، جذلُ
الشعبُ مبتهجٌ، والعرشُ مغتبطٌ / وروحُ جدكَ في الفردوسِ تحتفلُ!..

•

حكمة المتنبي

جلستُ أناجي روحَ أحمدَ في الدجى / وللهمِّ حولي كالظلامِ سدولُ
أفكرُ في الدنيا وأبحثُ في الورى / وعينيَ ما بينَ النجومِ تجولُ
طويلاً، إلى أن نالَ من خاطري الونى / ورانَ على طرفي الكليلِ ذبولُ
فأطرقتُ أمشي في سطورِ كتابهِ / بطرفي، فألفيتُ السطورَ تقولُ
«سوى وجعِ الحسادِ داوِ فإنهُ / إذا حلَّ في قلبٍ فليسَ يحولُ،
«فلا تطمعَنْ من حاسدٍ في مودةٍ / وأن كنتَ تبديها لهُ وتنيلُ»

•

عطبُ حال

هَجرتُ القوافي مَا بنفسي مَلالة ... سِواي، إذا اشتدَّ الزَّمانُ، مَلُولُ

ولكنْ عدَتني أن أقولَ حَوادثٌ ... إذا نَزلَتْ بالطودِ كادَ يزولُ

وبَغَّضني الأشعارَ أنَّ دُعاتها ... كثيرٌ، وأنَّ الصّادقينَ قليلُ

وأنَّ الفتى في ذي الرُّبوعِ عقارُهُ ... وأموالهُ والباقياتُ فضُولُ

سَكتُّ سكُوتَ الطَّيرِ في الرّوضِ بعدَما ... ذوى الرَّوضُ واجتاحَ النَّباتَ ذبُولُ

فما هزَّني إلّا حَديثٌ سَمِعتهُ ... عَن الغيدِ كالغيدِ الحِسانِ جَميلُ

فما أنا في هذي الحِكايةِ شاعِرٌ ... ولكنْ كما قالَ الرُّواةُ أقولُ

***

فَتًى مِن سَراةِ النّاسِ، كلُّ جُدودهِ ... سَريٌّ، كريمُ النَّبعتَينِ، نَبيلُ

قَضَى في ابتِناءِ المُكرماتِ زَمانَهُ ... يَنالُ ويَرجُوهُ السّوى فَينيلُ

فَذلكَ مَباني عِزّهِ الدَّهرُ بَغتَةً ... وقَلَّ مِنهُ الظُّفرُ فهو كليلُ

هَوى مِثلما يَهوي إلى الأرضِ كوكَبٌ ... كَذاكَ اللَّيالي بالأنامِ تدولُ

وكانَ لهُ في الدَّهرِ بَطشٌ وصَولةٌ ... فأمسَتْ عَليهِ الحادِثاتُ تَصُولُ

وكانَ لهُ ألفا خَليلٍ وصَاحِبٍ ... فأعوَزَهُ، عِندَ البَلاءِ، خَليلُ

تَفرّقَ عَنهُ صَحبُهُ فكأنَّما ... بهِ مَرَضٌ، أعيا الأُساةَ، وبِيلُ

وأنكرَهُ مَن كانَ يَحلِفُ باسمِهِ ... كما يُنكرُ الدَّينَ القديمَ عَميلُ

فأصبحَ مِثلَ الفُلكِ في البحرِ ضائعاً ... يَميلُ مَعَ الأمواجِ حَيثُ تَميلُ

يَكادُ يَمدُّ الكفَّ لولا بَقيّةٌ ... مِن الصَّبرِ في ذاكَ الرِّداءِ تجولُ

***

زَوى نَفسَهُ كي لا يَرى النَّاسُ ضُرَّهُ ... فَيَشمتَ قالٍ أو يُسرَّ عَذولُ

بدارٍ ... أناخَ البُؤسُ فيها رِكابَهُ ... وجَرَّتْ عَليها للخَرابِ ذُيولُ

مُهدَّمَةِ الجُدرانِ مِثلَ ضُلوعِهِ ... بها اليأسُ صَمتٌ والسَّقامُ يجولُ

تَمرُّ عَليها الرِّيحُ وهْيَ حَزينةٌ ... ويَرنو إليها النَّجمُ وهو ضَئيلُ

إذ مَا تَجلّى البَدرُ في الأُفقِ طالِعاً ... رَعاهُ، إلى أن يَعتريهِ أُفولُ

جِبالُ الأماني عِندَ قومٍ شُعاعُهُ ... ولكنَّهُ في مُقلَتيهِ نُصُولُ

فيا عَجباً حَتّى النُّجومُ تُضِلُّهُ ... وفي نورِها لِلمُدلِجينَ دليلُ

وهَلْ تَهتَدي بالبَدرِ عَينٌ قَريحةٌ ... عَليها مِن الدَّمعِ السَّخينِ سُدولُ؟

***

غفا الناسُ ، واستولَت عليهم سكينةٌ ،

فما بالُه استولى عليهِ ذهولُ ؟

تأمّلَ في أحزانِه وشقائِه … فهانَ عليه العيشُ وهو جميلُ

فمدَّ إلى السكّينِ كفاً نقيّةً … أبتْ أن يراها تستغيثُ بخيلُ

وقرّبها من صدرِه ثمّ هزّها … وكاد بها نحو الفؤاد يميلُ

وإذ شبحٌ يستعجلُ الخطوَ نحوَه … وصوتٌ لطيفٌ في الظلام يقولُ :

رُويدكَ ، فالضّنكُ الذي أنتَ حامل

متى زالَ هذا الليلُ سوفَ يزولُ

نعم ؛ هي إحدى محسناتِ نسائنا … ألا إنّ أجرَ المحسناتِ جزيلُ

أبتْ نفسُها أن يكحلَ النومُ جفنَها … وجفنُ المعنّى بالسّهادِ كحيلُ

وأن تتولّى الابتساماتُ ثغرَها … وفي الحيِّ مكلومُ الفؤادِ عليلُ

فألقتْ إليهِ صرّةً وتراجعتْ … وفي وجهِها نورُ السّرورِ يجولُ

فلَم تتناقلْ صنعَها ألسنُ الورى … ولا قُرعتْ في الخافقَينِ طبولُ

ولا أحسنَتْ كي تعلنَ الصُّحْفُ إسمَها

فتعلمَ جاراتٌ لها وقبيلُ

كذا فليُواسِ البائسينَ ذوو الغِنى … وإنّي لهم بالصّالحاتِ كفيلُ

فإنَّ القصورَ الشّاهقاتِ إذا خلَت … مِن البرِّ والإحسانِ فهي طُلولُ

وخيرُ دموعِ الباكياتِ هي التي … متى سالَ دمعُ البائسينَ تسيلُ !

***

ألا إنَّ شعباً لا تعزُّ نساؤهُ … وإن طارَ فوقَ الفرقدينِ ، ذليلُ

وكلُّ نهارٍ لا يكنَّ شموسَه … فذلكَ ليلٌ حالكٌ وطويلُ

وكلُّ سرورٍ غيرَهنَّ كآبةٌ … وكلُّ نشاطٍ غيرَهنَّ خمولُ

رثاء *

أودى فتورُ الفرقدينِ ضئيلُ ... وعلى المنازلِ رهبةٌ وذهولُ

خلقَ الأسى في قلبِ من جهلَ الأسى
قولُ المخبّرِ : مـات رفائيلُ

فمن الجوى بين الضلوعِ صواعقٌ ... وعلى الخدودِ من الدموعِ سيولُ

قالَ الذي وجدَ الأسى فوقَ البكا ... وبكى الذي لا يستطيعُ يقولُ

يا مؤنسَ الأمواتِ في أرماسِها ... في الأرضِ بعدكَ وحشةٌ وخمولُ

لا الشمسُ سافرةٌ ولا وجهُ الثرى ... حالٍ ، ولا ظلُّ الحياةِ ظليلُ

ما زالَ هذا الكونُ بعدكَ مثلَهُ ... لكنّ نورَ الباصراتِ كليلُ

نبراسُنا في ليلِ كلِّ مُلمّةٍ ... الليلُ بعدكَ حالكٌ وطويلُ

هبني بيانكَ ، إنّ عقلي ذاهلٌ ... ساهٍ وغربُ يراعتي مفلولُ

قد فتَّ في عضدِ القريضِ وهدّهُ ... هولُ المصابِ ، فعقدُهُ محلولُ

مالي أرى الدنيا كأنّي لا أرى ... أحداً كأنّ العالمينَ فضولُ

(*) المثلث الرحمة المغفور له المطران رفائيل هواويني .

أبكي إذا مرّ الغناءُ بمسمعي ... فكأنّ شدوَ الشادياتِ عويلُ

نفسي التي عللتني بلقائهِ ... اليومَ لا أمـلٌ ولا تعليلُ

ذوبي فـإنّ العلمَ مادَ عمادُهُ ... والدينَ أغمدَ سيفهُ المسلولُ

هذا مقامٌ لا التفجّعُ سُبّةٌ ... فيهِ ولا الصبرُ الجميلُ جميلُ

ما كنتُ أدري قبلَ طارَ نعيُّهُ ... أنّ النفوسَ من العيونِ تسيلُ

ما أحمقَ الإنسانَ يسكنُ للمنى ... والموتُ يخطرُ حولَهُ ويجولُ

يهوى الحياةَ كأنّما هو خالدٌ ... أبداً ويعـلمُ أنّهُ سيزولُ

ومن العجائبِ أن يحنّ إلى غدٍ ... وغدٌ ، وما يأتي بهِ ، مجهولُ

لا تركننّ إلى الحياةِ فإنّهـا ... دنيا هلوكٌ للرجالِ قتولُ

سكتَ الذي راضَ الكلامَ وقادَهُ
حتى كأنّ لسانَهُ مكبولُ

يا قائلَ الخطبِ الحسانِ كأنّها ... لجمالِها ، الإلهامُ والتنزيلُ

إنْ كانَ ذاكَ الوجهُ حجّبهُ الثرى
للنجمِ في كبدِ السماءِ أفولُ

ليسَ الحِمامُ بناقدٍ لكنّما ... قدرُ العظيمِ على العظيمِ دليلُ

لم تحرسِ الأملاكُ قبرَكَ إنّهُ ... فيهِ الوقارُ وحولَهُ التبجيلُ

فلكم قطعتَ الليلَ خافَ نجمُهُ ... متهجّداً ، والساهرونَ قليلُ

مُستَنزلاً عفوَ الإلهِ عنِ الوَرى ... حتى كأنكَ وحدكَ المسئولُ
تَبغي اللذاذاتِ النفوسُ وتَشتهي ... واللهُ مـــا تَبغيهِ والإنجيلُ
لولا مدارسُ شدتَها وكنائسٌ ... ما كانَ إلا الجهلُ والتعطيلُ
أنفقتَ عمرَكَ في الإلهِ مُجاهداً ... أجرُ المجاهدِ في الآلهِ جزيلُ



المرأة والمرآة

أقامتْ لدى مرآتِها تتأملُ ... على غفلةٍ ممّنْ يلومُ ويَعذلُ
وبَينَ يديها كلّما ينبغي لِمَنْ ... يُصوّرُ أشباحَ الوَرى ويمثّلُ
مِنَ الغيدِ تَقلي كلَّ ذاتِ مَلاحةٍ ... كما باتَ يَقلي صاحبَ المالِ مُرمِلُ
تَغارُ إذا ما قيلَ تلكَ مَليحةٌ ... يَطيبُ بها للعاشقينَ التغزّلُ
فتحمرُّ غيظاً ثمّ تحمرُّ غيرةً ... كأنَّ بها حمّى تجيءُ وتُقفِلُ
وتُضمِرُ حقداً للمحدّثِ لو درى ... بهِ ذلكَ المسكينُ ما كادَ يهزلُ
أثارَ عليهِ حقدَها غيرَ عامدٍ ... وحقدُ الغواني صارمٌ لا يُفلَّلُ
فلوْ وجدتْ يوماً على الدهرِ غادةً ... لأوشكَ مِنْ غلوائِهِ يتحوّلُ
فتاةٌ هي الطاووسُ عُجباً وذيلُها ، ... ولَمْ يَكُ ذيلاً ، شعرُها المتهدّلُ
سعتْ لاحتكارِ الحُسنِ فيها بأسرهِ ... وكمْ حاولتْ حسناءُ ما لا يُؤمّلُ
وتَجهلُ أنَّ الحُسنَ ليسَ بدائمٍ ... وإنْ هوَ إلّا زهرةٌ سوفَ تَذبُلُ
وأنَّ حكيمَ القومِ يأنفُ أنْ يَرى ... أسيرَ طِلاءٍ بعدَ حينٍ سينصلُ
وكلُّ فتىً يَرضى بوجهٍ مُنمّقٍ ... مِنَ الناعماتِ البيضِ فهو مُغفّلُ
إذا كانَ حُسنُ الوجهِ يُدعى فضيلةً ... فإنَّ جمالَ النفسِ أسمى وأفضلُ

ولكنْ أسماء بالغيدِ تَقتدي ... وكلُّ الغواني فِعلُ أسماء تفعَلُ

فلو أمنتْ سُخطَ الرِّجالِ وأيقنَتْ ... بسخطِ الغواني أوشكتْ تترجّلُ

قدِ اتخذَتْ مرآتَها مُرشداً لها ... إذا عنَّ أمرٌ أو تعرّضَ مُشكِلُ

وما ثَمَّ من أمرٍ عويصٍ وإنّما ... ضعيفُ النُّهى في وَهْمِهِ السَّهلُ مُعضِلُ

تُكتِّمُ عمّنْ يعقِلُ الأمرَ سرَّها ... ولكنها تُفشيهِ ما ليسَ يَعقِلُ

فلو كانتِ المرآةُ تحفظُ ظلَّها ... رأيتَ بعينيكَ الذي كُنتَ تجهَلُ

وزادَ بها حبُّ التبرّجِ أنّهُ ... حبيبٌ إلى فتيانِ ذا العصرِ أوّلُ

ألمّوا بهِ حتى لقدْ أشبهوا الدُّمى ... فما فاتَهمْ، واللهِ، إلا التكحّلُ

فتى العصرِ أضحى في تطرّيهِ حجّةً ... تُقاتلنا فيها النساء فتَقتُلُ

إذا ابتذلَتْ حسناءُ ثمّ عذَلْتَها ... تولّتْ وقالتْ: كلُّكمْ متبذِّلُ

•

عصر الشبيبة

القصيدة التي ألقاها الشاعر في الحفلة التكريمية التي أقامها له صديقه السيد مالك الدرماني في فندق روزفلت بكاليفورنيا.

يا ليتَما رَجَعَ الزمانُ الأوّلُ ... زَمَنُ الشبابِ الضاحكُ المتهلِّلُ

عهدٌ ترحلتِ البشاشةُ إذ مضى ... وأتى الأسى فأقامَ لا يترحّلُ

ولّى الصبا وتبددتْ أحلامُهُ ... أودى به وبها قضاءٌ حُوَّلُ

حصدتْ أنامِلُهُ المنى فتساقطتْ ... صرعى، كما حَصَدَ السنابلَ منجلُ

فالروحُ قيثارٌ وهتْ وتقطعتْ ... أوتارُهُ، والقلبُ قفرٌ مُمحلُ

والشيبُ يضحكُ بَرْقُهُ في لِمّتي ... هذي الضواحكُ، يا فؤادي، أنصلُ

أشتاقُ عصركِ، يا شبيبةُ، مثلما ... يشتاقُ للماءِ النميرِ الأيّلُ

إذ كانتِ الدنيا بعيني هيكلاً ... فيهِ إلاهاتُ الجمالِ ترتّلُ

من كلِّ حسناءٍ كأنَّ حديثَها ... السلوى أو الوحيُ الطهورُ المُنزَلُ

وأنا وصحبي لا نفكّرُ في غدٍ ... فكأنَّ ليسَ غدٌ ولا مستقبلُ

نلهو ونلعبُ لا نُبالي ضمّنا ... كوخٌ حقيرٌ أم حوانا منزلُ

نتوهّمُ الدنيا لِفَرْطِ غرورِنا ... كَمُلَتْ بنا وبغيرنا لا تكملُ

ونخالُ أنّ البدرَ يطلعُ في الدجى ... كيما يسامرنا فـلا نتململُ

ونظنُّ أنّ الروضَ ينشرُ عطرَهُ ... من أجلنا، ولنا يغنّي البلبلُ

فكأنما الأزهارُ سِربُ كواعِبٍ ... وكأنما هُوَ شاعرٌ يتغزّلُ

في كلِّ منظورٍ نراهُ ملاحةٌ ... وسعادةٌ في كلِّ ما نتخيّلُ

لا شيءَ يزعجُ في الحياةِ نفوسَنا ... لا طارىءٌ، لا عارضٌ، لا مشكلُ

فكأننا في عـالمٍ غيرِ الذي ... تتزاحَمُ الأيدي بِهِ والأرجلُ

وكأننا رَهطُ الكواكبِ في الفضا ... معا جرى في الأرضِ لا تتزلزلُ

ألناسُ في طَلَبِ المعاشِ وهمُّنا ... كأسٌ مُشَعشعةٌ وطَرْفٌ أكحلُ

كم عنّفونا في الهوى واسترسلوا ... لو أنهم عَرَفوا الهوى لم يعذلوا

ولو انهمْ ذاقوا كما ذُقنا الرؤى ... شبعتْ نفوسهمُ وإنْ لم يأكلوا

زعموا تبذّلَنا ولم يتبذلوا، ... إنَّ الحقيقةَ كلُّنا متبذِّلُ

حُرموا لذاذاتِ الهُيامِ وفاتَنا ... دَرَكُ الحطامِ، فأينا هو أجهلُ؟

إني تأملتُ الأنامَ فراعني ... كيفَ الحياةُ بهمْ تجدُّ وتهزلُ

لا يضبطونَ مع الصُّروفِ قيادَهُمْ ... إلا كما ضَبَطَ المياهَ المنخلُ

بينا الفتى ملءُ النواظرِ والنُّهى ... فـ اذا به رَقْمٌ خفيٌّ مُهملُ

يا صاحبي، والعمرُ ظلٌّ زائلٌ، ... إنْ كنتَ تأملُ فيهِ أو لا تأملُ

ألذكرُ أثمنُ ما اقتنيتَ وتقتني ... والحبُّ أنفسُ ما بذلتَ وتبذلُ

قيلَ اغتنى زيدٌ فليتكَ مثلَهُ ... أنا مثلُهُ، إنْ لم أقلْ، أنا أفضلُ

ألشمسُ لي وله، ولألاءُ الضحى ... والنيّراتُ، ومثلنا المتسوّلُ

أمـا النُّضارُ فإنه، يا صاحبي ... عَرَضٌ يزولُ وسلعةٌ تتنقّلُ

ما دمتُ في صحبي ودامَ وفاؤهُمْ ... فأنا الغنيُّ الحقُّ لا المتموّلُ

أنا لستُ أعدلُ بالمناجمِ واحداً ... وأبيعُ من عقلوا بما لا يُعقَلُ

ريح الشمال

سألتُ، وقد مرّتِ الشمألُ   تنوحُ وآونـــةً تُعوِلُ
إلى أيما غايةٍ تركضينَ؟   ألا مستقرٌّ؟ ألا موئلُ؟
وكم تعولينَ، وكم تصرخين،   كعصفورةٍ راعها الأجدلُ؟
لقد طرَحَ الغصنُ أوراقهُ   من الذعرِ، واضطربَ الجدولُ
وضلّ الطريقَ إلى عشهِ   فهامَ على وجههِ البلبلُ
وغطى السُّهى وجههُ بالغمامِ   كما ينزوي الخائفُ الأعزلُ
وكادتْ تخرُّ لديكِ الهضابُ   وتركضُ قدّامكِ الأجبلُ

***

أبنتَ الفضاء أضاقَ الفضاءُ   فأنتِ إلى غيره أميلُ؟
أغاظكِ أنَّ الدجى لا يزولُ   وأنّ الكواكبَ لا تأفلُ؟
أتبكينَ آمالكِ الضائعاتِ؟   هل الريحُ مثل الورى تأملُ؟
أيعدو وراءكِ جيشٌ كثيفٌ؟   أمثلكِ يرهبه الجحفلُ؟
وما فيكِ عضوٌ ولا مفصلٌ   فتقطعُ أوصالكِ الأنصلُ

فجاوبني هاتفٌ في الظلام: غلطتَ فما هذه الشمألُ
ولكنها أنفسُ الغابرينَ   تجوسُ الديارَ ولا تنزلُ
فقلتُ: أينهضُ مَنْ في القبورِ   وفوقهمُ التربُ والجندلُ؟
أجابَ الصدى ضاحكاً ساخراً   إلى كم تحارُ، وكم تسألُ؟
وترفعُ عينيكَ نحوَ السماءِ   وليستْ تُبالي ولا تحفلُ؟
من البحرِ تصعدُ هذي الغيوثُ   وتهطلُ في البحرِ إذ تهطلُ
وفي الجوّ إنْ خفيتْ نسمةٌ   وفي الأرض إنْ نضبَ المنهلُ

***

لقد كان في أمسِ ما قبلهِ   وفي غدِهِ يومُكَ المقبلُ
عجبتُ لباكٍ على أوّلٍ   وفي الآخرِ النائحُ الأوّلُ

***

همُ في الشرابِ الذي نحتسي   وهُمْ في الطعامِ الذي نأكلُ
وهُمْ في الهواء الذي حولنا   وفي ما نقولُ وما نفعلُ
فمَنْ حسبَ العيشَ دنيا وأخرى   فذا رجلٌ عقله أحولُ

همـلت

يَا نَبَأً سُرَّ بِهِ مَسمَعي   حَتى تَمَنّى أنَّهُ النَّاقِلُ

أنعَشَ في نَفسِي الْمُنى مِثلَما   يُحيي الجَديبَ الواكِفُ الهاطِلُ

عَرَفتُ مِنهُ أنَّ ذاكَ الحِمى   بالصِّيدِ مِن فتيانِنا آهِلُ

عِصَابَةٌ كالعِقدِ في «أكرنٍ»   يَعتزُّ فيها الفَضلُ والفَاضِلُ

مِن كلِّ مِقدامٍ رَجيحِ النُّهَى   كالسَّيفِ إذ يَصقُلُهُ الصَّاقِلُ

البَدرُ مِن أزرارِهِ طَالِعٌ   والغَيثُ مِن راحَتِهِ هَاطِلُ

وَكلُّ طَلقِ الوَجهِ مَوفورِهِ   في بُردَتَيهِ سَيِّدٌ مَاثِلُ

***

شَبيبَةَ الشَّرقِ؛ انعمي واسلَمي   كي تَسلَمَ الآمالُ والآمِلُ

بِكُمْ وَبالرَّاقِينَ أمثالِكُم   يَفتخِرُ العَـــالِمُ والعَامِلُ

بَعَثتُمُ «هَملِتَ» مِن رَمسِهِ   «فَهَمْلِتُ» بَينكُمُ مَاثِلُ

تَمشي وَيَمشي الطَّيفُ في إثرِهِ   كِلاهُما بِمَـــا به ذاهِلُ

لا يَضحَكُ السَّامِعُ مِن هَزلِهِ   كَم عِظَةٍ جاءَ بِها الهَازِلُ

روايَةٌ يَظهرُ فيها لَكُم   كَيفَ يُداجي الصَّادِقَ الخَاتِلُ

وَتَنكُثُ المرآةُ ميثاقَها   وكيفَ يُجزى المُجرمُ القاتِلُ

وإنَّما الانسانُ أخلاقُهُ   لا يَستَوي النَّاقِصُ والكامِلُ

وَالنَّفسُ كالمِرآةِ إنْ أُهمِلَتْ   يَعلو عَلَيْها الصَّدأُ الآكِلُ

وَالنَّاسُ أدوارٌ، فَذا صَاعِدٌ   يُراوِدُ الشُّهبَ وَذا نازِلُ

والدَّهرُ حَالاتٌ، فيومٌ بِهِ   نَحسٌ، ويومٌ سَعدُهُ كامِلُ

فَمَثِّلوا الجَهلَ وأضرارَهُ   حَتَّى يُعادي جَهلَهُ الجَاهِلُ

وَمَثِّلوا الفَضلَ وآيَاتِـــهِ   كي يَستَزيدَ الرَّجُلُ الفَاضِلُ

وَصَوِّروا المَجدَ بِلألائهِ   عَسَى يُفيقُ الهاجِعُ الغَافِلُ

وَيَرجِعُ الشَّرقُ إلى أوجِهِ   كما يَعودُ القَمَرُ الآفِلُ

وابنوا إلى الآتينَ مِن بَعدِكُم   يَبني لِمَنْ يَخلُفُهُ القابِلُ

مَـــا دُمتُمُ للحَقِّ أنصارَهُ   هَيهاتَ أن يَنتَصِرَ الباطِلُ

•

لِمن الديار؟

لِمن الدِّيارُ تنوحُ فيها الشمألُ … ما ماتَ أهلوها ولم يترحّلوا

ماذا عَراها، ما دَها سُكّانَها … يا ليتَ شِعري كُبّلوا أم قُتلوا؟

مَثّلتُها فتمثّلتْ في خاطري … دِمناً لِغيرِ الفِكرِ لا تتمثّلُ

تَمحي الصِّبا مِنها برَسْمٍ دارسٍ … لا رِكزَ فيهِ كأنّما هي هَوجَلُ

وإذا تأمّلَ زائرٌ آثارَهــا … شَخصتْ إليهِ كأنّها تتأمّلُ

أصبحتُ أندبُ أُسدَها وظِباءَها … ولَطالما أبصرتَني أتغزّلُ

أيّامَ أُطْرُ في الحِمى مُتهلّلا … وأرى الدِّيارَ كأنّهـــا تتهلّلُ

وأروحُ في ظلِّ الشّبابِ وأغتدي … جذلانَ لا أشكو ولا أتعلّلُ

إذ كلُّ طيرٍ صادحٌ مُترنّمٌ … إذ كلُّ غصنٍ يانعٌ مُتهدّلُ

والأرضُ كاسيةٌ رداءً أخضراً … فكأنّها ديباجةٌ أو مُخمَلُ

يجري بها، فوقَ الجُمانِ مِنَ الحصى … بينَ الزّبرجدِ والعقيقِ، الجدولُ

والزّهرُ في الجنّاتِ فَيّاحُ الشّذا … بندى الصّباحِ مُتوّجٌ ومُكلّلُ

والشّمسُ مُشرقةٌ يلوحُ شُعاعُها … خَلَلَ الغصونِ، كما تلوحُ الأنصُلُ

والظلُّ ممدودٌ على جَنَباتها … والماءُ مَغمورٌ بهِ المُخضوضِلُ

لله كيفَ تبدّلتْ آياتُها … مَنْ كانَ يحسبُ أنّها تتبدّلُ؟..

***

زحفَ الجرادُ بقضّهِ وقضيضهِ … سيرَ الغَمامِ إذا زفتهُ الشّمألُ[1]

حجبَ السّماءَ عنِ النّواظرِ والثّرى … فكأنّهُ اللّيلُ البهيمُ الأليلُ

مِن كلِّ طيّارٍ أرقَّ جناحَهُ … لفحُ الحَرورِ وطولُ ما يتنقّلُ

عَجِلٍ إلى غـاياتِهِ مُستوفِزٍ … أبداً يَشُدُّ العجزَ مِنهُ الكلكلُ

خَشِنِ الاهابِ كأنّهُ في جوشنٍ … وكأنّما في كلِّ عضوٍ مِنجَلُ[2]

وكأنّما حَلَقُ الدّروعِ عيونُهُ … وكأنّهنّ شواخصاً تتخيّلُ

مَصقولةٌ صَقلَ الزّجاجِ يخالُها … في مَعزلٍ عنْ جِسْمِهِ، المُستقبِلُ

ومِنَ العجائبِ معْ صَفاءِ أديمِها … ما إنْ تَرِفُّ كأنّما هي جَندلُ[3]

ضيفٌ أخفُّ على الهواءِ مِنَ الهوا … لكنّهُ في الأرضِ مِنها أثقَلُ

ملأَ المسارحَ والمطارحَ والرُّبى … فإذا خطتْ فعليهِ تخطو الأرجُلُ

حصدَ الّذي زرعَ الشّيوخُ لِنسْلِهِم … وقضى على القطّانِ أن يتحوّلوا

مَـا ثَمَّ مِن فَنَنٍ إلى أوراقِهِ … يأوي، إذا اشتدَّ الهجيرُ، البُلبُلُ

(١) بقضهم وقضيضهم : أي جميعهم .

(٢) الجوشن : الدرع .

(٣) الجندل : الصخر العظيم .

وإذا القضاءُ رمى البلادَ ببؤسِهِ ... جفَّ السحابُ بها وجفَّ المنهلُ

***

وقعَ الذي كنّا نخافُ وقوعَهُ ... فعلى المنازلِ وحشةٌ لا ترحلُ

أشتاقُ لو أدري بحالةِ أهلِها ... فإذا عرفتُ وددتُ أني أجهلُ

لم تبقِ أرجالُ الدَّبى في أرضِهم ... ما يُستظلُّ بهِ ولا ما يُؤكلُ[1]

أمستْ سماؤهُمُ بغيرِ كواكبٍ ... ولقد تكونُ كأنها لا تأفلُ

يمشونَ في نورِ الضحى وكأنَّهم ... في جنحِ ليلٍ حالكٍ لا ينصلُ

فإذا اضمحلَّ النورُ واعتكرَ الدجى ... فالخوفُ يعلو بالصدورِ ويسفلُ

يتوسلونَ إلى الظلومِ وطالما ... كانَ الظلومُ إليهمُ يتوسَّلُ

أمسى الدخيلُ كأنَّهُ ربُّ الحمى ... وابنُ البلادِ كأنَّهُ متطفلُ

يقضي، فهذا في السجونِ مغيَّبٌ ... رهنٌ، وهذا بالحديدِ مكبَّلُ

ويرى الجمالَ كأنما هو لا يرى ... ويرى العيوبَ كأنما هو أحولُ

حالٌ أشدُّ على النفوسِ منَ الردى ... الصابُ شهدٌ عندها والحنظلُ

***

مالي أنوحُ على البلادِ كأنَّما ... في كلِّ أرضٍ لي أخٌ أو منزلُ

يا ليتَ كفّاً أضرمتْ هذي الوغى ... يبستْ أناملُها وشلَّ المفصلُ

---

(١) الدبى : صغار الجراد .

تتحوَّلُ الأفلاكُ عن دورانِها ... والشرُّ في الإنسانِ لا يتحوَّلُ

ما زالَ حتى هاجَها من هاجَها ... حرباً يشيبُ لها الرضيعُ المحولُ

فالشرقُ مرتعدُ الفرائصِ جازعٌ ... والغربُ مِنْ وقعاتِها متزلزلُ

والأرضُ بالجُردِ الصواهلِ والقنا ... ملأى تجيشُ كما تجيشُ المرجلُ

والطودُ آفاتٌ تلوحُ وتختفي ... والسهلُ أرصادٌ تجيءُ وتقفلُ

والجوُّ بالنقعِ المثارِ ملثَّمٌ ... والبحرُ بالسفنِ الدوارعِ مثقلُ

في كلِّ منفرجِ الجوانبِ جحفلٌ ... لجبٌ ينازعُهُ عليهِ جحفلُ

ماتَ الحنانُ فكلُّ شيءٍ قاتلٌ ... وسطا القضاءُ فكلُّ عضوٍ مقتلُ

فمعفَّرٌ بثيابهِ متكفِّنٌ ... ومجرَّحٌ بدمائهِ متسربلُ

كم ناكصٍ عن مأزقٍ خوفَ الردى ... طلعَ الردى من خلفِهِ يتصلصلُ

شقيَ الجميعُ بها وعزَّ ثلاثةٌ ... ذئبُ الفلاةِ ونسرُها والأجدلُ

حامتْ على الأشلاءِ في ساحاتِها ... فرقاً تعلُّ من الدماءِ وتنهلُ

لهفي على الآباءِ كيفَ تطوَّحوا ... لهفي على الشبانِ كيفَ تجندلوا

حربٌ جناها كلُّ عاتٍ غاشمٍ ... وجنى مرارتَها الضعيفُ الأعزلُ

ما للضعيفِ مع القويِّ مكانةٌ ... إنَّ القويَّ هو الأحبُّ الأفضلُ

تتنصَّلُ السُّوّاسُ من تبعاتِها ... إنَّ البريءَ الذيلِ لا يتنصَّلُ

قد كانَ قتلُ النفسِ شرَّ جريمةٍ ... واليومَ يُقتَلُ كلُّ مَنْ لا يَقتُلُ

وَالمالِكُونَ عَلى الخَلائِقِ ، عَدلُهُم   جَورٌ ، فَكَيفَ إذا هُمُ لَمْ يَعْدِلُوا
كَتَبُوا بِمَسْفُوكِ النَّجيعِ نُعُوتَهُمْ   وَبَنَوا عَلى الجُثَثِ العُروشَ وَأَثّلُوا
صَرَفَ الجُنودَ عَنِ المُلُوكِ وَظُلمِهِمْ   قَولُ المُلُوكِ لَهُم : جُنُودٌ بُسَّلُ
يا شَرَّ آفاتِ الزَّمانِ المُنْقَضِي   لا جاءَنا فيكِ الزَّمانُ المُقْبِلُ

***

إنْ أَبكِ سورِيّا فَقَبْلي كَم بَكى   «أَعْشَى» مَنازِلَ قَومِهِ «والأَخْطَلُ»
مَـــا في الدِّيارُ وإنَّما قُطّانُها   إنَّ النُّفُوسَ لها المَقامُ الأَوَّلُ
يا قَومُ إنْ تَنْسُوا فَلا تَنْسَوْهُمُ   أو تَبخَلُوا فَعَلَيهِمُ لا تَبخَلُوا
لَبُّوا نِداءَ ذَوي المُروءَةِ وَالنَّدى   لِيُقالَ أُمُّ الشّامِ أُمٌّ مُشْبِلُ
لا تَبْتَغوا شُكرَ الأَنامِ وَأَجرَهُم   عَفْوُ الإِلَهِ هُوَ الثَّناءُ الأَجزَلُ
في كُلِّ يَومٍ بَينَكُمْ مُسْتَرْفِدٌ   أو طالِبٌ أو راهِبٌ مُتَجَوِّلُ
يأتيكُمْ بادي الوَفاضِ فَيَنْثَني   وَكَأنَّما في بُردِهِ المُتَوَكِّلُ
يَبني بِمالِكُمُ القُصُورَ لأَهْلِهِ   وَقُصُورُكُمْ أَثوابُكُمْ «والمَعمَلُ»
قَدْ حانَ أنْ تَستَيقِظُوا فاسْتَيقِظُوا   كَم تَخجَلُونَ وَكُلُّهُم لا يَخجَلُ
يا لَيتَ مَن بَذَلوا نُضارَهُمُ لِمَنْ   خَبّأُوهُ في أكياسِهِمْ لَمْ يَبذُلوا
بَلْ لَيتَهُمْ جادُوا عَلى ذي فاقَةٍ   فَحَرًى بِعَطفِ المُحسِنينَ المُرمِلُ[1]

(١) الحرا : الخليق ، يقال : بالحرا أن يكون ذلك ، وترسم بالمقصورة ، بمعنى الأخلق والأجدر .

يا مَن نُريدُ صَلاحَهُ وَصَلاحَنا   إنَّ العُدولَ عَنِ الهَوى بِكَ أَجمَلُ
أَيَبيتُ قَومُكَ فَوقَ أَشواكِ الغَضى   وَتَبيتُ تَخطُرُ بِالحَريرِ وَتَرفُلُ ؟
أَينَ الهُدى ، يا مَن يُبَشِّرُ بِالهُدى   أَينَ التُّقى ، يا أَيُّهـــا المُزَمِّلُ
ظَنَّتْ بِكَ النّاسُ الظُّنُونَ وإِنَّني   لأَخافُ بَعدَ الظَّنِّ أنْ يَتَقَوَّلوا
لَكَ مُقلَةٌ فانظُرْ بِها مُتَأَمِّلاً   قَدْ يَستَفيدُ النّاظِرُ المُتَأَمِّلُ
لا قَدرَ لِلجُهَلاءِ حَتّى يَعمَلوا   لا فَضلَ لِلعُلَماءِ حَتّى يَعمَلوا
سُكّانَ لُبنانَ العَزيزَ وَجِلِّقٍ   حَيّاكُمُ عَنّا النَّسيمُ المُرسَلُ
لا نابَ غَيرَ عَدُوِّكُم ما نابَكُمْ   وَبَلَغتُمُ مَـــا تَأمُلونَ وَنَأمُلُ
كَم تَتَّقونَ الطّارِئاتِ وَتَتَّقي   كَم تَحمِلونَ الكارِثاتِ وَتَحمِلُ
لَو يَعقِلُ القَدَرُ الخَؤونُ عَذَلتُهُ   وَعَذَلتُهُ ، لَكِنَّهُ لا يَعقِلُ
أَبكي وَأَستَبكي العُيونَ عَلَيكُمُ   أَيُّ الدُّموعِ عَلَيكُمُ لا تَهطِلُ
إنْ تَغفَلِ الدُّنيا وَيَغفَلْ أَهلُها   عَنكُمْ ، فَخالِقُ أَهلِها لا يَغفَلُ

الفتى الافضل

(معربة)

مضى زَمَنٌ كانَ فيهِ الفتى ... يباهي بمـــا قومهُ أثّلوا

ويرفعهُ في عُيونِ الأنامِ ... ويخفضُ من قدرهِ المنزلُ

فلا تقعدنْ عن طلابِ العلى ... وتعذلْ بلادَكَ إذ تُعذلُ

فإنَّ الخلائقَ حتى عِداكَ ... متى مــا سبقتهمُ هلّلوا

فثابرْ بجدٍّ على نَيْلِهـــا ... فليسَ يخيبُ الذي يعملُ

وكنْ رجلاً ناهضاً ينتمي ... إلى نفسهِ عندما يُسألُ

فلستَ الثيابَ التي ترتدي ... ولستَ الأسامي التي تحملُ

ولستَ البلادَ التي أنبتتكَ ... ولكنّما أنتَ ما تفعلُ

إذا كنتَ من وطنٍ خاملٍ ... وفزتَ فأنتَ الفتى الأفضلُ

•

١٩١٦

كَمْ، قبلَ هذا الجيلِ، ولّى جيلُ ... هيهاتَ، ليسَ إلى البقاءِ سبيلُ

ضحكَ الشبابُ من الكهولِ فأغرقوا ... واستيقظوا، فإذا الشبابُ كهولُ

تأتي وتمضي والزمانُ مخلّدٌ ... الصبحُ صبحٌ والأصيلُ أصيلُ

حرٌّ وقرٌّ يبليانِ جسومَنا ... ليتَ الزمانَ، كما نحولُ، يحولُ

إنَّ التحوّلَ في الجمادِ تقلّصٌ ... في الحيِّ موتٌ، في النباتِ ذبولُ

قفْ بالمقـــابرِ صامتاً متأمّلاً ... كم غابَ فيها صامتٌ وسؤولُ

وسلِ الكواكبَ كم رأتْ من قبلِنا ... أمماً، وكم شهدَ النجومَ قبيلُ

تتبدّلُ الدنيـــا تبدّلَ أهلِها ... واللهُ ليسَ لأمرهِ تبديلُ

. . .

يا طالعاً لفتَ العيونَ طلوعُهُ ... بعدَ الطلوعِ، وإنْ جهلتَ، أفولُ

عطفاً ورفقاً بالقلوبِ فإنّمـــا ... حقدُ القلوبِ على أخيكَ طويلُ

أنظرْ فوجهُ الأرضِ أغبرُ شاحبٌ ... واسمعْ! فأصواتُ الرياحِ عويلُ

ومنَ الحديدِ صواعقٌ، ومنَ العجا ... جِ غمائمٌ، ومنَ الدماءِ سيولُ

ما كنتُ أعلمُ قبلما حسَ الوغى | أنَّ الضواري والأنامَ شكولُ
يا أرضَ أوربَّا ويا أبناءَها | في عُنقِ مَن هذا الدمُ المطلولُ ؟
في كلِّ يومٍ منكمُ أو عنكمُ | نبأٌ تجيءُ بهِ الرواةُ مهولُ
مزَّقتمُ أقسامَكم وعهودَكمْ | ولقد تكونُ كأنَّها التنزيلُ
وبعثتمُ الأطماعَ فهي جحافلٌ | مِن خلفهنَّ جحافلٌ وخيولُ
ونثرتمُ الأحقادَ فهي مدافعٌ | وقذائفٌ وأسنَّةٌ ونصولُ
لو لم تكن أضغانُكم أسيافَكم | أمسى بها، مما تُسامُ، فلولُ
علَّمتمُ «عزريلَ» في هذي الوغى | ما كانَ يجهلُ علمَهُ عزريلُ
إن كانَ هذا ما يُسمّى عندكُم | عِلماً، فأينَ الجهلُ والتضليلُ
إنْ كانَ هذا ما يُسمّى عندكم | ديناً فأينَ الكفرُ والتعطيلُ
عوداً إلى عصرِ البداوةِ، إنَّهُ | عصرٌ جميلٌ أن يُقالَ جميلُ
قابيلُ، يا جدَّ الورى، نم هانئاً | كلُّ امرىءٍ في ثوبهِ قابيلُ
لا تفخروا بعقولِكمْ ونتاجِها | كانَتْ لكُمْ، قبلَ القتالِ، عقولُ
لا أنتمُ أنتمْ ولا أرباضُكمْ | تلكَ التي فيها الهناءُ يقيلُ
لا تطلبوا بالمرهفاتِ ذحولَكمْ | في نيلِها بالمرهفاتِ ذحولُ
إنَّ الأنامَ على اختلافِ لغاتِهم | وصفاتِهمْ، لو تذكرونَ، قبيلُ

. . .

يا عامَنا! هل فيكَ ثمَّةَ مطمعٌ | بالسِّلمِ، أم هذا الشقاءُ يطولُ
مرَّتْ علينا حِجَّتانِ ولم تزلْ | تتلو الفصولَ مشاهدٌ وفصولُ
لم يعشقِ الناسُ الفناءَ وإنَّما | فوقَ البصائرِ والعقولِ سدولُ
أنا إن بسمتُ، وقد رأيتُكَ مقبلاً | فكما يهشُّ لعائديهِ عليلُ
وإذا سكنتُ إلى الهمومِ فمثلما | رضيَ القيودَ الموثقُ المكبولُ
لا يستوي الرجلانِ، هذا قلبُهُ | خالٍ وهذا قلبُهُ (لجهولُ)
لا يخدعنَّ العارفونَ نفوسَهم | إنَّ المخادعَ نفسَهُ لجهولُ
في الشرقِ قومٌ لم يسلُّوا صارماً | والسيفُ فوقَ رؤوسِهم مسلولُ
جهلوا ولم تجهلْ نفوسُهمُ الأسى | أشقى الأنامِ العارفُ المجهولُ
أكبادُهم مقروحةٌ كجفونِهم | وزفيرُهم بأنينِهم موصولُ
أمّا الرجاءُ، وطالما عاشوا بهِ | فالدمعُ يشهدُ أنَّهُ مقتولُ
واليأسُ موتٌ غيرَ أنَّ صريعَهُ | يبقى، وأمّا نفسُهُ فتزولُ
ربّاهُ، قد بلغَ الشقاءُ أشدَّهُ | رُحماكَ إنَّ الراحمينَ قليلُ

. . .

في اللهِ والوطنِ العزيزِ عصابةٌ | نُكِبوا، فهذا عانٍ وذاكَ قتيلُ
لو لم يمتْ شممُ النفوسِ بموتِهم | لطمَ الشآمُ، لموتِهم، والنيلُ

يا نازحينَ عن الشّآمِ تذكّروا ... مَنْ في الشّآمِ وما يليهِ نُزولُ

همُ المَالكِ في الجهادِ، وهمُّكمْ ... قالٌ تسيرُ بهِ الطُّروسُ وقيلُ

هُبّوا، اعملوا لِبلادكُمْ ولِنسلِكم ... بئسَ الحياةُ سكينةٌ وخُمولُ

لا تقبضوا الأيدي فهذا يومُكمْ ... شرُّ الورى جعدُ البنانِ بخيلُ

وعدَ الإلهُ المحسنينَ ببرِّهِ ... وكما علِمتمْ، وعدُهُ تنويلُ

بنت سورية

ليسَ يدري الهمَّ غيرُ المُبتلي
طالَ جُنحُ اللّيلِ أوْ لمْ يطلِ

ما لِهذا النّجمِ مِثلي في الثّرى
طائرَ النّومِ شديدَ الوجلِ

أتراهُ يتّقي طارِقةً
أمْ بهِ أني غريبُ المنزلِ ؟

كلّما طالعتُ خطباً جللاً
جاءني الدّهرُ بخطبٍ جللِ

أشتكي اللّيلَ ولوْ ودّعتهُ
بتُّ مِن همّي بليلٍ أليلِ

يا بناتِ الأفقِ ما للصّبِّ مِنْ
مُسعدٍ في النّاسِ، هل فيكنَّ لي؟

لا عرفتنَّ الرزايا إنَّها
شيَّبتْ رأسي ولم أكتهلِ

سهدتْ سُهدي الدَّراري إنَّما
شدَّ ما بينَ المُعنَّى والخلي

ليتَ شِعري ما الذي أعجبَها
فهيَ لا تنفكُّ ترنو من علِ

أنا لا أغبِطُها خالدةً
ولقدْ أحسدُها لم تعقلِ

كلَّما راجعتُ أحلامَ الصبى
قلتُ يا ليتَ الصبى لم يزلِ !..

أيُّها القلبُ الذي في أضلعي
إنَّما اللذَّةُ جهْلًا فاجهلِ (1)

تجمُلُ «الرقَّةُ» في الغضبِ فإن
كنتَ تهواها فكُنْ كالمنصلِ

(1) لعل «جهلا» مفعول «فاجهل»، وخبر «اللذة» محذوف، أو أن «جهلا» نصبت على المصدرية، أو التقدير: انما اللذة أن تجهل جهلا ... فاجهل .
(زهير)

هيَ في الغيدِ الغواني قوَّةٌ
وهيَ ضعفٌ في فؤادِ الرَّجلِ

لا يغرُّ الحُسنُ ذا الحُسنِ فقدْ
يصرعُ البلبلَ صوتُ البلبلِ

تُقتلُ الشاةُ ولا ذنبَ لها
هيَ، لولا ضعفُها، لم تُقتلِ

إن تكنْ في الوحشِ كنْ ليثَ الشرى
أو تكنْ في الطيرِ كُنْ كالأجدلِ

أو تكنْ في الناسِ كنْ أقوامَهُمْ
ليستِ العلياءُ حظَّ الوُكَّلِ !

. . .

ما لقومي لا وهى حبلُهُمُ
قنِعوا من دهرهمْ بالوشَلِ

أنا مِنْ أمرهمُ في شُغُلٍ
وهُمُ عن أمرهمْ في شُغُلِ

كلما فكرتُ في حاضرِنا
عاقني اليأسُ عنِ المستقبلِ

نحنُ في الجهلِ عبيدٌ للهوى
ومعَ العلمِ عبيدُ الدولِ

نعشقُ الشمسَ ونخشى حرَّها
ما صعدنا وهيَ لمـا تنزلِ

قد مشى الغربُ على هامِ السُّهى
ومشينا في الحضيضِ الأسفلِ

سجّلَ العـارَ علينا معشرٌ
سجّلوا المرأةَ بينَ الهمـلِ

فهي إمـا سلعةٌ خاملةٌ
سلعـاً أو آلةٌ في معملِ

أرسلوها تزرعُ الأرضَ خطًا
وتباري كلَّ بيتٍ مثلِ

تتهاداها الموامي والرُّبى
فهي كالدينارِ بينَ الأنملِ

لا تبالي القيظَ يشوي حرُّه
لا ولا تحذرُ بردَ الشمالِ

ولهـا في كلِّ بابٍ وقفةٌ
كامرىءِ القيسِ حيالَ الطللِ

تتقي قولَ «اغربي» خشيتَها
قولةَ القائلِ «يا هذي ادخلي»

فهيَ كالعصفورِ وافى صادياً
فرأى الصيّادَ عندَ المنهلِ

كامناً، فانصاعَ يدنيهِ الظما
ثمَّ يقصيهِ اتقـاءُ الأجلِ

ولكمْ طافتْ بهِ آملةً
وانثنتْ تقطعُ خيطَ الأملِ

ولكمْ مدّتْ إلى الرفدِ يداً
خلقتْ في مثلِهـا للقبلِ

. . .

مَا بِهَا؟ لا كانَ شراً مَـــا بِهَا
مَا لَهَا مِنْ أمرِهَا في خَبلِ؟

سَائِلُوهَا أوْ سَلُو عَنْ حَالِهَا،
إنْ جَهِلْتُمْ، كلُّ طِفلٍ مُخْوِلِ

في سَبِيلِ المَالِ أوْ عُشَّاقِهِ
تَكْدَحُ المرْأَةُ كَدْحَ الإبِلِ

مَا تَرَاهَا وَهِيَ لَا حَوْلَ لَها
تحتَ عِبْءٍ فَادِحٍ كَالجَبَلِ

شُدَّتِ الأَمْرَاسُ في سَاعِدِهَا
مَنْ رَأَى الأَمْرَاسَ حَوْلَ الجَدْوَلِ؟

جَشَّمُوهَا كُلَّ أَمْرٍ مُعْضِلِ
وهيَ لَمْ تُخْلَقْ لِغَيْرِ المَنْزِلِ

فإذَا فَارَقَتِ الدَّارَ ضُحَىً
لَمْ تَعُدْ إلَّا قُبَيْلَ الطَّفَلِ

أَلِفَتْ مَـــا عَوَّدُوهَا مِثْلَمَا
تَأْلَفُ الظَّبْيَةُ طَعْمَ الحَنْظَلِ!

. . .

بِنْتَ سُورِيَا التي أبكي بِهَـــا
هِمَّـــةَ اللَّيْثِ وَرُوحَ الحَمَلِ

مَا أطاعُوا فيكِ أحْكَامَ النُّهَى
لَا وَلَا قولَ الكتابِ المُنْزَلِ

قَدْ أضَاعُوكِ وما ضَيَّعْتِهِمْ
فأضَاعُوا كُلَّ أمٍّ مُشْبِلِ

•

هديتي الى مدارس الشعب بالاسكندرية

ما للهمومِ الطارقاتِ ومالي — أسهرنني ورقدنَ عن أوجالي

أمسَيْنَ ملءَ جوانحي ما نابني — خَطبٌ ولا خطرَ الغرامُ ببالي

أهوى وقد عبثَ المشيبُ بمفرقي — لبسَ الغوايةِ للكبيرِ البالي

ما ثَمَّ داءٌ يُستطارُ لَهُ الكرى — ما ثَمَّ غيرُ كآبةٍ ومَلالِ

أرعى الثواقبَ في الظلامِ كأنها — زَهرُ الحدائقِ أو نثيرُ لآلي

وكأنما شوكُ القتادِ بمضجعي — وكأنَّ حشوَ وسادتي بلبالي

حتى إذا عكفَتْ عليَّ وساوسي — ونبا الفراشُ نزعتُ للتجوالِ

فخرجتُ كالمنشورِ بعدَ مماته — وركبتُ متنَ الليلِ غيرَ مُبالِ

وذهبتُ أخترقُ المسالكَ مُدلجاً — وكأنما أطلقتُ من أغلالِ

أسعى وما مِنْ غايةٍ أسعى لها — سَعْيي إلى أملٍ من الآمالِ

فاستوقفتني ضجةٌ في حانةٍ — حَبَسَتْ مقاعدَها على الجُهّالِ

حاموا على الصهباءِ يرتشفونها — كالطيرِ حولَ مُصفّقٍ سلسالِ

في غفلةِ العذّالِ في غَسَقِ الدُّجى — إنَّ السعادةَ غفلةُ العذّالِ

نَهبَ الكؤوسِ عقولُهم ونُضارُهم — نَهبَ المديرِ الخادعِ المحتالِ

أمسى يسوقُ إليهمُ آجالَهُم — وحتوفَهُمْ في صورةِ الجريالِ

شرُّ الشرابِ الخمرُ يُصبحُ صَبُّها — قَيدَ الضنى ويبيتُ رهنَ خبالِ

يا سالبَ الأرواحِ بعضَ ترفُّقٍ — يكفيكَ أنكَ سالبُ الأموالِ

لا تدفعنَّ تلكَ النفوسَ إلى الردى — إنَّ النفوسَ وإنْ صَغُرْنَ غوالي

وإذا بمخمورٍ يتيهُ مُعربِداً — خَبَلٌ بِهِ ما ذاكَ تيهُ دلالِ

حيرانُ مضطربُ الخُطى فكأنما — قد راحَ يمشي فوقَ جمرٍ صالِ

متخبِّطٌ في سَيرِهِ ، متأوِّدٌ — كالغصنِ بينَ صباً وبينَ شمالِ

عَقَدَ الشرابُ لسانَهُ ولقد يُرى — طَلقاً وفكَّ مجامعَ الأوصالِ

فكَبا كما يكبو الجوادُ على الثرى — شُدَّتْ عليهِ فوادحُ الأثقالِ

وتقدَّمَ الشرطيُّ يمشي نحوَهُ — مَشيَ الفخورِ بنفسِهِ المُختالِ

متلفتاً عن جانبيهِ كعاشقٍ — مُتلفِّتٍ حذرَ الرقيبِ القالي

ورأيتُهُ وبنانُهُ في جَيبِهِ — فعلمتُ سرَّ تلفُّتِ المُحتالِ

لا تعجبوا مما أحدِّثُكُم بهِ — كم تحتَ ذاكَ الثوبِ من نشّالِ

ثُمَّ انثنى متبسماً وإذا فتى — غضُّ الإهابِ ممزقُ السربالِ

وافى فحرَّكَهُ فألفى جُثَّةً — همدَتْ فأجفلَ أيما إجفالِ

وحنى عليهِ يضمُّهُ ودموعُهُ — تنهلُّ مثلَ العارضِ الهطّالِ

وأتى ذويهِ نعيُهُ فتألبوا — والغيدُ تعولُ أيما إعوالِ

أرخصنَ ماءَ الجفنِ ثُمَّ أذلنَه — ولقد يكونُ الدمعُ غيرَ مذالِ

ولقد شَهِدتُ صِغارَهُ في حيرَةٍ ... من أمرِهِم ، لَهفي على الأشبالِ
لا يفقهونَ الحُزنَ غيرَ تأوُّهٍ ... ما الحُزنُ غيرُ تأوُّهِ الأطفالِ
ما كنتُ أعلمُ قبلما حَثوا بهِ ... أنَّ الشقيَّ الجدِّ رَبُّ عِيالِ
أسفي عليهِ مُضرَّجاً لم تَمتَشِقْ ... يدُهُ الحسامَ ولم يَسِرْ لِقِتالِ
أودى ضحيةَ جَهلِهِ كم بائسٍ ... أودى شهيدَ الجَهلِ والاهمالِ
فَرَجَعتُ مصدوعَ الفؤادِ أبثُّكمْ ... شَجوي وأندُبُ حالةَ العُمّالِ
باتوا من الأرزاءِ بينَ مخالبٍ ... من دونِهِنَّ مخالِبُ الرئبالِ
خطرانِ من جَهلٍ وفَقرٍ ما الردى ... غيرُ اجتماعِ الجَهلِ والاقلالِ
فخذوا بِناصِرِهِم فإنَّ حياتَهُمْ ... في مأزقٍ حَرِجٍ من الأهوالِ
ما أجدرَ الجُهلاءَ أنْ يتعلَّموا ... فالعِلمُ مصدرُ هيبةٍ وجَلالِ
فاسعوا لنشرِ العِلمِ فيهمْ إنَّما ... فضلُ الغمامِ يَبينُ في الامحالِ
إنَّ الجهولَ إذا تعلَّمَ واهتدى ... بثَّ الهُدى في صَحبِهِ والآلِ
يا قومُ إن لم تُسعفوا فقراءَكُمْ ... فلِمَ ادّخارُكُمُ إذن للمالِ
هلّا رَضيتُمْ بالمحامدِ قِنيةً ... إنَّ المحامدَ قنيةُ المِفضالِ
أوَ لستُمُ أبناءَ من سارتْ بِهِمْ ... في المكرُماتِ روائعُ الأمثالِ
جُودوا فَغيرُ الحمدِ غيرُ مُخلَّدٍ ... ما المالُ إنَّ المالَ طيفُ خيالِ
هيهاتِ ما يَبقى ولو عَدَدَ الحصى ... أنّى يدومُ وربُّهُ لِزوالِ

الكأسان

كانَ على خِوانِ ربِّ المالِ
كأسانِ : من خمرٍ ومن زُلالِ
هاتيكَ في الحُمرةِ مثلُ العَندَمِ
وتلكَ في بياضِها كالدِّرهَمِ
فقالَتِ السُّلافَةُ الثرثارَهْ
عندي حديثٌ فاسمَعي يا جارَهْ
أنا التي تخضعُ لي الرؤوسُ
أنا التي يعبُدُني المجوسُ
كَمْ قائدٍ أضحكتُ منهُ جندَهْ
وسيِّدٍ حكَّمتُ فيهِ عبدَهْ !
ومَلِكٍ أسقطتُ عنهُ التاجا
وساكنٍ هيَّجتُهُ فهاجا

وزوجةٍ علّمتها الخيانَهْ
ووالدٍ أنسيتَهُ الأمانَهْ

وحدثٍ خدعتَهُ فانخدعا
حتى إذا ما شبَّ عضَّ الإصبعا

إنَّ الغِنى والصّيتَ والذكاءْ
متى أردْ صيّرتُها هَباءْ

فسمعَ الماءُ فهاجَ غضبا
وقالَ: مهلًا، بلغَ السيلُ الزُبى[1]

إنْ تفخري، يا جارتي، بالشرِّ
فإنَّ بالفعلِ الجميلِ فخري

أنا الذي تُغسلُ بي الكلُومْ
ويرتوي الظامِئُ والمحمومْ

يُحبُّني المالكُ والمملوكْ
والسيّدُ المطاعُ والصعلوكْ

---

(١) يقال: بلغ السيل الزبى: أي اشتد الأمر.

حيثُ أكونُ جارياً يكونْ
الوردُ والأقاحُ والنسرينْ

إنَّ المروجَ الخضرَ لا يُحييها
غيرُ وجودي حولَها وفيها

كمْ سِرتُ في الوادي وفي الغديرِ
على شبيهِ الدرِّ والكافورِ

وجلسَ العشّاقُ حولي في السَّحَرْ
على بساطِ العشبِ في ضوءِ القمرْ

كمِ اشتهوا، إذ سمعوا خريري،
لو أنني أسيرُ في الصدورِ

أنا الذي لولاهُ ماتَ الناسُ
والطيرُ والأسماكُ والأغراسُ

يا خمرُ كمْ ذا تدّعينَ الفضلا
وبالمياهِ تقتلينَ قتلا

وأمُّكِ الكرمةُ يا صهباءْ
ما وُجدتْ في الأرضِ لولا الماءْ!

المجنون

أطار عني النومَ صوتٌ في الدجى كأنه دمدمةُ الشلّالِ
يصرخُ، والريحُ تردّدُ الصدى في أذنِ الفضاء والتلالِ
يا ليلُ قفْ هنيهةً قبالي
ترَ البرايا وأرِ الليالي

أنا الشادي، أنا الباكي، أنا العاري، أنا الكاسي
أنا الخمرةُ والدنُّ، أنا الساقي، أنا الحاسي

. . .

خلعتُ ثوباً لم تفصّلهُ يدي وهمتُ في الوادي بلا سربالِ
وخلتُني انطلقتُ من سلاسلي وخلصتُ ذاتي من الأوحالِ
فلم أزلْ أرسفُ في أغلالي
ولم أزل في حندسِ المحالِ

فما أبكي من الغربةِ عن جارٍ وعن خدنِ
فقد يرجعُ جيراني وتبقى غربتي عني

. . .

عرفتُ في النهارِ كل مقبلٍ ومدبرٍ، وما عرفتُ حـ
واستترتْ عني السهولُ والربى تحتَ الدجى، والبحرُ ذو الأ
لكنها لم تستترْ آمالي
عني ولا نقصي ولا كمالي

ولا ضعفي، ولا عزمي، ولا قبحي، ولا
فكم أهربُ من نفسي وما لي مهربٌ

. . .

فقلتُ من هذا ؟ فقالَ صحبي موسوسٌ يهذي من الخـ
يأوي إلى الأدغال في نهارهِ كأنه جزءٌ من الأدغا
وفي الدجى له صراخٌ عالِ
كأنهُ والليلَ في نضالِ

كأنَّ الليلَ يوثقهُ بأغلالٍ وأ
ويضربُ جسمهُ العاري بسَوْطِ الظالـم

. . .

ما أن رآهُ أحدٌ إلّا رآهُ شاخصَ الطرفِ إلى ا
كأنما يرقبُ ركباً صاعداً أو هابطاً وليس غير
كأنما يخشى على الهلالِ
وسائرِ الشهبِ منَ الزوالِ

فصاحَ الصوتُ : ما أرجوهُ في نفسي وما أحذَرْ
فما رحبَ الأُفقُ فنفسي الأُفقُ الأكبَرْ

. . .

ليس جلالُ الليلِ ما أدهشني وإنما أدهشني جلالي
ولا جمالُ الشهبِ ما حيّرني وإنما حيّرني جمالي
إنْ كانَ بي شوقٌ إلى وصالِ
فإنّما شوقي إلى خيالي

توشّحتُ الضحى والليلَ في أنسي وفي حزني
فما زادَ الدجى خوفي ولا زادَ الضحى أمني

. . .

لم أهجرِ الناسَ فأصنافُ الورى من السلاطينِ إلى الموالي
إلى ذوي العلمِ، إلى أهلِ الغنى من واصلٍ وهاجرٍ وسالِ
وحاضرٍ وسابقٍ وتالِ
في قبضتي «اليمنى» بلا جدالِ

تلاقى الأحمقُ الجاهلُ والعالمُ في كفّي
ومن كانَ لَهُ إلفٌ ومن كانَ بلا إلفِ

. . .

وفي يدي «الشمالُ» أشكالُ المنى وصوَرُ اليقينِ والضلالِ
وكلُّ ما لعاقلٍ أو جاهلٍ من لذّةٍ أو ألمٍ قتّالِ
وسائرُ الأمورِ والأحوالِ
وكلُّ شيءٍ قالَ شخصٌ : ذا لي

وكانَ الليلُ قد أزمعَ أن يحدو مطاياهُ
فسادَ الصمتُ في الوادي كأن الموتَ يغشاهُ

. . .

فسرتُ والفجرُ دليلي باحثاً في الغابِ والسفوحِ والتلالِ
فلم أجدْ غيرَ صريعٍ هامدٍ منطرحٍ في جانبِ الشلّالِ
«لا شيء» في قبضتهِ الشمالِ
وليس في اليمنى سوى «صلصالِ»

تأملات

ليتَ الذي خلقَ الحياة جميلةً ... لم يُسدلِ الأستارَ فوقَ جمالِها
بل ليتهُ سلبَ العقولَ فلم يكنْ ... أحدٌ يعلّلُ نفسهُ بمنالِها
للهِ كم تُغري الفتى بوصالِها ... وتضنُّ حتى في الكرى بوصالِها
تدنيهِ من أبوابِها بيمينِها ... وتردُّهُ عن خِدْرِها بشمالِها
كم قلتُ هذا الأمرُ بعضُ صوابِها ... فوجدتهُ بالخُبْرِ بعضَ محالِها
ولكم خُدعتُ بآلِها ونعيمِهُ ... ورجعتُ أظمأَ ما أكونُ لآلِها
قد كنتُ أحسبُني أمنتُ ضلالَها ... فإذا الذي خمّنتُ كلُّ ضلالِها
إنَّ النفوسَ تغرُّها آمالُها ... وتظلُّ عاكفةً على آمالِها
ذهبَ الصبا وأنا أعالجُ سرَّها ... متحيّراً في كنهِها ومآلِها
حتى رأيتُ الشمسَ تُلقي نورَها ... في الأرضِ فوقَ سهولِها وجبالِها
ورأيتُ أحقرَ ما بناهُ عنكبٌ ... متلفعاً ومطوّقاً بجمالِها
مثلَ القصورِ العالياتِ قبابُها ... الشامخاتِ على الثرى بقلالِها
فعلمتُ أنَّ النفسَ تخطرُ في الحلى ... والوشيِ مثلُ النفسِ في أسمالِها
ليستْ حياتكَ غيرَ ما صوّرتَها ... أنتَ الحياةُ بصمتِها ومقالِها

ولقدْ نظرتُ إلى الحمائمِ في الربى ... فعجبتُ من حالِ الأنامِ وحالِها
للشوكِ حظُّ الوردِ من تغريدِها ... وسريكهُ من بَعْدُ في إعوالِها
تشدو وصائدُها يمدُّ لها الردى ... فاعجبْ لمحسنةٍ إلى مغتالِها
فغبطتُها في أمنِها وسلامِها ... ووددتُ لو أعطيتُ راحةَ بالِها
وجعلتُ مذهبَها لنفسي مذهباً ... ونسجتُ أخلاقي على منوالِها
من لجَّ في ضيمي تركتُ سماءهُ ... تبكي عليَّ بشمسِها وهلالِها
وهجرتُ روضتَهُ فأصبحَ وردُها ... لليأسِ كالأشواكِ في أدغالِها
وزجرتُ نفسي أن تميلَ كنفسهِ ... عن كوثرِ الدنيا إلى أوحالِها
نسيانكَ الجاني المسيءَ فضيلةٌ ... وخمودُ نارٍ جدَّ في إشعالِها
فاربأ بنفسِكَ والحياةُ قصيرةٌ ... أنْ تجعلَ الأضغانَ من أحمالِها

***

زمنَ الشبابِ رحلتَ غيرَ مذمَّمٍ ... وتركتَ للحسراتِ قلبي الوالِها
دبّتْ عقاربُها إليهِ تنوشُهُ ... ورمتْ بقاياهُ إلى أصلالِها
لم يبقَ من لذّاتِهِ إلّا الرؤى ... ومن الصبابةِ غيرُ طيفِ خيالِها
ومن الكؤوسِ سوى صدى رنّاتِها ... والراحِ غيرُ خمارِها وخبالِها
يا جنّةً عوجلتُ عنْ أثمارِها ... ولذاذةً عُرّيتُ منْ سربالِها
ما عابَها شيءٌ سوى اضمحلالِها ... والذنبُ للأقدارِ في اضمحلالِها

ومليحةٍ في وجهها ألقُ الضحى | والسحرُ والصهباء في أقوالها
قالتْ: أينسى النازحونَ بلادهم ؟ | ما هاجَ حزنَ القلبِ غيرُ سؤالها
الأرضُ، سوريّا، أحبُّ ربوعها | عندي، ولبنانُ أعزُّ جبالها
والناسُ أكرمهمْ عليَّ عشيرُها | روحي الفداء لرهطها ولآلها!
والشهبُ أسطعها التي في أفقها | ليسَ الجلالُ الحقُّ غيرَ جلالها
وأحبُّ غيثٍ ما همَى في أرضها | حتى الحَيا الباكي على أطلالها
مرحُ الصِّبا الجذلانِ في أسحارها | ومنى الصِّبا الولهانِ في آصالها
إني لأعرفُ ريحها من غيرِها | بنوافحِ الأشذاء في أذيالها
تلكَ المنازلُ كم خطرتُ بساحِها | في ظلِّ ضيغَميها وعطفِ غزالها
وشدوتُ مع أطيارها، وسهرتُ مع | أقمارها، ورقصتُ مع شلّالها
وسجدتُ للإلهامِ معْ صفصافها | وضحكتُ للأحلامِ مع ورّالها
وملأتُ عقلي من حديثِ شيوخها | وأخذتُ شعري من لغَى أطفالها
تشتاقُ عيني قبلَ يُغمضها الردى | لو أنها اكتحلتْ ولو برمالها
مرّتْ بيَ الأعوامُ تعفو بعضها | وثبَ القطا تعدو إلى آجالها
وتعاقبتْ صورُ الجمالِ فلم يدمْ | في خاطري منها سوى تمثالها

•

ابن الليل

أشرفَ البدرُ على الغابةِ في إحدى الليالي
فرأى الثعلبَ يمشي خِلْسةً بين الدوالي
كلما لاحَ خيالٌ، خافَ من ذاكَ الخيالِ
واقشعرّا

ورأى ليثاً هسوراً واقفاً عند الغديرْ
كلما استشعرَ حساً مَـلأَ الوادي زئيرْ
فـإذا بالماء يجري خائفاً عندَ الصخورْ
مكفهرّا

ورأى البدرَ ابنُ آوى يتهادى في الفضاء
كمليكٍ حولَهُ الشهبُ جنودٌ وإمـاء
قالَ: لو كنتُ رفيقَ البدرِ، أو بدرَ السماء
أو خيالَهْ

عشتُ حراً جيرتي الشهبُ ولي الظلماء مركبْ

آمناً ، ألعبُ بالبرقِ وطوراً بيَ يلعب
لا أبالي سطوةَ الراعي ولا الكلبَ المجرّبْ
وصيالَهْ

غيرَ أنَّ الليثَ لما أبصرَ البدرَ الضحوكا
قالَ : يا ابنَ الليلِ مهما أشتهي لا أشتهيكا
أنتَ وضّاحُ ولكنْ قاحلُ لا صيدَ فيكا
أو حيالَكْ

لكَ هذا الأفق، لكنْ هو أيضاً للكواكبْ
إنمـا لو كنتَ ليثاً ذا نيوبٍ ومَخالبْ
لم تَعِثْ في وجهكَ الوضّاحِ ألحاظُ الثعالبْ
صن جمالَكْ

•

عبد

من أغاني الزنوج في أميركا

فـوقَ الجمّيزةِ سنجابُ   والأرنبُ تمرَحُ في الحقلِ
وأنا صيّـادُ وثّبُ   لكنَّ الصيدَ على مثلي
محظورٌ إذ أني عبدُ

والديكُ الأبيضُ في القِنِّ   يختالُ كيوسفَ في الحسنِ
وأنا أتمنّى لو أنّي   أصطادُ الديكَ ولكنّي
لا أقدرُ إذ أنّي عبدُ

وفتاتي في تلكَ الدارِ   سوداءُ الطّلعةِ كالقـارِ
سيجيءُ ويأخذُها جاري   يا ويحي من هذا العـارِ
أفلا يكفي أنّي عبدُ؟

•

في السفينة

تَسِيرُ بنا على عَجَلٍ ... وإنْ شاءتْ على مَهَلِ
وتَسْعَى سَعْيَ مُشْتَاقٍ ... بِلَا قَلْبٍ ولا عَقْلِ
وتَمْشي في عُبابِ المَا ... ءِ مَشْيَ الصِّلِّ في الرَّمْلِ
فَـا تَعْبِسُ للحَزْنِ ... ولا تَضْحَكُ للسَّهْلِ
أبتْ أنْ تَعْرِفَ الشَّكْوى ... مِنَ التَّرْحالِ والحِلِّ
فَطَوْراً في قَرارِ اليَمِّ ... للغَــامِضِ تَسْتَجْلي
وآوِنَــةً تُناجيها ... دَرَارِي الأُفْقِ بالوَصْلِ
وأحياناً تُوَاني سَــ ... ـيْرَها ساكِنَةَ الظِّـلِّ
ولِلْمَوجِ حَوَالَيْهَا ... زَئِيرُ اللَّيْثِ ذي الشِّبْلِ
رَكِبْناها ونارُ الشَّو ... قِ في أَحْشائِها تَغْلي
فَيَــا للهِ حَتَّى السُّفْــ ... ـنُ مِثْلي ما لَها مُسْلٍ
فَلَا تَعْجَبْ إذا أعْجَــبْ ... مِنْ أطوارِها مِثْلي
فَمَا أعْرِفُ مَرْكُوباً ... سِوَى الأفْراسِ والإبِلِ
وما أعلمُ قَبْلَ الآ ... نِ أنَّ الطَّوْدَ ناقَ لي
تَرَكْنَا «غادَةَ الشَّرْقِ» ... إلى «لُبْنانَ» ذي الفَضْلِ
فَمِنْ وَطَنٍ إلى وَطَنٍ ... ومِنْ أهْلٍ إلى أهْلِ

مداعبة

نُبِّئْتُ أنكَ تعشقُ التمثيلا ... عشقاً يمثّلُ في حشاكَ فصولا
وتكادُ من فَرْطِ الصبابةِ والجوى ... أن تهجرَ المشروبَ والمأكولا
عللتَ نفسكَ بالمحالِ فأصبحتْ ... في غمرةٍ وغَدَوْتَ أنتَ عليلا
والنفسُ تقنعُ بالقليلِ فحبَّذا ... لو أنتَ صيَّرتَ القليلَ السولا
تأبى المراسحُ أن تُنيلكَ ودَّها ... إنَّ المراسحَ لا تحبُّ ثقيلا

•

ستعود دنيانا أحب وأجملا

أنسَ حينَ مشتْ إليَّ تلومني   لمـــا رأتني باسماً متهللا

قالتْ — أتطربُ والمنايا حومٌ

في الأرضِ كيفَ رمتْ أصابتْ مقتلا ؟

أنظرْ ، فقد خلتِ البيوتُ من الشبابِ

ولا جمـــالُ لمنزلٍ منهمْ خلا

فسألتها — وَ ليسَ من أجلِ العُلى

وهنائِنا خاضوا الوغى ؟ قالتْ — بلى

يا هذهِ ، أإذا بكيتُ لبعدهمْ

يتبسمونَ ؟ أجابتِ الحسناءُ — لا

كُفّي الملامَ إذنْ فما أنا جاهلٌ   ما تعلمينَ ، وكيفَ لي أنْ أجهلا

لكنْ بعثتُ الفكرَ في آثارهمْ

في البحرِ ، في الأجواءِ ، في عرضِ الفلا

فرأيتُ نورَ المجدِ فــوقَ بنودهمْ

ورأيتهمْ يمشونَ من نَصْرٍ إلى . . .

سدّوا على الباغي المسالكَ كلَّها   فالموتُ إنْ ولى وإنْ هُوَ أقبلا

فــإذا شممتِ اليومَ رائحةَ الدماءِ

وطالعتْ عيناكِ آثارَ البلى

فاستبشري ، فغداً إذا النقعُ انجلى

ستعودُ دنيـــانا أحبُّ وأجملا

قنبلة الفناء

إذا سحقتْ أرضَنا القُنْبُلَهْ   كما يسحقُ الحجرُ الخردلهْ
وقوّضَ مفعولُها الراسياتِ   فصارتْ غباراً لَهُ جلجلهْ
ودبَّ الفنا في ذواتِ الجناحِ   وغلغل في النّبتِ فاستأصلهْ
وفي الماشياتِ وفي الزاحفاتِ   عليهـا إلى آخرِ السلسلهْ
فلا زهرَ يأرجُ في روضةٍ   ولا ديكَ يصدحُ في مزبلهْ
وضاعَ الزمانُ ومقياسُهُ   وأشبهَ آخرُهُ أولهْ
ولم يبقَ حيٌّ على سطحِها   وأصبحَ عزريلُ لا شغلَ لَهْ
فذلكَ خطبٌ يهولُ النفوسَ   تصورُهُ قبلَ أنْ تحملهْ
ولكنْ أمراً يعزي الجميعَ   إذا سحقتْ أرضنا القنبلهْ
فلنْ يُدْعَ الموتُ حيـاً يلومُ   سواهُ على هذهِ المقتلهْ !

فتح اورشليم

للهِ مـا أحلى البشيرَ وقولَهُ   سَقَطَ الهلالُ إلى الحضيضِ ودالا(١)
بُشرى نسينا كلَّ شيءٍ قبلَها   الناسَ والدولاتِ والأجيالا
ردّتْ على الشيخِ المسنِّ شبابَهُ   وعلى الحزينِ اليائسِ الآمالا
وعلى الصديقِ صديقَهُ ، وعليهما   أبويهما ، وعلى الأبِ الأطفالا
لو ساومَ الخلقَ الذي وافى بها   بذلوا لهُ الأرواحَ والأموالا

***

مَن مبلغُ الأبطالِ عني أنني   أهوى القرومَ الصيدَ والأبطالا
بالأمسِ قُطِّعتِ الجزيرةُ قيدَها   ورَمَتْ بوجهِ الغاشمِ الأغلالا
واليومَ ودّعتِ المظالمَ أختُها   ومشتْ تجرُّ ذيولهـا إدلالا
أبناتِ أورشليمَ ضمّخنَ الثرى   بالطيبِ واملأنَ الدروبَ جمالا
حتى يمرَّ الفاتحونَ فـإنَّهمْ   كشفوا الأذى عنكنَّ والإذلالا
فاخلعنَ أثوابَ الكآبةِ والأسى   والبسنَ من نورِ الضحى سربالا

(١) يريد بالهلال دائماً : الأتراك .

وانفحنَ بالبَسماتِ كلَّ سَمَيذَعٍ ... خاضَ العَجاجَ ووَجهُهُ يتلألا

هذا مَجالٌ للفتى أن يزدَهي ... فيهِ، وللحسناءِ أن تختالا

يا قائدَ الصِّيدِ الغَطارِفَةِ الأُلى ... تَحنى الرؤوسُ، لذكرهم، إجلالا

ظَنَّ المغولُ جُنودَهُمْ تَحميهِمُ ... والقِردُ يَحسَبُهُ أبوهُ غَزالا

فتألّبوا وتهدّدوا وتوعّدوا ... حتّى طَلعتَ فأجفلوا إجفالا

ذُعِرَ الطُّيورِ سَطا عليهم باشِقٌ ... وبَناتِ آوى أبصرَتْ رِئبالا

كم جَحفَلٍ بعثوا إليكَ مَعَ الدُّجى ... لاقاهُ جيشُكَ، والصَّباحُ، فَزالا

طارَدتَهمْ فوقَ الجِبالِ وتحتَها ... كاللَّيثِ يَطرُدُ دونَهُ الأوعالا

فملأتَ هاتيكَ الأباطِحَ والرُّبى ... بجسومِهِمْ وملأتَهُمْ أهوالا

وحَميتَ إلّا السُّهدَ عن أجفانِهِمْ ... ومَنعتَ إلّا عنهمُ الأوجالا

ساقوا إليكَ بنيهِمُ وأُلوفَهُمْ ... فِرَقاً وسُقتَ إليهِمُ الآجالا

وصَنعتَ مِن أسيافِهِمْ ودروعِهِمْ ... لِرقابِهِمْ وزُنودِهِمْ أغلالا

لو لم تُساقِطْهم إليكَ جِبالُهُمْ ... عِندَ الضُّحى زَلزَلتَها زِلزالا

إن يأمَنوا وَجدوا المَنايا جَمّةً ... أو يأسِروا وَجدوا الجُيوشَ ثِمالا

وشَكَتْ خُيولُكَ في المَيادينِ الوَجى ... فجَعلتَ أرؤُسَهُمْ لهنَّ نِعالا

ورأوكَ قد عَرَّضتَ صدرَكَ للظُّبى ... عِندَ الحُصونِ فعَرَّضوا الأكفالا

***

هُنِّئتَ بالنَّصرِ المُبينِ فإنَّهُ ... نَصرٌ يَعِزُّ على سِواكَ مَنالا

هذي القُلوبُ نَسجتُها لكَ أحرُفاً ... لو أستطيعُ صَنعتُها تِمثالا

أرضَيتَ موسى والمَسيحَ وأحمَداً ... والنّاسَ أجمَعَ والإلهَ تَعالى

كتابي

وسائلةٍ: أيَّ المذاهبِ مذهبي ... وهل كانَ فرعاً في الديانات أم أصلا

وأيُّ نبيٍّ مُرسَلٍ أقتدي به ... وأيُّ كتابٍ مُنزلٍ عنديَ الأغلى؟

فقلتُ لها: لا يقتني المرءُ مذهباً، ... وإنْ جلَّ، إلّا كانَ في عنقهِ غُلّا

فما مذهبُ الإنسانِ إلّا زجاجة ... تقيّده خمراً وتضبطه خــلّا

فإنْ كانَ قبحاً لم يبدِّلْهُ لونُها ... جمالًا، ولا نُبلاً إذا لم يكنْ نُبلا

أنا آدميٌّ كانَ يحسبُ أنهُ ... هو الكائنُ الأسمى وشرعتهُ الفضلى

وأنَّ لهُ الدنيا التي هو بعضُها ... وأنَّ له الأخرى إذا صامَ أو صلّى

أمنُّ على الصّادي إذا ما سقيتُهُ ... وألزمهُ شكري، ولستُ أنا الوَبْلا

وأزهى إذا أطعمتُ جوعانَ لقمةً ... كأني خلقتُ الحبَّ في الحقلِ والحقلا

تلمذتُ للإنسانِ في الدّهرِ حقبةً ... فلقّنني غيّاً، وعلّمني جهــلا

نهانيَ عن قتلِ النفوسِ وعندما ... رأى غِرّةً منّي تعلَّمَ بي القتلا!

ونمَّ إليَّ الرقَّ ثم استرقّني ... وصوّرَ ظلماً فيه تمجيدهُ عدلا

وكادَ يُريني الإثمَ في كلِّ ما أرى ... وكلَّ نظامٍ غيرَ ما سنَّ مختلّا

فصارَ الورى عندي عدوّاً وصاحباً

وأقسمهمْ صنفينِ عليــاءَ أو سُفلى

وصرتُ أرى بغضاً، وصرتُ أرى هوًى،

وصرتُ أرى عبداً، وصرتُ أرى مَولى

ويا رُبَّ شرٍّ خلتهُ الخيرَ كلَّهُ ... ويا رُبَّ خيرٍ خلتهُ نكبةً جُلّى

***

إلى أنْ رأيتُ النجمَ يطلعُ في الدجى

لذي مقلةٍ حسرى وذي مقلةٍ جَذلى

وشاهدتُ كيفَ النهرُ يبذلُ ماءه

فلا يبتغي شكراً ولا يدّعي فضلا

وكيفَ يزينُ الطلُّ ورداً وعَوسجاً

وكيفَ يُروّي العارضُ الوعرَ والسهلا

وكيفَ تغذّي الأرضُ الأمّ نبتها

وأقبحَهُ شكلاً كأحسنه شكلا

فأصبحَ رأيي في الحياةِ كرأيها

وأصبحتُ لي دينٌ سوى مذهبي قَبْلا

وصارَ نبيّي كلُّ ما يطلقُ العقلا

وصارَ كتابي الكونُ لا صحفٌ تُتلى

***

فديني كدينِ الروضِ يعبقُ بالشذى ... ولو لم يكنْ فيهِ سوى اللصِ منسلا

فليستْ تخومُ المالكيهِ تخومَهُ ... وإنَّ له إنْ يعلموا غيرَهم أهلا

فكم هشَّ للأنسامِ والنورِ والندى ... وآوى إليهِ الطيرَ والذرَّ والنملا

وكم بعثتهُ للحياةِ من البِلى ... قريحةُ فنانٍ فأورقَ واخضلَّا

وأصبحَ يُجلى «طيفهُ» في قصيدةٍ ... وفي رقعةٍ أو لوحةٍ «وهو» لا يُجلى

وديني الذي اختار الغديرُ لنفسهِ ... ويا حسنَ ما اختارَ الغديرُ وما أحلى!

تجيء إليهِ الطيرُ عطشى فترتوي ... وإنْ وردتهُ الإبلُ لم يَزْجرِ الإبلا

ويغتسلُ الذئبُ الأثيمُ بمـــائهِ ... فلا إثمُ ذا يُمحى، ولا طهرُ ذا يَبلى!

وديني كدينِ الشهبِ تبدو لعاشقٍ ... وقالٍ، وفيها ما يُحبُّ وما يُقلى

فما استترتْ كيما يضلَّ مسافرٌ ... ولا بزغتْ كي يستنيرَ الذي ضلَّا

وليسَ لها أن تمنعَ الناسَ ضوءها ... ولو فتلوا منهُ لتكبيلها حَبْلا

وديني كدينِ الغيثِ إن سحَّ لم يبلْ ... أروّى الأقاحي أم سقى الشوكَ والدغلا

فلم يتخيّرْ في الفضاءِ مسيرَهُ، ... ولم ينهمرْ جوداً، ولم ينحبسْ بخلا

وان لم أكنْ كالروضِ والنجمِ والحيا ... فحسبي اعتقادي أنَّ خطتها المثلى

***

يرى النحلَ غيري اذ يرى النحلَ حائماً ... وأبصرُ قرصَ الشهدِ اذ أبصرُ النحلا

وألمحُ واحاتٍ من النخلِ في النوى ... اذا جرفَ الإعصارُ من واحتي النخلا

وان أشربِ الصهباءَ أعلمُ أنني ... شربتُ بشاشاتِ الزمانِ الذي ولَّى

وما همستهُ الريحُ في أذنِ الثرى ... وما ذرفتْ في الليلِ نجمتهُ الثكلى

وغصّاتِ من ماتوا على اليأسِ في الهوى ... فيا شاربيها هلْ لحتمْ دمَ القتلى؟

وان مرَّ بي طفلٌ رأيتُ به الورى ... من المثلِ الأدنى الى المثلِ الأعلى

فيا لكِ دنيا حسنُها بعضُ قبحِها ... ويا لكِ كوناً قد حوى بعضهُ الكلَّا

•

الشباب والحب

بكيتَ الصِّبا من قبلِ أنْ يذهبَ الصِّبا

فيا ليتَ شعري ما تقولُ اذا ولّى ؟

توهّمتَهُ يبقى اذا أنتَ صنتَهُ　　عن الشفقِ الحمراءِ والمقلةِ الكحلا

وخلتَ الهوى جهلاً فلَمْ يكنِ المدى

أخيراً سوى الأمرِ الذي خلتَهُ جهلا

خشيتَ عليهِ أنْ يطوّحهُ الهوى　　فألقاكَ هذا الخوفُ في الهوّةِ السفلى

أتلجمُ ماءَ النهرِ عن جريانهِ　　مخافةَ أنْ يفنى؟ اذن، فاشربِ الوحلا

سبيلُ الصِّبا معها حرصتَ على الصِّبا　　فدعهُ يذوقُ الحبَّ من قبلِ أنْ يبلى

***

فما ديمةٌ صبّتْ على الصخرِ ماءها　　فما أنبتتْ زهراً ولا أطلعتْ بقلا

بأضيعَ من بُردِ الشبابِ على امرىءٍ　　اذا استطعَمَتْهُ النفسُ أطعمها العذلا

***

فلا تكُ مثلَ الأقحوانةِ راعها　　من الحقلِ أنْ تجنى فلم تسكنِ الحقلا

وأعجبها الوادي فلاذتْ بقاعهِ　　فجاءَ عليها السيلُ في الليلِ واستقلّا

فما عانقتْ نورَ الكواكبِ في الدجى　　ولا لثمتْ فجراً ولا رشفتْ طلّا

وزالتْ فلَمْ يستشعرِ النورُ والندى　　على فقدِها غمّاً كأنْ لم تكنْ قبلا

ولا تكُ كالصدّاحِ اذ خالَ أنّهُ　　اذا اذّخرَ الألحانَ أكسبها نُبلا

فضنَّ بها والشمسُ تنثرُ تبرَها　　وفضّتها والأرضُ ضاحكةٌ جذلى

فلمّا مضى نورُ الربيعِ عن الربى　　ودبَّ الى أزهارها الموتُ منسلّا

تحفّزَ كي يشدو فلَمْ يلقَ حولَهُ　　سوى الورقِ الهاوي كأحلامهِ القتلى

فلسفة الحياة

أيهذا الشاكي وما بك داءٌ ... كيف تغدو اذا غدوت عليلا؟

انّ شرّ الجناةِ في الأرضِ نفسٌ ... تتوقّى، قبلَ الرحيلِ، الرحيلا

وترى الشوكَ في الورودِ، وتعمى ... أن ترى فوقها الندى إكليلا

هو عِبءٌ على الحياةِ ثقيلٌ ... مَنْ يظنُّ الحياةَ عِبئاً ثقيلا

والذي نفسُهُ بغيرِ جمالٍ ... لا يرى في الوجودِ شيئاً جميلا

ليسَ أشقى ممن يرى العيشَ مُراً ... ويظنُّ اللذاتِ فيه فضولا

أحكمُ الناسِ في الحياةِ أناسٌ ... عللوها فأحسنوا التعليلا

فتمتّعْ بالصبحِ ما دمتَ فيه ... لا تخفْ أنْ يزولَ حتى يزولا

وإذا ما أظلَّ رأسكَ همٌّ ... قصّرِ البحثَ فيه كيلا يطولا

أدركتْ كُنهَها طيورُ الروابي ... فمِنَ العارِ أنْ تظلَّ جهولا

ما تراها ــ والحقلُ مِلْكُ سواها ــ ... تخِذتْ فيه مسرحاً ومقيلا

تتغنّى، والصقرُ قد ملكَ الجوَّ ... عليها، والصائدونَ السبيلا

تتغنّى، وقد رأت بعضَها يُؤْ ... خَذُ حياً والبعضَ يقضي قتيلا

تتغنّى، وعمرُها بعضُ عامٍ ... أفتبكي وقد تعيشُ طويلا؟

فهي فوقَ الغصونِ في الفجرِ تتلو ... سُوَرَ الوجدِ والهوى ترتيلا

وهيَ طوراً على الثرى واقعاتٌ ... تلقطُ الحَبَّ أو تجرُّ الذيولا

كلّما أمسكَ الغصونَ سكونٌ ... صفّقتْ للغصونِ حتى تميلا

فاذا ذهبَ الأصيلُ الروابي ... وقفتْ فوقَها تُناجي الأصيلا

فاطلبِ اللهوَ مثلما تطلبُ الأطْ ... يارُ عِندَ الهجيرِ ظِلاً ظليلا

وتعلَّمْ حُبَّ الطبيعةِ منها ... واتركِ القالَ للورى والقيلا

فالذي يتّقي العواذلَ يلقى ... كلَّ حينٍ في كلِّ شخصٍ عذولا

***

أنتَ للأرضِ أولاً وأخيراً ... كنتَ ملكاً أو كنتَ عبداً ذليلا

لا خلودٌ تحتَ السماءِ لحيٍّ ... فلماذا تُراودُ المستحيلا؟..

كلُّ نجمٍ إلى الأفولِ ولكنْ ... آفةُ النجمِ أنْ يخافَ الأفولا

غايةُ الوردِ في الرياضِ ذبولٌ ... كنْ حكيماً واسبقْ إليه الذبولا

وإذا ما وجدتَ في الأرضِ ظِلاً ... فتفيّأ بهِ إلى أنْ يحولا

وتوقّعْ، إذا السماءُ اكفهرّتْ ... مطراً في السهولِ يحيي السهولا

قلْ لقومٍ يستنزفونَ المآقي ... هل شفيتمْ معَ البكاءِ غليلا؟

ما أتينا إلى الحياةِ لنشقى ... فأريحوا، أهلَ العقولِ، العقولا

كلُّ مَنْ يجمعُ الهمومَ عليهِ ... أخذتْهُ الهمومُ أخذاً وبيلا

***

كُنْ هَزاراً في عُشّهِ يتغنّى ... ومعَ الكَبْلِ لا يبالي الكُبُولا
لا غُراباً يطاردُ الدُّودَ في الأرْ ... ضِ وبُوماً في اللّيلِ يَبكي الطُّلولا

***

كُنْ غديراً يسيرُ في الأرضِ رقرا ... قاً فيَسقي من جانبَيْهِ الحقولا
تستحمُّ النُّجومُ فيه ويلقى ... كلُّ شخصٍ وكلُّ شيءٍ مثيلا
لا وِعاءً يُقيِّدُ المـــاءَ حتى ... تستحيلَ المِياهُ فيه وُحولا

***

كُنْ معَ الفجرِ نَسمةً تُوسِعُ الأزْ ... هـــارَ شمّاً وتارةً تَقبيلا
لا سموماً من السّوافي اللّواتي ... تملأُ الأرضَ في الظّلامِ عَويلا
ومعَ اللّيلِ كوكباً يُؤنِسُ الغا ... باتِ والنّهرَ والرُّبى والسُّهولا
لا دُجىً يَكرَهُ العوالمَ والنّا ... سَ فيُلقي على الجميعِ سُدولا

***

أيُّهذا الشّاكي وما بكَ داءٌ ... كُنْ جميلاً ترَ الوجودَ جميلا

•

وردة وأصيل

يا ليتها خُلِقَ الزمانُ أصيلا ... إني أراهُ كالشّبابِ جميلا
ولّى، فوَدّعتِ السماءُ بَهاءَها ... مِنْ بَعدِهِ .. هوى النّهارُ عليلا
جنحتْ ذُكاءُ إلى الغروبِ كأنّما ... تبغي رقاداً أو تريدُ مَقيلا
وتناثرَتْ قِطَعُ السحابِ كأنّها ... الجيشُ اللُّهامُ إذا انثنى مفلولا
هذا وقد بَسَطَ السكونُ جَناحَهُ ... والليلُ أمسى سِترُهُ مسدولا
قد باتَ كلُّ مُسهَّدٍ طوعَ الرّقا ... دِ، وكلُّ جَفنٍ بالكرى مكحولا
إلا مهفهفةٌ بهـــا نَزَلَ الهوى ... ضيفاً ولكنْ لا يُريدُ رحيلا
غَيْداءُ قد وصلَتْ ذوائبُها الثّرى ... إني لأحسدُ ذلكَ الموصولا
تحكي المُدامةَ رِقّةً وقساوةً ... تحكي المهاةَ لواحظاً وتليلا
ماءُ الحياءِ يجولُ في وَجَناتِها ... فكأنَّ في تلكَ الكؤوسِ شَمولا
والخدُّ أبهجُ ما يكونُ مورداً ... والطرفُ أفتنُ ما يكونُ كحيلا
نظرتْ وربَّ منيةٍ من نَظرةٍ ... قد كانَ عنها ربُّها مشغولا
فهوَتْ وربَّ هوًى تُنالُ بهِ المُنى ... وهوًى يُنالُ به الحِمامُ نبيلا
والحبُّ مصدرُهُ العيونُ وربّما ... تَخِذَ السماعَ إلى القلوبِ سبيلا

فإذا عشقتَ فلا تلُمْ أحداً سوى ... عينيكَ ، إنّ من العيونِ قتولا
وثنتْ وقد نالَ الذبولُ خدودَها ... لو أن في الشوقِ المقيمِ ذبولا
وإذا تملّكتِ الصبابةُ في أمرىءٍ ... لم يُجدِ عذلُ العاذلينَ فتيلا
سمعتْ دوياً في الظلامِ فروّعتْ ... مذعورةً بعدَ الوقوفِ طويلا
وأنينَ محتضرٍ يقولُ قتلتني ... ثكلتكَ أمُّكَ لم أنلْ مأمولا
تعدو وتجذبُها روادفُها إلى ... خلفٍ فتجهدُ خصرَها المتبولا
فكأنّ في ذاكَ الوشاحِ متيّماً ... وكأنّ في ذاكَ الإزارِ عذولا
تخِذَتْ من الليلِ المخيّمِ صاحباً ... ومِنَ الأنينِ إلى الأنينِ دليلا
تبغي الوقوفَ على حقيقةِ أمرهِ ، ... تبغي خليلًا لا تراهُ جليلا
وتديرُ في تلكَ البنانِ مسدّساً ... تركَتْ قذائفُهُ السهامَ فضولا
في طرفهِ كمَنَ الهلاكُ فلوْ رنا ... طرفُ الزمانِ إليه عادَ كليلا
قد أسكنتْ أكرُ الرصاصِ جفونَهُ ... فكأنّ أكباداً تجنُّ غليلا
يحمي الضعيفَ من القويِّ وربّما ... قتلَ الجبانُ بهِ الفتى البهلولا
ومن الأسى لم تعرفِ الحسناءُ هل ... قطعَتْ ذراعاً في السُّرى أم ميلا
حتى إذا رأتِ المرادَ وما رأت ... إلا خيالاً واقفاً مجهولا
حسبتْهُ قاتلَ مَنْ تحبُّ وأيقنتْ ... أنّ الذي علِقَتْ به المقتولا
فدنَتْ وأطلقتِ المسدّسَ نحوَ من ... بصُرتْ به عرَضاً فخرَّ قتيلا

صرعَتْ فتى صرعَ الرقيبَ وجندلَتْ ... أسداً يخرُّ له الهزبرُ ذليلا
كالبدرِ حسناً ، كالغمامِ سماحةً ، ... كالغصنِ غضاً ، كالحسامِ صقيلا
ثبتَ الجنانِ قويّهُ ، عفَّ الإزا ... رِ نقيّهُ ، ما خانَ قطُّ خليلا
هذا هو الذئبُ الذي أرضى الهوى ... فيها ، وأغضبَ كاشحاً وعذولا
ما نالَ بعدَ جهادِهِ إلا الردى ... والبدرُ يكسبُهُ المسيرُ أفولا
لم تعلمِ الحسناءُ أنّ قتيلها ... مَنْ لم ترَ أبداً سواهُ جميلا
عرفَتْ وذلكَ عندما طلعَ الضحى ... ورأتْ عياناً نعشَهُ محمولا
لم يبلغوا القبرَ المعدَّ لدفنِهِ ... إلا وقد بلغَ الردى العطبولا
يا صاحبي إن جزتَ في قبريهما ... فاتلُ السلامَ عليهما ترتيلا
من شاعرٍ ما حرّكَ الغصنَ الهوا ... إلا تذكّرَ وردةً وإميلا

كم نشتكي

قالها في مهرجان بردجفيل

كم تشتكي وتقولُ إنّكَ معدِمُ ... والأرضُ ملكُكَ والسما والأنجمُ؟
ولَكَ الحقولُ وزهرُها وأريجُها ... ونسيمُها والبلبلُ المترنّمُ
والماءُ حولكَ فضّةٌ رقراقةٌ ... والشمسُ فوقَكَ عسجدٌ يتضرّمُ
والنورُ يبني في السفوحِ وفي الذُّرى ... دُوراً مزخرفةً وحيناً يَهدِمُ
فكأنّهُ الفنّانُ يعرضُ عابثاً ... آياتِهِ قدّامَ مَنْ يتعلّمُ
وكأنّهُ لصفائِهِ وسنائِهِ ... بحرٌ تعومُ بهِ الطيورُ الحوّمُ
هشّتْ لكَ الدنيا فما لكَ واجماً؟ ... وتبسّمتْ فعلامَ لا تتبسّمُ؟
إنْ كنتَ مكتئباً لعزٍّ قد مضى ... هيهاتِ يُرجعهُ إليكَ تندُّمُ
أو كنتَ تُشفقُ من حلولِ مصيبةٍ ... هيهاتِ يمنعُ أنْ تَحِلَّ تجهُّمُ
أو كنتَ جاوزتَ الشبابَ فلا تقلْ ... شاخَ الزمانُ فإنّه لا يهرمُ
أنظرْ فما زالتْ تطلُّ من الثرى ... صورٌ تكادُ لحسنِها تتكلّمُ
ما بينَ أشجارٍ كأنَّ غصونَها ... أيدٍ تُصفّقُ تارةً وتُسلّمُ
وعيونِ ماءٍ دافقاتٍ في الثرى ... تشفي السقيمَ كأنّما هيَ زمزمُ

ومسارحٍ فتنَ النسيمَ جمالُها ... فسَرَى يُدندنُ تارةً ويُهمهمُ
فكأنّهُ صَبٌّ ببابِ حبيبةٍ ... متوسّلٌ، مستعطفٌ، مُسترحمُ
والجدولُ الجذلانُ يضحكُ لاهياً ... والنرجسُ الولهانُ مُغفٍ يَحلمُ
وعلى الصعيدِ ملاءةٌ من سُندسٍ ... وعلى الهضابِ لكلِّ حُسنٍ ميسمُ
فهنا مكانٌ بالأريجِ معطّرٌ ... وهناكَ طودٌ بالشعاعِ معمّمُ
صُوَرٌ وآياتٌ تفيضُ بشاشةً ... حتى كأنَّ اللهَ فيها يبسمُ
فامشِ بعقلِكَ فوقَها متفهّماً ... إنَّ الملاحةَ مُلكُ من يتفهّمُ
أتزورُ روحَكَ جنّةٌ فتفوتَها ... كيما تزوركَ بالظنونِ جهنّمُ؟
وترى الحقيقةَ هيكلاً متجسّداً ... فتعافُها لوساوسٍ تتوهّمُ؟
يا مَنْ يحنُّ إلى غدٍ في يومهِ ... قد بعتَ ما تدري بما لا تعلمُ

. . .

قمْ بادرِ اللذّاتِ قبلَ فواتِها ... ما كلُّ يومٍ مثلُ هذا موسمُ
واشربْ بسرِّ حصنِ سرِّ شبابهِ ... وارو أحاديثَ المروءةِ عنهمُ
المعرضينَ عن الخنا، فإذا علا ... صوتٌ يقولُ: «إلى المكارمِ» أقدموا
ألفاعلينَ الخيرَ لا لطماعةٍ ... في مغنمٍ، إنَّ الجميلَ المغنمُ
أنتَ الغنيُّ إذا ظفرتَ بصاحبٍ ... منهمْ وعندكَ للعواطفِ منجمُ
رفعوا لدينهمِ لواءً عالياً ... ولهمْ لواءٌ في العروبةِ مُعلَمُ

إنْ حازَ بعضُ النّاسِ سهماً في العلى   فلهم ضروبٌ لا تُعدُّ وأسهمُ

لا فضلَ لي إنْ رحتُ أعلنُ فضلهم   بقصائدي ، إنَّ الضحى لا يُكتمُ

لكنّني أخشى مقالةَ قائلٍ   هذا الذي يَثني عليهمْ منهمُ

أحبابَنا مــا أجلَّ الدنيا بكم   لا تَقْبُحُ الدنيــا وفيها أنتمُ

بين الكاس والطاس

حَمَلَ الشَّمسَ إلينا قمرٌ
في سماءٍ نحنُ فيها أنجمُ

شادنٌ حكّمَهُ الحُسنُ بنا
وسِوى الحُسنِ بنا لا يحكمُ

أسبلَ الشعرَ فيا عيني اسهري
إنّهُ ليلٌ طويلٌ مُظلمُ

واحذري يا مُهجتي منهُ فما
ذلكَ الأسودُ إلّا أرقمُ

كادَ أنْ يُشبهَ جسمي خصرُهُ
إنّمـا رقّتُهُ في سَقَمْ

يَتلظّى الخالُ في وَجنتِهِ
أرأيتم كيفَ يَصلى المُغرَمُ؟

صَنَمٌ في خدِّهِ النارُ وفي
كفِّهِ خمرتُها تضطَرِمُ

بنتُ كَرْمٍ لم يَهِمْ فيها سِوى
كلُّ صَبٍّ هامَ فيه الكرَمُ

حُبِسَتْ في دَنِّها من قِدَمٍ
ما لها ذنبٌ ولكن ظلَموا

حرّموها حينَما خافوا علَيْ
ها سِواهُمْ فاسقِني ما حرّموا

إنّها سِرٌّ فشا بينَ الورى
وإذا السرُّ فشا لا يُكتَمُ

الماهدون في المهجر

ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقامها المجلس الملي في مونتريال، كندا، لمناسبة مرور ٤٠ سنة على تأسيسه.

الأربعون لو انها تتكلمُ — لروَتْ لنا قِصصَ العظائمِ عنكمُ
ولحدّثتنا كيفَ عن أعشاشِكمْ — طِرتُمْ بأجنحةِ المنى إذ طرتمُ
يومُ الفراقِ كظمتمُ آلامكمْ — وأخفُّ من ألمِ الفِراقِ جهنمُ
وبكى الأحبةُ حولَكمْ وجفونُكمْ — تعصي البكا، حُزنُ الجبابرِ أبكمُ
أيدٍ تودّعُ موطناً وعشيرةً — ومطامحٌ خلفَ البحارِ تسلّمُ
ضاقتْ على أحلامِهمْ تلكَ القرى — فاختَرتُمُ الدنيا الوساعَ لتحلموا
وغزوتُمُ الآفاقَ لا زادَ لكمْ — إلا الصبا المتوثّبُ المتضرّمُ
كالليثِ ليسَ لهُ سلاحٌ في الشرى — إلا مخالبُهُ التي لا تثلمُ
تتخيلونَ البحرَ شُقَّ لتعبروا — وانداحَ بينَ الشاطئينِ لتسلموا
والبرُّ مخبوءاً لكمْ في قاعِهِ — كي تخرجوهُ وتغنموا ما شئتمُ
والموجُ إذ يطغى ويهدرُ حولكمْ — جوقاً لطَرْدِ همومِكمْ يترنّمُ

وإذا النجومُ تألقتْ تحتَ الدجى	خلتمْ لأجلكمْ تضيءُ الأنجمُ
وحسبتمُ شُمَّ الجبالِ سلالماً	نُصِبَتْ لكمْ كي تصعدوا فصعدتمُ
والشمسُ منجمُ عسجدٍ متكشّفٍ	لذوي الطموحِ وأنتمْ أنتمْ هُمُ
ولكمْ تلثمتِ الحقائقُ بالرؤى	كالأرضِ يغشاها السرابُ الموهمُ
اتطلُّ من أرواحنا أشواقُها	فنطوفُ حولَ خدورِها ونحوّمُ
لم تقنعوا كالخاملينَ بأنكمْ	لكمْ شرابٌ في الحياةِ ومطعمُ
لو أن تكونَ حياتُكمْ كحياتِهمْ	عَبثاً يموتُ بهِ الوقارُ ويعدمُ
وتأففاً في الليلِ وهوَ منوّرٌ	وتبرُّماً في الصبحِ وهو تبسُّمُ
لو أن يكونَ تراثُكمْ كتراثِهمْ	قصرٌ عفا أو هيكلٌ متردمُ
وحديثُ أسلافٍ قد التحفوا الفنا	فَهُمْ سواءٌ في القياسِ وجُرْهُمُ
من يقتربْ من أمسِ يَبْعُدْ عن غدٍ	ويَعِشْ مع الموتى ويُصْبِحْ منهمُ!
وكرهتمُ أنْ تنقضي أيامُكمْ	شكوى لمن يرثي ومن لا يَرْحَمُ
أو أنْ يبيتَ على الحضيضِ مُقامُكمْ	والدودُ يَزْحَفُ فوقَهُ والأرقمُ
فنفرتمُ كالنحلِ، ما من زهرةٍ	فيها جَنًى، إلا وفيها مغنمُ
في كل شطٍّ ماردٌ، في كلِّ طودٍ	قشعمٌ، في كلِّ وادٍ ضيغمُ
المجدُ مطلبكمْ وأنتمْ سُهَّدٌ	والمجدُ حلمكمْ وأنتمْ نُوَّمُ
لا شيءَ صَعْبٌ عندكمْ حتى الردى	ألصعبُ عندَ نفوسِكمْ أن تحجموا

يا بضعةً من أمةٍ، هي أُمَّةٌ	في ذاتها، ولها طرازٌ مُعْلَمُ
فيكُمْ جميعُ صفاتِها وخلالِها	والروضُ يحويهِ عطوراً قمقمُ
إنَّ الألى عابوا الجهادَ عليكُمْ	علكوا مداركَهمْ ولم يستطعموا...
طلبوا السلامةَ في القعودِ ففاتَهمْ	دَرْكُ الثراءِ وبعدَ ذا لم يَسلموا
هؤلاءِ دودُ القزِّ أحسنُ منهمُ	وأجلُّ في نَظَرِ الحياةِ وأفهمُ!
قالوا كهولٌ قد تصرَّمَ عصرُهمْ	ليتَ الشبابَ مِنَ الكهولِ تعلَّموا!
إنْ لم تشيدوا كالأوائلِ «تدمُراً»	أو «بعلبكَّ» فإنكمْ لم تهدموا
ولكُمْ غدٌ وجمالُهُ وبهاؤهُ	ولكُمْ مِنَ الأمسِ النفيسِ القيِّمُ

***

حدثتُ نفسي والقطارُ يخبُّ بي	عجلانَ يخترقُ الدُّجى ويدمدمُ
فسألتُها مستفهماً، ولربما	سألَ العليمُ سواهُ عمّا يعلمُ
ما أحسنَ الأيامَ؟ قالتْ: يومكمْ!	والناسَ؟ فابتدرتْ وقالتْ: أنتمُ
والنورَ؟ قالتْ: دورُكُمْ. والمالَ؟	قالتْ: إنَّ أحسنَهُ الذي أنفقتمُ
والحسنَ؟ قالتْ: كلُّ ما أحببتمُ	والأرضَ؟ قالتْ: أيّما استوطنتمُ
ما كانَ أكملَ يومكمْ وأتمَّهُ	لو لم يكنْ في مَهْدِ عيسى مأتمُ
وكذا الحياةُ، قديمُها وحديثُها،	ذكرى تسرُّ بها وذكرى تؤلمُ

أقوى من الشيب والهرم

مَا زِلتُ أحسبُ أنَّ الحُبَّ زايلَني
حتّى نَظَرتُ إليها وهي تَبتَسِمُ
فاهتزَّ قلبي كما تهتزُّ نابتةٌ
في القفرِ مرَّ عليها النورُ والنَّسَمُ
يا حُبَّها لا تخفْ شيباً ولا هَرَماً
فليسَ يقوى عليكَ الشيبُ والهَرَمُ

•

الى الشبان المتفرنجين

يا أيها الشّرقُ التعيسُ انظرْ إلى … القومِ الذينَ شدَدْتَ أزركَ فيهمُ
ما زلتَ تكلأهُمْ بطرفٍ ساهرٍ … يُحيي الظلامَ وهُمْ هجودٌ نُوَّمُ
والغربُ يرنو خائفاً أن يَخلفوا … أجدادهُمْ ويودُّ لو لم يَنْعُموا
حتى اذا طرَّتْ شواربُهمْ وباتَ … مِنَ الشبابِ لَهُمْ طرازٌ مُعلَمُ
خرجوا عليكَ وأنتَ لا تدري وهُمْ … لا يشعرونَ ولو دروا لتندّموا
يا طالما مَثَلوا لدَيكَ كأنّهم … أُسدُ الشّرى فنسيتَ أنّكَ تَحلُمُ
ورجوتَ ما يَرجوهُ كلُّ أبٍ لدى … أبنائِهِ ، إنَّ العقوقَ مُذَمَّمُ
ولطالما شِدْتَ القصورَ من المُنى … خابَ الرجاءُ وساءَ ما تتوهَّمُ
ألهَتْهُمُ الدُّنيا فهـذا بالطِّلى … صَبٌّ وهذا بالحسانِ مُتيَّمُ
والخزُّ فاتكةٌ فكيفَ بِناعِمٍ … تَرِفٍ يكادُ من النَّسائمِ يُسقَمُ
قد أصبحوا وقفاً على شهواتِهِمْ … يستسلمونَ لهـا ولا تَستَسْلِمُ

لم يفهموا معنى الحياةِ وكنهَا … انَّ البليّةَ أنهمْ لم يفهموا

فليُقلِعوا عن غيّهِمْ اني أرى … خَورَ الشيوخِ بهم ولما يَهرموا

قد قلّدوا الغربيَّ في آفـــاقِهِ … تقليدُهُ الشرقيُّ فيما يُعجِمُ

فتنتهمْ لُغةُ الأعاجمِ انمـا … لُغةُ الأعاجمِ منهم تتبرّمُ

أمسى الذي تُهدى اليه لآلىءٌ … وكأنما هوَ بالحجارةِ يُرجَمُ

لا تعذُلِ الشعراء ان بخلوا بِهِ … انَّ القريضَ على الغبيِّ مُحرَّمُ

بِتنا وباتَ الشرقُ يمشي القهقرى … مع ذاكَ نحسَبُ أننا نتقدّمُ

أيها القلم

ماذا جنيتَ عليهمْ، أيها القلمُ … واللهِ ما فيكَ الا النُصحُ والحِكَمُ

اني ليحزنني ان يسجنوكَ وهم … لولاكَ في الأرضِ لم تثبتْ لهم قدمُ

خلقتَ حراً كمَوجِ البحرِ مندفعاً … فما القيودُ وما الأصفادُ واللجمُ؟

ان يحبسوا الطائرَ المحكيَّ في قفصٍ … فليسَ يُحبَسُ منه الصوتُ والنَغَمُ

اللهُ في أمةٍ جارَ الزمانُ بها … يفنى الزمانُ ولا يفنى لها ألمُ

كأنمـا خصّها بالذُلّ بارئُها … أو أقسمَ الدهرُ لا يعلو لها عَلَمُ

مهضومةُ الحقِّ لا ذنبَ جنتْهُ سوى … أنَّ الحقوقَ لديها ليسَ تنهضم

مرّتْ عليها سنونٌ كلُّها نِقَمٌ … ما كانَ أسعدها لو أنها نِعَمُ؟

عدّوا شكايتها ظلماً وما ظلمتْ … وانما ظلموها بالذي زعموا

ما ضرّهمْ أنها باتتْ تُسائلُهُمْ … أينَ المواثيقُ، أينَ العهدُ والقسَمُ؟

أما كفى أنَّ في آذانهمْ صمماً … حتى أرادوا بأنْ ينتابها الصَمَمُ؟

كأنما سئموا أن لا يزالَ بها ... روحٌ على الدهرِ لم يظفرْ بها السأمُ

فقيّدوها لعلَّ القيدَ يُسكتها ... وعزَّ أن يسكتَ المظلومُ لو علموا

وأرهقوا الصحفَ والأقلامَ في زمنٍ ... يكادُ يعبدُ فيهِ الطرسُ والقلمُ

ان يمنعوا الصحفَ فينا بثَّ لوعتنا ... فكلُّنا صحفٌ في مصرَ ترتسمُ

إنّا لقومٌ لنـــا مجدٌ سنذكرُهُ ... ما دامَ فينا لسانٌ ناطقٌ وفمُ

كيفَ السبيلُ الى سلوانِ رفعتنا ... وهيَ التي تتمنّى بعضَها الأممُ ؟

يأبى لنا العزُّ أن نرضى المذلّةَ في ... عصرٍ رأينا بهِ العبدانَ تُحترمُ

للموتُ أجملُ من عَيْشٍ على مَضَضٍ ... انَّ الحياةَ بلا حريةٍ عَدَمُ

•

أنفس العشاق

بالأمسِ بادرني صديقٌ حائرٌ يستفهمُ

أجهنَّمٌ نارٌ ؟ كما زعمَ الهداةُ وعلّموا ؟

أم زمهريرٌ قارسٌ قاسٍ وكونٌ مظلمُ ؟

فأجبتهُ، ما الزمهريرُ وما اللظى المتضرمُ

بجهنمٍ ؟!.. لكننا أنْ لا نُحبَّ جهنمُ

يا صاحبي، إنَّ الخواءَ هو العذابُ الأعظمُ

ألقلبُ إلّا بالمحبـــةِ منزلٌ متردمُ

هيَ للجراحةِ مرهمٌ، هيَ للسعادةِ سلَّمٌ

هيَ في النجومِ تألقٌ، هيَ في الحياةِ ترنُّمٌ

هيَ أنفسُ العشاقِ في غَسَقِ الدُّجى تتبسمُ

•

عباد الذهب

ما ساء نفسي من الدنيا سوى نفرٍ ... لا خيرَ فيهمْ ولكنْ شرُّهم عَمَمْ

ماتتْ ضمائرُهمْ فيهم أنانيةً ... فليسَ تُنْشَرُ حتى تُنْشر الرِّمَمْ

ساءتْ خلائقُهمْ أو لا خلاقَ لهمْ ... إلا الشراهةُ والإيثارُ والتُّهَمُ

إذا رأوا صورةَ الدينارِ بارزةً ... خرّوا سجوداً إلى الأذقان كلُّهمُ

قد أقسموا أنهم لا يُشركونَ بهِ ... بئسَ الإلهُ وبئسَ القومُ والقَسَمُ

ابو غازي

أبو غازي السلامُ عليكَ منّا ... وعفواً أيُّهـا المَلِكُ الهمامُ

فما ضاقَ الكلامُ بنا، ولكنْ ... وَجدنا الحزنَ أرخصهُ الكلامُ

وخطبكَ لا يَفيهِ دَمعُ باكٍ ... ولو أنَّ الذي يَبكي الغمامُ

ونحنُ أحقُّ أنْ نُبكى ونُرثى ... فموتُكَ من بني العُرْبِ انتقامُ

خبا نبراسُنا، والليلُ داجٍ، ... وموجُ الحادثاتِ لهُ التطامُ

وكنتَ لنا الدليلَ، فغبتَ عنّا ... وكنتَ حسامَنا، فنبا الحُسامُ!

كأنّكَ قد وَتَرتَ الموتَ قِدْماً ... وهابكَ في كَتائِبكَ السهامُ

فدبَّ إليكَ مثلَ اللصِّ ليلاً ... وكانَ الموتُ ليسَ لهُ ذمامُ

طَوى الدنيا نعيُّكَ في ثوانٍ ... فريعَ البيتُ والبَلَدُ الحرامُ

و «دجلةُ» كالطعينِ لهُ أنينٌ ... وفي «بردى» التياعٌ واضطرامُ

ورحنا بين مَصْعوقٍ وساهٍ ... كَمَنْ صَرعَتْ عقولهمُ المدامُ

كأنَّ الأرضَ قد مادتْ وفُضّتْ ... عَنِ الموتى الصفائحُ والرجامُ

فَمَنْ للبيضِ والجردِ المذاكي؟ ... و «فيصلُ» باتَ يحويهِ الرَّغامُ

ومَنْ للحقِّ يَنشرهُ لواءً ... بـهِ للناسِ هديٌ واعتصامُ

توارى المجدُ في كفنٍ ولحدٍ ... وغابتْ في الترابِ منّى عظامُ
مَضى وحديثُهُ في الناسِ باقٍ ... كعمرِ الشمسِ ليسَ لهُ انصرامُ
فيا جدثاً حواهُ لستَ قبراً ... ولكنْ أنتَ في الدنيا وسامُ

***

حياتُكَ «يا أبا غازي» حياةٌ ... كفصلِ الصيفِ: زهرٌ وابتسامُ
وقد تُحصى الكواكبُ والأقا ... حي ولا تُحصى أياديكَ الجسامُ
مددتَ إلى مُنى العربِ الغوافي ... يداً، فتفتّقتْ عنها الكِمامُ
وأمسى بندهمْ ولَهُ خفوقٌ ... وأمسى عقدهمْ ولَهُ نظامُ
وكم أسقمتَ جسمَكَ كي يصحّوا ... وحالفتَ السهادَ وهمْ نيامُ
وكم جازيتَ عن شرٍّ بخيرٍ ... وكم جازاكَ بالغدرِ الأنامُ
خُذلتَ فما عتبتَ على صديقٍ ... ولم تحنقْ وقد كثُرَ الملامُ
وكم قد فزتَ في حربٍ وسلمٍ ... فلمْ يلعبْ بعطفيكَ الغرامُ
خلائقُ مَنْ لهُ عِرقٌ كريمٌ ... وخطةُ من لهُ قلبٌ عصامُ
خذوا الخُلُقَ الرفيعَ من الصحا ... رى، فإنَّ النفسَ يُفسدها الزحامُ
وكم فقدتْ جلالتَها قصورٌ ... ولم تفقدْ مروءتَها الخيامُ

***

وقالوا انهدَّ عرشُكَ في دمشقٍ ... كأنَّ العرشَ أخشابٌ تُقامُ

وكيفَ تهدُّ سدّتَكَ العوالي ... ولم يسلبْكَها الموتُ الزؤامُ؟
فما كانَ انتصارهمُ علاءً ... ولا كانَ انكساركَ فيهِ ذامُ
إذا لم تنصرِ الأرواحُ مُلكاً ... فأحسنُ ما حوى جثثٌ وهامُ
وما زالتْ لكَ الأرواحُ فيها ... وما زالتْ عشيرتُكَ الشآمُ
تصفّقُ لاسمِكَ الأمواهُ فيها ... ويهتفُ في خمائلِها الحمامُ
ويذكرُ أهلُها تلكَ السجايا ... فيشرقُ من تذكُّرِها الظلامُ
وليسَ أحبُّ من حرٍّ مؤاسٍ ... إلى شعبٍ يُساءُ ويُستضامُ

***

فقلْ للساخطينَ على الليالي ... ومَنْ سكنوا على يأسٍ وناموا
سينحسرُ الضبابُ عن الروابي ... ويبدو الوردُ فيها والخزامُ
ويصفو جوُّنا بعدَ انكدارٍ ... ويَسقي أرضَنا المطرُ الرِّهامُ
ونرجعُ أمةً تُرجى وتُخشى ... وإنْ كرهَ الرَّعاعُ والطَّغامُ

•

مصر والشآم

أطالَ الليلُ أم طالَ المقامُ … أم المحزونُ خامرهُ الهيامُ ؟

فباتَ يُصعّدُ الزفراتِ وجداً … وإمـا ناحَ أسعدَهُ الحَمامُ

تعوّدَ جسمُهُ الأسقامَ حتى … ليحذرُ أن يزايلَهُ السقامُ

وأغرى جفنَهُ بالسُّهدِ حتى … ليشفقُ أن يطيفَ به المنامُ

تجمّعتِ الهمومُ عليهِ تترى … كما اجتمعتْ على الماءِ السّوامُ

وأعوزَهُ على البلوى مُعينٌ … وأعوزَ ليلَهُ القمرُ التمامُ

فضاقَ فؤادُهُ بالهمّ ذرعاً … وضاقَ بهمّهِ وبهِ الظلامُ

كأنّ نجومَهُ أجفانُ باكٍ … كأنّ الليلَ صبٌّ مستهامُ

أبا الأقمارِ ما بي فهي مثلي … تحاولُ أن تنامَ فلا تنامُ

أبتْ إلا السكوتَ وبتُّ أشكو … وأنّى يصحبُ الوجدَ اكتتامُ ؟

فليسَ ينفعني منها سكوتٌ … وليسَ بنافعِ الشُّهْبَ الكلامُ

كأني قارىءٌ والليلُ سِفْرٌ … لَهُ بدءٌ وليسَ لَهُ ختامُ

كذاكَ الهمُّ أعسرُ ما تراهُ … إذا سكتَ الدُّجى وغفى الأنامُ

تحنُّ إلى بلادِ الشامِ نفسي … أقطرَ الشامِ حيّاكَ الغمامُ

وما غيرُ الشآمِ وساكنيهِ … لباناتنا وإنْ بَعُدَ الشآمُ

ولولا أن في مصرَ مُقامي … لَعَمْرُ أبيكَ ما طالَ المقامُ

مضى عامٌ عليَّ بأرضِ مصرٍ … وذا عامٌ ، وسوفَ يجيءُ عامُ

وما مصرُ التي ملكتْ فؤادي … ولكنْ أهلها قومٌ كرامُ

ودادُهمُ على الأيامِ باقٍ … وجـارهمُ عزيزٌ لا يُضامُ

ومن أخلاقهمْ لينُ الحيا … إذا انتسبتْ إلى اللينِ المُدامُ

وتبصرُ في صدورهمِ أناةً … إذا الأحلامُ طاحَ بها الخصامُ

أبتْ إلا عنادهمُ الليـالي … فما يئسوا الغداةَ ولا استناموا

يودُّ الطامعونَ بأرضِ مصرٍ … لو انهمُ بهـا أبداً أقاموا

فلا عَجَبٌ إذا خفروا ذماماً … شديدُ البطشِ ليسَ لهُ ذمامُ

نُلامُ على الكلامِ وقد أصبنا … وقد ضلّوا الصوابَ فلا يُلاموا

أقانوناً قيودهمُ تُسمَّى ... إذا قد انث الرجلَ اللئامُ
إلى مَ تُمنع الدستورَ مصرُ ... وقدْ كادتْ تفوزُ بهِ سِيامُ؟
بني مصرَ على الأحداثِ صبراً ... فقبلَ الصّحوِ يجتمعُ الغمامُ
ولا يلحق بكُمْ ضَجَرٌ فإني ... رأيتُ الظُّلمَ ليسَ لهُ دوامُ
فإنَّ الليلَ يعقبهُ صباحُ ... وإنَّ الحربَ آخرُها سلامُ



البلبل السجين

يا رُبَّ لَيلٍ بِلا سَناء
كأنّما بَدرُهُ يَتيمْ
مَشى بِهِ اليَأسُ في الرَّجاء
كأنّهُ النّارُ والهَشيمْ

•

لَيتَ الدُّجى رَقَّ للمُحِبِّ ... أوْ لَيتَ لي مُهجَةَ حَجَرْ
أقضَّ هذا الفِراشُ جَنبي ... كأنَّ في مَضجَعي الإبَرْ
هلْ بكَ يا نجمُ مثلُ كَرْبي؟ ... أم أنتَ منْ طَبْعِكَ السَّهَرْ؟

سَهِرتَ شَوقاً إلى ذُكاء؟
أمْ عِندَكَ المقعدُ المُقيمْ؟
أبكي وتَصغي إلى بُكائي
يارَبُّ! هلْ تعشَقُ النُّجومْ؟

•

قَدْ نَالَ فَرْطُ السُّهَادِ مِني ... وَاشْتَاقَ طَرْفِي إِلَى الْهُجُوعِ
وَقَرَّحَ الْجَفْنَ مَاءُ جَفْنِي ... فِي الْحُبِّ مَا فَاضَ مِنْ دُمُوعِي
وَشَابَ رَأْسِي مِنَ التَّجَنِّي ... يَا لَيْتَ ذَا الشَّيْبَ فِي الْوُلُوعِ

لَعَلَّ فِي سَلْوَتِي شِفَائِي
هَيْهَاتَ . دَاءُ الْهَوَى قَدِيمُ
مَا يَحْسَبُ النَّاسُ فِي رِدَائِي؟
فِي بُرْدَتِي هَيْكَلٌ رَمِيمٌ !

•

قَدْ طَالَ يَا لَيْلُ فِيكَ صَبْرِي ... وَأَشْبَهَتْ سَاعُكَ الْقُرُونَا
فَقُلْ لِهَذِي النُّجُومِ تَسْرِي ... أَوْ فَاسْأَلِ الصُّبْحَ أَنْ يَبِينَا
وَإِنْ تَشَأْ أَنْ تَكُونَ قَبْرِي ... فَكُنْ كَمَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَا

فِي سُكُونٌ إلى الْبَلَاءِ
قَدْ يَأْلَفُ الْعِلَّةَ السَّقِيمُ
مَنْ كَانَ فِي قَبْضَةِ الْهَوَاءِ
هَانَ عَلَى نَفْسِهِ النَّسِيمُ !

•

قَرَّبَ بَيْنَ الضَّنَى وَجِسْمِي ... مَا أَبْعَدَ النَّوْمَ عَنْ جُفُونِي

يَا لَيْلُ فِيكَ الرُّقَادُ خَصْمِي ... يَا لَيْلُ مَا فِيكَ مِنْ مُعِينِ
سِوَى شَجٍ هَمُّهُ كَهَمِّي ... يُنْشِدُ وَاللَّيْلُ فِي سُكُونٍ !

أَيَمْرَحُ الْبُومُ فِي الْخَلَاءِ
وَتُمْسِكُ الْبُلْبُلَ الْهُمُومُ؟
هَذَا ضَلَالٌ مِنَ الْقَضَاءِ
فَلَا تَلُمْنِي إِذَا أَلُومُ

•

يَا سَيِّدَ الْمُنْشِدِينَ طُرًّا ... وَصَاحِبَ الْمَنْطِقِ الْمُبِينِ
لَوْ كُنْتَ بُومًا أَوْ كُنْتَ نَسْرًا ... مَا بِتَّ فِي أَسْرِكَ الْمَهِينِ
خُلِقْتَ لَمَّا خُلِقْتَ، حُرًّا ... فَزَجَّكَ الْحُسْنُ فِي السُّجُونِ

وَأَطْلَقَ الْبُومَ فِي الْفَضَاءِ
زَعْمُ الْوَرَى أَنَّهُ دَمِيمُ
وَأَنَّهُ غَيْرُ ذِي رُوَاءِ
وَلَا لَهُ صَوْتُكَ الرَّخِيمُ !

•

يُمَلِّكَ الرَّوْضُ فِيهِ حَتَّى ... تَخِذْتَ بِاحَاتِهِ مَقَامَا
رَأَيْتَ فِيهِ النَّعِيمَ بَحْتًا ... وَلَمْ تَرَ عِنْدَهُ الْأَثَامَا

مدّوا الأحابيلَ فيه شتّى   أقلُّها يَجلبُ الحِمَامَا

لو كُنتَ كالبومِ في الجفاء
ما صادكَ المنظرُ الوسيمُ
أصبحتَ تبكي من الشقاء
ليضحكَ الآسرُ المضيمُ !

•

والمرءُ وحشٌ فإنْ ترقّى   أصبحَ شراً من الوحوشِ
فخفْهُ حرّاً وخفْهُ رِقّاً   وخفْهُ ملْكاً على العروشِ
فالشرُّ في النّاسِ كانَ خلقاً   وأيُّ طيرٍ بغيرِ ريشِ ؟

ما قامَ فيهمْ أخو وفاء
يحفظُ عهداً ولا رحيمُ
فكلُّ مستضعفٍ مُرائي
وكلُّ ذي قوّةٍ غشومُ !

•

إنْ كانَ للوحشِ من نيوبِ   فالنّاسُ أنيابُهمْ حديدُ
ما كانَ ، واللهِ ، للحروبِ   لولا بنو آدمٍ وجودُ
لو أمحى عالمُ الخطوبِ   لقامَ منهمْ لها مُعيدُ

قد نسبوا الظلمَ للسماء
وكلُّهمْ جائرٌ ظلومُ
لم يخلُ منهُ أخو الثراء
ولا الفتى البائسُ العديمُ

•

أعجبُ ما في بني الترابِ   قتالُهمْ فوقَهُ عليهِ
قد صيّروا الأرضَ كالكتابِ   وانحشروا بينَ دفّتيهِ
واستعجلوا الموتَ بالعذابِ   وكلُّهمْ صائرٌ إليهِ

ما خابَ داعٍ إلى العداء
ولمْ يفزْ ناصحٌ حكيمُ
ما رغبَ النّاسُ في الفناء
لكنّما ضاعتِ الحلومُ !![1]

•

لو لم يكُ الظلمُ في الطبائعْ   ما استنصرَ العاجزُ العدالهْ
لو عدلتْ فيهمُ الشرائعْ   ما استخدموا للقتالِ آلهْ
عجبتُ للقاتلِ المدافعْ   جزاؤهُ الموتُ لا محالهْ

---

(١) الحلوم : جمع مفرده الحلم – بكسر الحاء – وهو العقل .

لكنَّنا سافِكو الدماءْ
يومَ الوَغى قادةٌ قُرومُ
وَهكذا المجرمُ الفِدائي
في عُرْفِهِمْ فاتحٌ عظيمُ !

•

أقبحُ مِنْ هذهِ الضَّلالَهْ   أنْ يَحكُمَ الواحدُ الأُلوفا
ويدَّعي الفضلَ والنَّبالَهْ   مَنْ يَسلُبُ العامِلَ الرَّغيفا
يا قومُ ما هذهِ الجهالَهْ   قد حانَ أنْ تنصفوا الضَّعيفا

فَراقِبوا ذِمَّـةَ الإخاءْ
وَلْتَنْسَ أحقادَها الخُصومُ !
لا تَتْبَعوا سُنَّةَ البقاءْ
فإنَّهـا سُنَّةٌ ظَلومُ !

•

تلك المنازل

ألقاها في حفلة تكريم الاستاذ كمال جنبلاط .

تلك المنازلُ... كيفَ حالُ مُقيمِها   إنّا قنعنا بَعْدَها ... برسومِها
تمشي على صُوَرِ الطيورِ لِحاظُنا   نَشْوى، كَمَنْ يُصغي إلى ترنيمِها
ونكادُ نعشقُ في الأزاهيرِ الدمى   أزهارَها، ونحسُّ نَفْحَ شميمِها
نشتاقُها، في بؤسِنا ونعيمِنا   ونحبُّها، في بؤسِها ونعيمِها
لولا الخيالُ يعينُ أنفسَنا لمـا   سكنَتْ، ولم يهدأ صراخُ كلومِها
ولكانَ شهدُ الأرضِ في أفواهِنا   وهو اللذيذُ أمرُّ من زقّومِها
يا حاملاً في نفسِهِ وحديثِهِ   أحلامَ أرزتِها ولطفَ نسيمِها
حدِّثْ بنيها شيخَهُمْ وفتاهمو   عن لَيْثِ غابتِها وظَبْيِ صريمِها
خبِّرْهُمُ أنَّ الكواكبَ لم تزلْ   تحنو على العشّاقِ بينَ كرومِها
مـا زالَ بلبلُها يغنّي للربى   والسحرُ تنفثُهُ لواحظُ ريمِها
والريحُ تلتقطُ الشذى وتذيعُهُ   من شِيحِها طوراً ومن قيصومِها
وحسانُها يلبسنَ عسجدَ شمسِها   حيناً، وأحياناً لُجَيْنَ نجومِها

والفجرُ يرقصُ في السهولِ وفي الذُّرى … منهلاً فتهشُّ بَغْدَ وجورِهَا

إنْ بُدِّلَتْ منها التخومُ فإنها … ما بدلَتْ واللهِ غيرَ تخومِهَا
حدثهُمْ عن ليلِهَا ونجومِهَا … وعَنِ الهوى في ليلِهَا ونجومِهَا
وعَنِ الشطوطِ الحالماتِ بعَوْدَةٍ … للغائبينَ ، ورجعةٍ لنعيمِهَا
وعن الروابي الشاخصاتِ إلى السما … ألعالقاتِ رؤوسُها بغيومِهَا
فكأنها سُحُبٌ هوَتْ من حالقٍ … ورستْ على وجهِ الثَّرى بهمومِهَا
وعن الحياةِ جميلِهَا وقبيحِهَا ، … وعَنِ النفوسِ صحيحِهَا وسقيمِهَا
وعن الأُلى مَلَكوا فلمْ يتورَّعوا … عن سَلْبِ أعزلِهَا وظُلْمِ يتيمِهَا
وعن الثعابينِ التي في أرضِهَا ، … وعنِ الذئابِ العُصْلِ خَلْفَ تخومِهَا
ألجاهليةُ ، آهِ من أصنامِهَا … بوركتَ ، يا مَنْ جدَّ في تحطيمِهَا
والطائفيةُ أنتَ أوَّلُ مِعْوَلٍ … في سورِهَا ، ثابرْ على تهديمِهَا
حتى تعودَ وواحدٌ أقنومُهَا … ويحلُّ روحُ اللهِ في أقنومِهَا
قُلْ للشبيبةِ أن تبينَ وجودَهَا … وتُعِزَّ أنفسَهَا بِهَوْنِ جسومِهَا
كم ذا تشعُّ ولا تضيءُ علومُهَا … سُرُجُ الظلامِ إذنْ جليلُ علومِهَا
يا واحداً منها يحمّلُ نفسَهُ … آلامَ عانيهَا وليلَ سليمِهَا
إنْ أكرمتكَ نفوسُنا في ليلةٍ … فلكمْ قضيْتَ العمرَ في تكريمِهَا

تحية الدستور العثماني

إلى حيثُ ألقتْ يا زمانَ المظالمِ … ولا عُدْتَ يا عهدَ الشَّقا المتقادمِ
ذَهَبْتَ فلا باكٍ وأنى بَكَى العَمَى … كفيفٌ رأى الأضواءَ ملءَ العوالمِ ؟
وما عجبٌ أنْ ليسَ في القومِ نادبٌ … ولكنْ عجيبٌ أن أرى غيرَ باسمِ
نزلتَ على الشرقِ فانحطَّ شأنُهُ … وقدْ كانَ غضَّ الفخرِ غضَّ المكارمِ
فَفَرَّقْتَ حتى ليسَ غيرَ مُفرَّقٍ … وخاصمتَ حتى ليسَ غيرَ التخاصمِ
أقمتَ فخلَّى أهلَه وبلادَه … إلى كلِّ فجٍ من خصيبٍ وقاحمِ
نأى كاظماً للغَيْظِ خوفَ شماتةٍ … ولم يَطْلُبِ الإنصافَ خفيةَ لائمِ
ولو شاءَ لم يَخْتَرْ سوى الشرِّ مركباً … فَقَدْ كانتِ الأحقادُ ملءَ الحيازمِ
صحبناكَ لا خوفاً ثلاثينَ حجةً … ولكنها الدنيا وضعفُ العزائمِ
وما ذاكَ عن حبٍ فما فيكَ شيمةٌ … تُحَبُّ ولسنا من غواةِ المآثمِ
فكنتَ وكانَ الجهلُ أحسنَ خِلَّةٍ … لنا ونجاةُ الحقِ إحدى الغنائمِ
وكنتَ وما فينا فتى غيرُ نائمٍ … عليكَ ، ولا ذو سلطةٍ غيرِ غاشمِ
ثلاثونَ عاماً ونوائبُ فوقنا … مخيمةٌ مثلُ الغيومِ القواتمِ
فلا الظلمُ مرموقٌ ولا الحقُّ نافذٌ … ولا حرمةٌ تُرعى لغيرِ الدراهمِ

وما ثَمَّ غيرُ البغيِ والظلمِ والأذى | فقُبِّحتَ من عصرٍ كثيرِ السخائمِ

فاغربْ شقيتَ الدهرِ غيرَ مودَّعٍ | من القومِ إلّا بالظبى والصوارمِ

فواللهِ ما ترضى قيودَكَ أمَّةٌ | من الناسِ إلا أصبحتْ في البهائمِ

ويا أيها الدستورُ أهلاً ومرحباً | (على الطائرِ الميمونِ يا خيرَ قادمِ)

طلعتَ علينا كوكباً غيرَ آفلٍ | على حينِ أنَّ الشرقَ مقلةُ هائمِ

فقرَّتْ عيونٌ قبلُ كانتْ حسيرةً | وجادتْ سروراً بالدموعِ السواجمِ

وضجَّ الورى والشرقُ والغربُ ضجةً | أفاقَ لها مستيقظاً كلُّ نائمِ

أهبتَ فقرَّ الظلمُ بالأرضِ هارباً | ونكَّسَ خزياً رأسَهُ كلُّ ظالمِ

وفاضتْ على ثغرِ الحزينِ ابتسامةٌ | تخبرُ أنَّ الحزنَ ليسَ بدائمِ

وأطلقتِ الأقلامُ بعدَ اعتقالِها | فأسمعتِ الأكوانَ سجعَ الحمائمِ

ولم يَبْقَ عانٍ لم يُفكَّ إسارُهُ | ولم يَبْقَ جانٍ لم يَفُزْ بالمراحمِ

وكنا نرى الأحزانَ ضربةَ لازبٍ | فصرنا نرى الأفراحَ ضربةَ لازمِ

توهَّمَ قومٌ أنما الشرقَ واهمٌ | وأنكَ يا دستورُ أضغاثُ حالمِ

ورجَّمَ قومٌ أنما تلكَ خدعةٌ | فعذنا بربِّ الناسِ من كلِّ راجمِ

تجلَّيتَ فاسودتْ وجوهٌ وأسفرتْ | وجوهٌ، وأمسى غانماً كلُّ غارمِ

وما عدتَ حتى كادَ يشتجرُ القنا | لأجلِكَ والخطي أعدلُ حاكمِ

وأوشكَ أن يهتزَّ في كلِّ ساعدٍ | لكلِّ أبيٍّ كلُّ سيفٍ وصارمِ

لأبى الجيشُ إلا أن تكونَ مؤيداً | وتأبى سوى تأييدِ جيشٍ مسالمِ

فبوركتما من ساعدٍ ومهنَّدٍ | برغمِ خؤونٍ مارقٍ متشائمِ

ولا برحَ الأحرارُ يشدو بذكرهمْ | بنو الشرقِ فخراً في القرى والعواصمِ

رجالٌ لهمْ زيُّ الرجالِ وإنما | جسومهمُ فيها نفوسُ ضراغمِ

همُ قيَّدونا بالعوارفِ والندى | وهُمْ أطلقونا من عِقالِ المغارمِ

فلمْ يَبْقَ فينا حاكمٌ غيرُ عادلٍ | ولم يَبْقَ فينا عادلٌ غيرُ حاكمِ

فتنة ١٣ أبريل

بوركَ الصمصامُ من حَكَمِ — بينَ محكومٍ ومحتكِمِ
أنني بعتُ اليراعَ بهِ — لا أبيعُ السيفَ بالقلَمِ
صاحِ إنَّ العزَّ ممتنعٌ — نَيْلُهُ إلّا على الخذمِ
إنما الضرغامُ سوْدَدُهُ — نابُهُ المرهوبُ في البهمِ
لو يُسمّى السيفُ ثانيةً — باتَ يُدعى منقذَ الأممِ
فلهُ في الغربِ مأثرةٌ — مثلها في التُّركِ والعجمِ
ضيفَ سالونيكَ مالكَ في — سجنِها ضيفٌ سوى السأمِ
ذاكَ ضيفٌ غيرُ محتشمِ — إنْ تحاولْ طَرْدَهُ يقمِ
قد خلتْ يلديزُ منك وما — ذكرُها يُخليكَ من ألمِ
زلتَ عنها وهي باقيةٌ — عظةً للخلقِ كلِّهمِ
إن تكُنْ تبغي الرجوعَ لها — ذاكَ مقضيٌّ لدى الحلمِ
مرتعَ الغيدِ الأوانسِ بل — مربعَ الواشينَ والتهمِ
خبِّرينا إنْ فيكِ لنا — حكمةً تعلو على الحكمِ
خبِّرينا كيفَ عاقبةُ — البغي، هل كانتْ سوى ندمِ ؟

جرتَ (ياعبدَالحميدِ) بنا — غيرَ أنَّ الجورَ لم يدُمِ
كنتَ كالأيامِ ما قصدتْ — بالرزايا غيرَ ذي شممِ
ظلتَ تقري الحوتَ من جثثٍ — أوشكتْ تبليهِ بالتخمِ
نعمٌ للبحرِ تطرحُها — يا لها في البرِّ من نقمِ
ولكمْ حللتَ من حَرَمٍ — ولكم أفسدتَ من ذممِ ؟
لم تراعِ قطُّ ذا صِلَةٍ — لا ولم تشفقْ على رحمِ
راعكَ الدستورُ منتصراً — فأثرتَ الجندَ (بالعممِ)
كادَ يَلقى منك مصرعهُ — وهو لم يبلغ إلى الحلمِ
ربَّ ليلٍ بتَّ ترقبهُ — رقبةَ السرحانِ للغنمِ
ونهارٍ كدتَ فيه لهُ — غيرَ خاشٍ كيدَ منتقمِ
أحسبتَ القومَ قد غفِلوا — وَنَسُوا ما كانَ في القدمِ ؟
أم ظننتَ الشعبَ حنَّ إلى — إمرةِ الخصيانِ والخدمِ ؟
أم حسبتَ الجيشَ مبتعداً — وهو أدنى من يدٍ لِفَمِ ؟
لم يطقْ صبراً على مضضٍ — فأتى يسعى على قدمِ
عَلَمٌ من خلفِهِ علمٌ — وكميٌّ يقتفيهِ كمي
حاطَ يلديزا فكانَ لها — كسوارٍ غيرِ منفصمِ
ورأتْ عيناكَ غضبتهُ — فبكتْ خوفَ الردى بدمِ

شُلَّ منكَ التاجَ مهتضماً ... من يُعادِ الشعبَ يُهتضَمِ
بتْ لا جيشَ ولا علمُ ... يا صريعَ الجيشِ والعلمِ
وَفَشى ما كنتَ تضمرهُ ... فَعَرَفْنا ناقضَ القسمِ
كنتَ مسلوبَ الكرى حذراً ... ولقدْ أعطيتهُ فَنَمِ
وَدَعِ الدُّنيا وبهجتها ... ما أرى الحسناء للهرمِ
لستَ من طرسي ولا قلمي ... إن كَبا في حلبةٍ قلمي
قلْ لمن راموا مُساجلتي ... ليسَ غيري تاجرَ الكلمِ
يا رشادَ الملكِ تهنئةً ... بالذي أوتيتَ من نعمِ
إن تكُنْ ذاكَ السجينَ فيا ... ربَّ عانٍ غيرِ مُجترمِ
أنت كالصديقِ أسكنَهُ ... فضلُهُ في السجنِ من قدمِ
كُنْ لهذا الشعبِ يوسفَهُ ... يُنْجِهِ من عَدَمٍ ومن عَدَمِ
لستَ ترضى أن يقالَ كما ... دونَ شعبٍ هامَ بالصنمِ
أنت للشورى نعوِّذها ... بكَ من عاتٍ ومن نهمِ
فتقلَّدْ سيفَ جدِّكَ عَدْ ... نانَ جدِّ البيضِ والخذمِ
وتولَّ الملكَ من أممٍ ... وبحبلِ اللهِ فاعتصمِ
قد شفى مرآكَ مقلتهُ ... من عمىً ، والأذنَ من صممِ
دمتَ يا خيرَ الملوكِ له ... غيرَ ما همٍّ ولا سقمِ

صاحب القلم

أشقى البريّةِ نفساً صاحِبُ الهِمَمِ ... وأتعسُ الخلقِ حظاً صاحِبُ القلمِ
عافَ الزمانُ بني الدُّنيا وقيّدَهُ ... والطيرُ يُحبَسُ مِنها جيِّدُ النَّغَمِ
وحكّمتْ يدهُ الأقلامَ في دَمِهِ ... فلمْ تصنْهُ ولمْ يعدلْ إلى حَكَمِ
فيا لَهُ عاشِقاً طابَ الحِمامُ لَهُ ... إن المحبَّ لمجنونٌ فلا تَلُمِ
لِكلِّ ذي هِمّةٍ في دَهرِهِ أملٌ ... وكلُّ ذي أملٍ في الدَّهرِ ذو ألمِ
ويلُ اللّيالي لقدْ قلّدنَني قَرَباً ... أدنى إلى مُهجتي من مُهجةِ الخصمِ
ما حدّثتني نفسي أن أحطِّمَهُ ... إلّا خشيتُ على نفسي من النَّدمِ
فكلّما قلتُ زُهدي طاردٌ كلَفي ... رَجَعتُ والوَجدُ فيهِ طاردٌ سأمي
يأبى الشَّقاءُ الذي يدعونَهُ أدباً ... أنْ يضحكَ الطِّرسُ إلّا إنْ سَفكتُ دمي
لقدْ صَحِبتُ شَبابي واليراعَ معاً ... أودى شَبابي ... فهل أبقى على قَلَمِ
كأنّما الشعراتُ البيضُ طالعةً ... في مَفرِقي ، أنجمٌ أشرقنَ في الظُّلَمِ
تضاحكَ الشَّيبُ في رأسي فعرَّضَ بي ... نو الشَّيبِ عندَ الغواني موضعَ التُّهَمِ
فكلُّ بَيضاءَ عِندَ الغيدِ قاحِمةٌ ... وكلُّ بيضاءَ عِندي ثغرُ مُبتَسِمِ

قلْ للتي ضَحِكَتْ من لِمَّتي عَجَباً   هلْ كانَ ثَمَّ شَبابٌ غيرَ مُنصَرِمِ

أصبَحتُ أنحلَ مِن طَيفٍ ، وأحيرَ مِن
نَسيفٍ ، وأسهرَ مِنْ راعٍ عَلى غَنَمِ

ولَيلةٍ بِتُّ أجني من كَواكِبِها   عِقداً كأنّي أنالُ الشُّهبَ مِنْ أَمَمِ

لا ذاقَ جَفني الكَرى حتّى تَنالَ يَدي
ما لا يَفوزُ بهِ غَيري مِنَ الحُلُمِ

لَيسَ الوُقوفُ على الأطلالِ مِن خُلُقي
ولا البُكاءُ على ما فاتَ مِنْ شِيَمي

لكنْ (مِصراً) ، ومَا نفسي بناسِيَةٍ   مليكةَ الشرقِ ذاتَ النيلِ والهَرَمِ

صَرَفتُ شَطرَ الصِّبا فيها فَمَا خَشيتْ   نفسي العِثارَ ، ولا نَفسي مِنَ الوَصَمِ

في فِتيةٍ كالنُّجومِ الزُّهرِ أوجُهُهُمْ   ما فيهمُ غيرُ مَطبوعٍ عَلى الكَرَمِ

لا يَقبِضونَ مَعَ اللأواءِ أيديَهُمْ   وقَلَّما جادَ ذو وَفرٍ معَ الأزَمِ

حَسبي من الوَجدِ هَمٌّ مَا يخامِرُني   إلّا وأشرَقَني بالبارِدِ الشَّبِمِ

في ذِمَّةِ الغَربِ مُشتاقٌ يُنازِعُهُ   شوقٌ إلى مَهبِطِ الآياتِ والحِكَمِ

مَا تَغرُبُ الشمسُ إلّا أدمُعي شَفَقٌ   تَنسى العُيونُ لديهِ حُمرةَ العَنَمِ

ومَا سَرَتْ نَسَماتٌ نحوَهَا سَحَراً   إلّا وَدِدتُ لوَ انّي كُنتُ في النَّسَمِ

مَا حالُ تِلكَ المغاني بَعدَ عاشِقِها   فإنّني بَعدَها لِلهَمِّ والسَّقَمِ

جِلّقُ الكِنانةِ عَنّي وابِلٌ غَدِقٌ   وإن يكُ النيلُ يُغنيها عَنِ الدِّيَمِ

الشرقُ تاجٌ ، ومِصرٌ منهُ دُرَّتُهُ   والشرقُ جيشٌ ، ومِصرٌ حامِلُ العَلَمِ

هَيهاتَ تَطرِفُ فيها عَينُ زائِرِها   بِغَيرِ ذي أدَبٍ أو غَيرِ ذي شَمَمِ

أحنى عَلَى الحُرِّ من أُمٍّ على وَلَدٍ   فالحُرُّ في مِصرَ كالوَرقاءِ في الحَرَمِ

مَا زِلتُ والدَّهرُ تَنبو عَن يَدي يَدُهُ
حَتّى نَبَتْ ضِلَّةً عن أرضِها قَدَمي

أصبَحتُ في مَعشَرٍ تَقذى العُيونُ بِهِمْ
شَرٍّ مِنَ الدّاءِ في الأحشاءِ والتُّخَمِ

مَا عَزَّ قَدرُ الأديبِ الحُرِّ بَينَهُمُ   إلّا كما عَزَّ قَدرُ الحيِّ في الرِّمَمِ

مِنْ كُلِّ فَظٍّ يُريكَ القِردَ مُحتَشِماً   ويَضحَكُ القِردُ مِنهُ غَيرَ مُحتَشِمِ

إذا بَصُرتَ بهِ لا فاتَهُ كَدَرٌ   رأيتَ أسمَجَ خَلقِ اللهِ كُلِّهِمِ

مِنَ الأعارِبِ لكنْ حينَ أُنشِدُهُ   جواهِرَ الشِّعرِ ألقاهُ مِنَ العَجَمِ

مَا إنْ تُحَرِّكُهُ هَمّاً ولا طَرَباً   كأنّما أنا أتلوهَا عَلى صَنَمِ

لا عَيبَ في مَنطِقي لكِنْ بهِ صَمَمٌ
إنَّ الصَّوادِحَ خُرسٌ عِندَ ذي الصَّمَمِ

حَجَبتُ عَنْ كلِّ مَعدومِ النُّهى دُرَري
إنّي أضِنُّ عَلى الأنعامِ بالنِّعَمِ

قَومٌ أرى الجَهلَ فيهِمْ لا يَزالُ فَتًى
في عُنفُوانِ الصِّبا والعِلمُ كالهَرِمِ

نقد

سكتَ خوفاً وقلتَ الصفحَ من خُلقي ... ونمتَ جبناً وقلتَ الحلمُ من شِيَمي

وإنما أنتَ والأقوامُ قد علموا ... لولا خمولكَ لم تسكتْ ولم تنمِ

لم تمتنعْ أنفةً لكنْ قدِ امتنعتْ ... عليكَ أشباهُ ما قد صاغهُ قلمي

حاولتَ وجدانَ عيبٍ لي فكنتَ كمَنْ ... يحاولُ الماءَ في البركانِ ذي الضرَمِ

فقلتُ للقومِ فيما قلتَ تخدعهمْ ... لقد هجاني وبعضُ الهجوِ كالوَصَمِ

ألذمُّ عارٌ ولكنْ ذمُّ ذي كرَمٍ ... والحمدُ للهِ لم تَذمُمْ أخا كرَمِ

سأحبسنَّ لساني عنكَ عن شَمَمٍ ... وحرمةً لأُهَيلِ الودِّ والذِمَمِ

قومٌ لعَمْرِ أبي لو كانَ سفكُ دمي ... ولا مغالاةَ يُرضيهمْ سفكتُ دمي

إني أُجلُّهمْ عن أنْ يغيرهمْ ... كلامُ ذي حسَدٍ أو قولُ مُتَّهِمِ

ما العجزُ أقعدني لما كففتُ يدي ... لكنْ لأجلهمِ نهنهتُ من كَلِمي

ولو أشاءُ ملأتُ الأرضَ قاطبةً ... قوافياً وأفضاءَ الرَّحبِ بالحِكَمِ

ولستُ أعجبُ أن لم تشتكِ ألماً ... إنَّ الجماداتِ لا تشكو من الألَمِ

ثقيل

وثقيلٍ كأنهُ بردُ كانو ... نِ قليلَ الحياءِ جمُّ الكلامِ

ليسَ يدري بأنهُ ليسَ يدري ... إنَّ بعضَ الأنامِ كالأنعامِ

يتمنى، يا بُعْدَ ما يتمنّى ... لو جرى ذكرُهُ على الأقلامِ

والذي أطمعَ اللئيمَ وأغراهُ ... بِسَبِّ الكرامِ حلمُ الكرامِ

والذي صيَّرَ الكريمَ حليماً ... كرهُهُ أن يُعَدَّ صِنوَ الطَّغامِ

مَنَعَ البومَ أن يُصادَ ويُرمى ... كونُهُ غيرَ صالحٍ للطعامِ

بين مد وجزر

ألقاها في حفلة تكريم صديقه الشاعر جورج صيدح عندما زار نيويورك .

سِرْتُ في فجرِ الحياةِ سفينتي   واخترتُ «قلبي» أنْ يكونَ إمامي

فَجَرَتْ على الأمواجِ قصراً من رُؤى   ملءَ الفضا ، ملءَ المدى المترامي

وأقلَّ منها البحرُ حينَ أقلّها   دنيا من الأضواءِ والأنغامِ

ومشى الخيالُ على الحياةِ بسحرهِ   فإذا الهوى في الماءِ والأنسامِ

وإذا الرمـــالُ أزاهرٌ فوّاحةٌ   والشطُّ هيكلُ شاعرٍ رسّامِ

وإذا العبابُ ملاعبٌ ومراقصٌ   وإذا أنا من صبوةٍ لغرامِ

ألتقفُ اللذّاتِ غيرَ محـــاذرٍ   وأعبُّ في الزلّاتِ والآثامِ

لا أكتفي وأخافُ أنّي أكتفي   فكأنّما في الاكتفاءِ حِمامي

وكأنَّ هديي أن تطول ضلالتي   وكأنَّ ربّي أنْ يدومَ أوامي

مرّتْ بيَ الأعوامُ تتلو بعضها   وأنا كأنّي لستُ في الأعوامِ

كالموجِ ضحكي ، كالضياء ترنّحي ،   كالفجرِ زهوي ، كالخضمّ غرامي

حتى إذا هتفَ المشيبُ بلمّتي   ودنتْ يدُ الماحي إلى أحلامي

صَرَخَ «الحجى» بي ساخطاً متهكماً :   «هذا الغِنى شرٌّ من الإعدامِ»

«أسلَمْتَني للقلبِ وهو مضلِّلٌ   فأضرّني وأضرَّكَ استسلامي»

«يا صاحبي أطلقني من سجنِ الرؤى   أنا تائهٌ ! أنا جائعٌ ! أنا ظامي !»

وأرادَ «عقلي» أن يقودَ سفينتي   للشطِّ في بحرِ الحياةِ الطامي

فطويتُ أعلامَ الهوى وهجرتُها   ونسيتُ حتى أنّها أعلامي !

وحسبتُ آلامي انتهت لمّا انتهى   فـــإذا النهايةُ أعظمُ الآلامِ

وإذا الطريقُ مخاوفٌ ووساوسٌ   وإذا أنا من هَبْوةٍ لقتـــامِ

أبغي الثراء ولم يكنْ من مطلبي ،   وأرى الجمالَ بناظرٍ متعامِ

وأشيدُ مثلَ الناسِ مجداً زائفاً   وأشدُّ حولَ الروحِ ثوبَ رغامِ

فإذا أنا ، والأرضُ ملكي والسما ،   قد صرتُ عبدَ الناسِ ، عبدَ حطامي

فتضايقَ القلبُ السجينُ وقالَ لي :   «يا أيُّها الجاني قتلتَ هيامي !»

«ألفقرُ بالأحلامِ روضٌ ضاحكٌ ... فإذا تلاشتْ فالرياضُ موامي»
«أينَ العيونُ تذيبني حركاتُها ... وتموتُ في سكناتها آلامي»
«وأطلُّ من أهدابها السكرى على ... ظلٍّ، وأنداءٍ، وزهرٍ نامِ»
«لمّا عصاني أنْ أشبَّ ضرامَها ... أعيا عليها أنْ تشبَّ ضرامي»
«ألخمرُ ملءُ الجامِ لكنْ قد مضى ... شوقي إلى الخمرِ التي في الجامِ»
«أسلمتني «للعقلِ» وهو مُضلِّلٌ ... فأضرّني وأضرَّكَ استسلامي»
«أنظرْ، ألستَ تراكَ في أوهامِهِ ... أشقى وأتعسَ منكَ في أوهامي؟»
«ألمالُ! من ذا يشتريهِ كلَّهُ ... منّي بليلِ صبابةٍ وغرامِ؟»
«يا صاحبي أطلقني من سِجنِ النهى ... أنا تائهٌ! أنا جائعٌ! أنا ظامي»

***

لا تسألوني اليومَ عن قيثارتي ... قيثارتي خشبٌ بلا أنغامِ!
يا شاعراً غنّى فردَّ ليَ الصِّبا ... فـإذا مواكبهُ تسيرُ أمامي
إنّا التقينا في الشبابِ وفي الهوى ... في حومتينِ — الشعرِ والالهامِ
وسنلتقي وإنِ افترقنا في غدٍ ... في حبِّ لبنانٍ وحبِّ الشامِ

وسنلتقي روحي وروحك بعدما ... تفنى الهياكلُ في الإلهِ السامي
أهلاً بذي الأدبِ الصراحِ المصطفى، ... بالفـــاتحِ الروحيِّ، بالمقدامِ
بالشاعرِ الغرّيدِ في ألحـــانِهِ ... عبقُ الربيعِ ونضرةُ الأكمامِ
هو إنْ ذكرتَ الشعرَ من أمرائِهِ ... وإذا ذكرتَ المجدَ فهوَ عصامي

•

أنا امام الذين هاموا

لُمْني اذا حلتُ عن عهودي   ولا تلمني على هيامي

ما كنتُ أخشى مِنَ المنايا   فكيفَ أخشى من الملامِ ؟

قد نَزَلَ الحبُّ في فؤادي   ضيفاً ، ولكنْ على الدّوامِ

فباتَ قلبي لهُ طعاماً   وَبِتُّ أنأى عن الطّعامِ

أعدى غرامي النجومَ حتى   أسهرها في الدُّجى غرامي

لو تعرفُ الشمسُ ما الهوى لم   تَبِنْ لِطَرْفٍ من السّقامِ

أصابَ سهمُ الفراقِ قلبي   وأخطأتْ قلبَهُ سهامي

وكانَ خوفي من التنائي   خوفَ كفيفٍ من (الترامِ)

إن فراقَ الحبيبِ عندي   أشدُّ وقعاً من الحِمامِ

لو يبعدُ البعدُ عن حبيبي   ما عنّ يوماً لمستهامِ

أنا إمامُ الذينَ هاموا   وأيُّ قومٍ بلا إمامِ

فليسَ قبلي وليسَ بعدي   ولا ورائي ولا أمامي

•

ابتسم

قالَ : « السماءُ كئيبةٌ ! » وتجهّما   قلتُ: ابتسمْ يكفي التجهُّمُ في السما!

قالَ: الصِّبا ولّى ! فقلتُ له : ابتسمْ   لن يُرجعَ الأسفُ الصِّبا المتصرِّما!

قالَ : التي كانتْ سمائي في الهوى   صارتْ لنفسي في الغرامِ جهنَّما

خانتْ عهودي بعدما ملَّكتها   قلبي ، فكيفَ أطيقُ أن أتبسَّما ؟

قلتُ : ابتسمْ واطربْ فلو قارنتها   قضَّيتَ عمركَ كلَّه متألِّما !

قالَ : التِّجارةُ في صراعٍ هائلٍ   مثلُ المسافرِ كادَ يقتلهُ الظما

أو غادةٍ مسلولةٍ محتاجةٍ   لدمٍ ، وتنفثُ ، كلما لهثتْ ، دما !

قلتُ : ابتسمْ ما أنتَ جالبَ دائها   وشفائها ، فإذا ابتسمتَ فربّما ...

أيكونُ غيرُكَ مجرماً ، وتبيتُ في   وجلٍ كأنكَ أنتَ صرتَ المجرما؟

***

قالَ: العدى حولي عَلَتْ صيحاتُهمْ   أَأُسَرُّ والأعداءُ حولي في الحمى ؟

قلتُ : ابتسمْ ، لم يطلبوكَ بذمّهمْ   لو لم تَكُنْ منهمْ أجلَّ وأعظما !

***

قالَ: المواسمُ قد بدَتْ أعلامُها ... وتعرَّضتْ لي في الملابسِ والدُّمى
وعليَّ للأحبابِ فرضٌ لازمٌ ... لكنَّ كفّي ليسَ تملكُ درهما
قلتُ: ابتسمْ، يكفيكَ أنّكَ لم تزلْ ... حيّاً، ولستَ من الأحبّةِ مُعدَما!

***

قالَ: الليالي جرَّعتني علقماً ... قلتُ: ابتسمْ ولئنْ جرعتَ العلقما
فلعلَّ غيركَ إنْ رآكَ مرنّماً ... طرحَ الكآبةَ جانباً وترنّما
أتُراكَ تغنمُ بالتبرُّمِ درهماً ... أم أنتَ تخسرُ بالبشاشةِ مغنما؟
يا صاحِ، لا خطرٌ على شفتيكَ أن ... تتثلّما، والوجهِ أن يتحطّما
فاضحكْ فإنّ الشهْبَ تضحكُ والدجى ... متلاطمٌ، ولذا نحبُّ الأنجما!
قالَ: البشاشةُ ليس تُسعدُ كائناً ... يأتي إلى الدنيا ويذهبُ مرغما
قلتُ: ابتسمْ ما دامَ بينكَ والردى ... شبرٌ، فإنّكَ بعدُ لنْ تتبسّما!

كن بلسماً

القصيدة التي ألقاها صاحب الديوان في المأدبة الكبرى التي أقامتها الطائفة الارثوذكسية على شرف المندوب البطريركي المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي في بروكلن – نيويورك.

كن بلسماً إن صارَ دهرُكَ أرقما ... وحلاوةً إن صارَ غيرُكَ علقما
إنّ الحياةَ حبتكَ كلَّ كنوزِها ... لا تبخلنَّ على الحياةِ ببعضِ ما...
أحسنْ وإنْ لم تُجزَ حتى بالثنا ... أيَّ الجزاءِ الغيثُ يبغي إنْ همى؟
مَنْ ذا يكافىء زهرةً فوّاحةً؟ ... أو مَنْ يثيبُ البلبلَ المترنّما؟
عُدَّ الكرامَ المحسنينَ وقِسْهُمُ ... بهما تجدْ هذينِ منهمْ أكرما
يا صاحِ خُذْ عِلمَ المحبّةِ عنهما ... إنّي وجدتُ الحبَّ علماً قيّما
لو لم تَفُحْ هذي، وهذا ما شدا، ... عاشتْ مذمّمةً وعاشَ مذمّما
فاعمَلْ لإسعادِ السّوى وهنائِهمْ ... إنْ شئتَ تسعدَ في الحياةِ وتنعما

***

أيقظْ شعورَكَ بالمحبةِ إنْ غفا ... لولا الشعورُ الناسُ كانوا كالدمى
أحبِبْ فيغدو الكوخُ كوناً نيّراً ... وابغُضْ فيمسي الكونُ سجناً مظلما
ما الكأسُ لولا الخمرُ غيرُ زجاجةٍ ... والمرءُ لولا الحبُّ إلا أعظُما
كرةُ الدجى فاسودَّ إلا شهبُهُ ... بقيتْ لتضحكَ منه كيفَ تجهَّما
لو تعشقُ البيداءُ أصبحَ رملُها ... زهراً ، وصارَ سرابُها الخدّاعُ ما
لو لم يكنْ في الأرضِ إلا مبغضٌ ... لتبرَّمتْ بوجودِهِ وتبرَّما
لاحَ الجمالُ لذي نُهى فأحبهُ ... ورآهُ ذو جهلٍ فظنَّ ورجَّما
لا تطلبنَّ محبةً من جاهلٍ ... ألمرءُ ليسَ يُحَبُّ حتى يُفهما
وارفُقْ بأبناءِ الغباءِ كأنهمْ ... مرضى ، فإنَّ الجهلَ شيءٌ كالعمى
والهُ بوَرْدِ الروضِ عن أشواكهِ ... وانسَ العقاربَ إنْ رأيتَ الأنجما

* * *

يا منْ أتانا بالسلامِ مبشراً ... هشَّ الحمى لما دخلتَ إلى الحمى
وصفوكَ بالتقوى وقالوا جهبذٌ ... علّامةٌ ، ولقد وجدتُكَ مثلما
لفظٌ أرقُّ من النسيمِ إذا سَرَى ... سَحَراً ، وحلوٌ كالكرى إن هوَّما
وإذا نطقتَ ففي الجوارحِ نشوةٌ ... هي نشوةُ الروحِ ارتوتْ بعدَ الظما
وإذا كتبتَ ففي الطروسِ حدائقٌ ... وشّى حواشيها اليراعُ ونمنما
وإذا وقفتَ على المنابرِ أوشكتْ ... أخشابُها للزهوِ أنْ تتكلما

إن كنتَ قد أعطاكَ سربالَ الغِنى ... عاشَ ابنُ مريمَ ليسَ يملكُ درهما
وأحبَّ حتى من أحبَّ هلاكَهُ ... وأعانَ حتى مَنْ أساءَ وأجرما
نامَ الرعاةُ عن الخرافِ ولم تنمْ ... فبالِكَ تشكو الهاجعينَ النوَّما
عبدوا الإلهَ لمغنمٍ يرجونهُ ... وعبدتَ ربَّكَ لستَ تطلبُ مغنما
كم روَّعوا بجهنمٍ أرواحَنا ... فتألمتْ من قبلُ أن تتألما !
زعموا الإلهَ أعدَّهـا لعذابنا ... حاشا ، وربُّكَ رحمةٌ ، أن يَظلما
ما كانَ من أمرِ الورى أن يرحموا ... أعداءهمْ إلّا أرقَّ وأرحما
ليستْ جهنمُ غيرَ فكرةِ تاجرٍ ... اللهُ لم يَخلُقْ لنا إلّا السما



الى صديق

مَا عَزَّ مَن لَم يَصحبِ الخَذِمَا   فَاحطِمْ دَواتَكَ، واكسرِ القَلَمَا(1)
وارحَمْ صِباكَ الغضَّ، إنَّهُمْ   لا يَحفِلُونَ وتَحمِلُ الألَمَا
كَمْ ذا تُناديهِمْ وَقَدْ هَجَعُوا   أحسِبْتَ أنّكَ تُسمِعُ الرِّمَمَا
مـا قَامَ في آذانِهِمْ صَمَمٌ   وكأنَّ في آذانِهِمْ صَمَمَا
القَومُ حَاجتُهمْ إلى هِمَمٍ   أو أنتَ مِمَّنْ يَخلقُ الهِمَمَا ؟
تَاللهِ لو كُنتَ «ابنَ سَاعِدَة»   أدَباً «وحاتمَ طيءٍ» كَرَما
وبَذذْتَ «جالينوسَ» حِكمَتَهُ   والعِلمِ «رِسطَالِيسَ» والشِّيَمَا
وسَبقتَ «كولمبوسَ» مكتشِفاً   وشأوتَ «آديسونَ» مُعتزِمَا
فسَلبتَ هذا البَحرَ لُؤلُؤَهُ   وحَبوتَهُمْ إيّاهُ مُنتَظِمَا
وكَشفتَ أسرارَ الوُجودِ لهُمْ   وجَعلتَ كلَّ مُبعَّدٍ أَمَمـا
مَا كُنتَ فِيهِمْ غيرَ مُتَّهَمٍ   إنّي وَجَدتُ الحُرَّ مُتَّهَمَا
هَانُوا على الدُّنيا فلا نِعَماً   عَرفَتْهمُ الدُّنيا ولا نِقَمَا

(1) الخذم : السيف القاطع .

فَكأنَّما في غَيرِها خُلِقوا   وكأنَّما قد آثَروا العَدَمـا
أو ما تراهُمْ، كُلَّما انتَسبوا   نَصَلُوا فلا عُرْباً ولا عَجَمَا
لَيسُوا ذَوي خَطَرٍ وقَدْ زَعَمُوا   والغَربُ ذو خَطَرٍ وما زَعَمَا
مُتَخاذِلِينَ عَلى جَهَالَتِهِمْ   إنَّ القَويَّ يَهُونُ مُنقَسِمَا
فالبَحرُ يَعظُمُ وهوَ مُجتَمِعٌ   وتَراهُ أهوَنَ مَـا يُرَى دِيَمَا
والسُّورُ مَا يَنفكُّ مُمتَنِعاً   فإذا يُناكَرُ بَعضُهُ انهَدَمَا
والشّعبُ لَيسَ بناهِضٍ أبداً   مَا دَامَ فِيهِ الخُلفُ مُحتَكِمَا
يَا لِلأديبِ ومَـا يُكابِدُهُ   في أمَّةٍ لا تُشبِهُ الأُمَمـا
إنْ بَاحَ لم تَسلَمْ كَرامَتُهُ   والإثمُ كلُّ الإثمِ إن كَتَمَا
يَبكي فتَضحكُ مِنهُ لاهِيَةً   والجَهلُ إن يَبكِ الحِجَى ابتَسَمَا
جَاءتْ وَمَا شَعَرَ الوُجُودُ بِهَا   ولَسوفَ تَمضي وهوَ مَا عَلِمَا
سَارَ الشُّعوبُ إلى العُلَى عَنَقاً   ووَنَتْ فَلَمْ تَنقُلْ لَها قَدَمَا(1)
مَا أحدَثَتْ في الدَّهرِ طَارِقَةً   تَبقَى، ولَيسَ تَليدُها عَلَمَا
ضَعُفَتْ فلا عَجَبٌ إذا اهتُضِمَتْ   اللّيثُ، لولا بأسُهُ، اهتُضِمَا
فلقَدْ رأيتُ الكَونَ، سُنّتُهُ   كالبَحرِ يأكلُ حُوتُهُ البَلَمَا(2)

(1) العنق : السير السريع .

(2) البلم : السمك الصغير .

لا يَرحمُ المِقدامُ ذا خَوَرٍ	أو يَرحمُ الضِّرغامةُ الغَنَما ؟

***

يا صاحِبي ، وهواكَ يجذبُني	حتّى لأحسبُ بينَنا رَحِما
مـا ضرَّنا ، والودُّ مُلتئِمٌ	أنْ لا يكونَ الشملُ مُلتئِما
النّاسُ تَقرأُ مـا تُسطِّرُهُ	حِبراً ، ويقرأُهُ أخوكَ دَما
فاستبقِ نفساً ، غيرَ مُرجِعِها	عَضُّ الأناملِ بعدَها ندَما
ما أنتَ مُبدِلُهُم خلائِقَهُمْ	حتّى تكونَ الأرضُ وهي سَما
زارتكَ لم تَهتِكْ معانيَها	غرّاءُ يهتِكُ نورُها الظُّلَما
سَبقتْ يدي فيها هَواجِسَهُم	ونطقتُ لمّا استصحَبوا البَكَما
فـإذا تُقاسُ إلى روائِعِهِم	كانتْ روائعُهُم لها خَدَما
كالرّاحِ لمْ أرَ قبلَ سامِعِها	سَكرانَ، جدَّ السُّكرِ، مُحتشِما
يَخِدُ القِفارَ بها أخو لَجَبٍ	ينسى القِفارَ الأينُقَ الرُّسُما
أقبَسْتُهُ شَوقي فأضلُعُهُ	كأضالِعي مملوءةٌ ضَرَما
إنّ الكواكبَ في منازِلِها	لو شِئتُ لاستنزلتُها كَلِما

بلادي

تركتَ النجمَ مِثلَكَ مُستهاما	فإنْ تَنهُ سَها أو نِمتَ ناما
بنفسِكَ لوعةٌ لو في الغوادي	لصارتْ كلُّ ماطرةٍ جَهاما
وفيكَ صَبابةٌ لو في جَمـادٍ	لأشبهَ دمعَكَ الجاري انسجاما
هوىً بكَ في العِظامِ لهُ دَبيبٌ	أشابَكَ وهوَ لم يبرحْ غُلاما
يظنُّ الليلُ يحوي فيكَ شخصاً	وما يحوي الدُّجى إلّا عِظاما
نفيتَ الغمضَ عن جفنيكَ يأتي	كأنّكَ واصِلٌ فيهِ المَلامـا
أتأرقُ ثمّ ترجو الطيفَ يأتي	شكاكَ الطيفُ لو ملكَ الكلاما
شجتكَ النائحاتُ بِجُنحِ ليلٍ	فَبِتَّ تُساجِلُ النَّوحَ الحَماما
لكدتَ تُعلِّمُ الطيرَ القوافي	وكدتَ تُعلِّمُ الليلَ الغَراما
إذا ذكرَ الشآمَ بكيتَ وجداً	ومـا تنفكُّ تذكرُ الشآما
وكنتَ سلوتَهُ إلّا قليلاً	وكنتَ هجرتَهُ إلّا لِماما

***

رُويدَكَ أيُّها اللاحي رُويداً	لكَ الويلاتُ ليسَ سِواكَ لاما

أأرقُدُ والخطوبُ تطوفُ حولي ... وأقعُدُ بعدما الثقلانِ قاما

ويشقى موطني وأنامُ عنهُ ... إذاً من يدفعُ الخطرَ الجساما؟

بلادي! لا عرا شرٌّ بلادي ... ولا بلغَ العدى منها مراما

لبستُ الليلَ إشفاقاً عليها ... وإنْ شاءتْ لبستُ لها القتاما

وقفتُ لها اليراعَ أذبُّ عنها ... فإنْ يكهمْ وقفتُ لها الحساما

سقى قطرَ الشآمِ القطرُ عني ... وحيّا أهلَهُ الصيدَ الكراما

دوتْ صيحاتُهم في كلِّ صقعٍ ... فكادتْ تنشرُ الموتى الرماما

وتطبعُ في المحيّا الجهمِ بشراً ... وتغلقُ في فمِ الثكلى ابتساما

تحوّلتِ القنوطَ إلى رجاءٍ ... وصيّرتِ الونى فينا اعتزاما

غدونا كلّما ذكروا طربنا ... كأنَّ بنا المعتّقةَ المداما

ولمْ أرَ كالضميرِ الحرِّ فخراً ... ولمْ أرَ كالضميرِ العبدِ ذاما

إذا غابَ الذليلُ النفسِ عني ... نظرتُ إلى الذي حملَ الوساما

إذا جلبَ الكلامُ عليَّ عاراً ... هجرتُ النطقَ أحسبُهُ حراما

وأجفو القصرَ يلزمني هواناً ... وأهوى العزَّ يلزمني الحماما

***

رجالَ التركِ ما نبغي انتقاضاً ... لعمرُكمُ ولا نبغي انتقاما

ولكنّا نطالبكمْ بحقٍّ ... ونكرهُ مَنْ يريدُ لنا اهتضاما

حملْنا نيرَ ظلمِكمُ قروناً ... فأبلاها وأبلانا ودامَا

رعيتمْ أرضَنا فتركتموها ... إذا وقعَ الجرادُ رعى الرغاما

فباتَ الذئبُ يشكوكمْ عواءً ... وباتَ الظبيُ يشكوكمْ بغاما

جريتمْ (بالهلالِ) إلى محاقٍ ... ولولا جهلُكمْ بلغَ التماما

وكنتمْ كلّما زدنا ليانا ... لننشرَ عوزَكمْ زدتمْ عراما

فما راقبتمُ فينا جواراً ... ولا حفظتْ لنا يدُكمْ ذماما

أثرتمْ بيننا الأحقادَ حتى ... ليقتلُ بعضُنا بعضاً خصاما

وشاءَ اللهُ كيدَكمُ فبتنا ... كمثلِ الماءِ والخمرِ التئاما

فمهلاً تبعثونَ الرسلَ فينا ... تديفُ لنا معَ الأري السماما

سنرمقهم إذا طلعوا علينا ... كأنّا نرمقُ الداءَ العقاما

فإنْ عرى مددناها وثاقاً ... نموتُ ولا نطيقُ لها انفصاما

نخفُ التركيَّ يحلفُ بالمثاني ... ونخفهُ كلّما صلّى وصاما

ومنْ يستنزلِ الأتراكَ خيراً ... كمنْ يستقبسُ الماءَ الضراما

همُ نزعوا لواءَ الملكِ منّا ... ونازعنا طغامُهمُ الطغاما

وقالوا: نحنُ للإسلامِ سورٌ ... وإنَّ بنا الخلافةَ (والإماما)

فهلْ في دينِ أحمدَ أنْ يجوروا ... وهلْ في دينِ أحمدَ أنْ نضاما؟

إلى كمْ يحصرونَ الحكمَ فيهمْ ... وكمْ ذا يبتغونَ بنا احتكاما.

أَلَسنا نَحنُ أكثرَهمْ رِجالاً ... إذا عُدّوا وأرفعَهمْ مُقاما

إذا طلعتْ ذُكاءُ فليسَ تخفى ... ولوْ حاكُوا الظلامَ لها لِثاما

***

تخوّفنا المُثقّفةَ العـــوالي ... لقدْ هدّدتَ بالجمرِ النَّعاما

سنُوقدُها تعيرُ الشمسَ ناراً ... ويَبغي أمرُها الجيشَ اللُّهاما

وعِلْمُ المرءِ أنَّ الموتَ آتٍ ... يُهوّنُ عِندَهُ الموتَ الزُّؤاما



الضفادع والنجوم

صاحت الضفدعُ لما شاهدتْ ... حولها في الماء أظلالَ النجومْ

يا رفاقي ! يا جنودي ! احتشدوا ... عَبَرَ الأعداءُ في الليلِ التخومْ

فاطردوهمْ ، واطردوا الليل معاً ... إنـــه مثلهمْ باغٍ أثيمْ

زعقةٌ سارَ صداها في الدجى ... فإذا الشطُّ شخوصٌ وحسومْ

في أديمِ المـــاءِ، مِنْ أصواتها ... رعدةُ الحمى، وفي الليلِ وجومْ

. . .

مزّقَ الفجرُ جلابيبَ الدُّجى ... ومحا من صفحةِ الأرضِ الرسومْ

فَمشتْ في سربها مختـــالةً ... كمليكٍ ظـــافرٍ بينَ قرومْ

ثم قالت : لَكُمُ البُشرى ولي ... قد نجونا الآنَ من كيدٍ عظيمْ

نحنُ لوْ لَمْ نقهرِ الشُّهبَ التي ... هاجمَتْنا لأذاقتنا الحتومْ

وأقامتْ بعدنا من أرضنا ... في نعيمٍ لم تجدهُ في الغيومْ !

أيها التاريخُ سجّلْ أننـــا ... أمةٌ قد غلبَتْ حتى النجومْ !

كمنجة الشوا

كمنجةَ «الشوا» عليكِ السلامْ   بهيكلِ الوَحيِ وعَرشِ الغرامْ

فيكِ التقتْ أرواحُ أهلِ الهوى   نجوى وشكوى وبكا وابتسامْ

وأودعتْ فيكِ الصِّبا هَمسَها   وخبَّأَ الأسرارَ فيكِ الظلامْ

وذابَ فيكِ الحبُّ ذَوْبَ الندى   في مبسمِ الوردِ وجفنِ الخزامْ

رُدّي إلينا اليومَ دنيا الرؤى   فإننا نشقى بدنيـا الحطامْ

أجنحةُ الأشواقِ مقصوصةٌ   أو موثقاتٌ، والأماني رِمامْ

قَدِ انقضى العمرُ وأرواحُنا   مفطومةٌ بالحرصِ، بئسَ الفِطامْ

تنأى عن الحسنِ وتشتاقهُ   ونهجرُ الماءَ ونشكو الأُوامْ

ويبعثُ الحقلُ إلينا الشّذى   ونحنُ لا ننشقُ إلّا الرّغامْ

نسيرُ والأضواءُ من حولنـا   كأنّنا في هَبوةٍ أو قَتـامْ

والمـاءُ يجري حولنا كوثرًا   ونحنُ نستقي السحابَ الجَهامْ

ونسهرُ الليلَ لغيرِ الهوى   ما تنفعُ اليقظةُ والقلبُ نامْ ؟

حتى نسينَا كيفَ لونُ الضحى   ولم نعدْ نذكرُ سجعَ الحمامْ

خيرٌ من اليَقظةِ عندي الكَرى   إنْ كانتِ الغبطةُ بنتَ المنامْ

خِلْنا الهوى ترجعُ أيّامهُ   لم يرجعِ الحبُّ ولا المالُ دامْ

فيا فتى «الشهباء»، يا شاعراً،   قد رَفعَ الفنَّ لأسمى مُقـامْ

رَجعتَ بالسحرِ وكانَ انطوى   وجئتنا بالوحيِ في غيرِ جامْ

هذا عصيرُ الوحيِ في آلةٍ   خرساءَ يجري فِتناً للأنامْ

فإنْ تجِدْنا حولها عُكّفاً   فالمنهلُ العذبُ كثيرُ الزحامْ

فدغدغِ الأوتارَ لا تكترثْ   أنْ تذهبَ الفتنةُ بالاحتشامْ

سعادةُ الأنفسِ في نَشوةٍ   من صورةٍ أو نغمٍ أو مدامْ

وقلْ لمن يحذرُ أنْ يشتكي   ويحبسُ الدمعَ لئلّا يُـلامْ

إسمعْ فهذا وترٌ نائـحٌ   وانظرْ فهذا خشبٌ مستهامْ

***

نيويوركُ ! ياذاتَ البروجِ التي   سَمتْ وطالتْ كي تمسَّ الغمامْ

لنْ تبلغي واللهِ بابَ السما   إلّا بأوتارِ كنارِ الشآمْ

فاصغي إلى ألحـانهِ لحظةً   تحتقري كلَّ صنوفِ الكلامْ

وتدركي أنَّ قصورَ المنى   تبقى وتنهدُّ قصورُ الرّجامْ

فرحي مَعْنا بـهِ واهتفي :   هذا أميرُ الفنِّ، هذا الإمامْ !

الشاعر والكأس

بات والكأسُ في الظلامْ　　في حديثٍ ولا كلام

هيَ في صمتِها تضيء،　　وهوَ في صمتِه يُضام

شاعرٌ أنفق الصِّبا　　من غرامٍ إلى غرام

ذاهلُ النفسِ بالرؤى　　عن حطامٍ وذي حطام

وعَن الفقرِ والغنى،　　وعَن الحربِ والسلام

بالشفاهِ التي طفا　　بينَ أهدابِها الأُوام

بالغواني تطيعهُ　　والغواني لها احتكام

بالشذى وهو فائحٌ،　　والشذى وهو بالكِمام

بالسحابِ الذي يسحُّ　　وبالخادعِ الجَهام

بالأغاريدِ، والبلابلِ،　　والنورِ، والخُزام

حولهُ الكونُ في وغًى　　وهو والكونُ في وئام

***

ما لهُ الآنَ وحدهُ　　ساكنُ العِرقِ كالنيام

ساهرٌ غيرَ أنهُ　　خادرُ الروحِ والعِظام

صامتٌ مثلَ كُتْبِهِ　　وَكَدُنيا بلا أنام

أترى عضّهُ الطوى؟　　لا، ففي بيتِهِ طعام

لم تزلْ كأسُهُ لديهِ　　وفي كأسِهِ مُدام

ولَهُ تضحكُ البروقُ　　ويبكي الحيا السجام

ولَهُ ترتعي الكواكبُ　　في مسرحِ الظلام

ولهُ تلبسُ الرُّبى　　بُرْدَ النورِ والغمام

ولهُ يعبقُ الشذى،　　ولهُ تُعصرُ المُدام

ولهُ يلمعُ النّدى،　　ولهُ يسجعُ الحمام

ولهُ الغادةُ المليحةُ　　والفارسُ الهمام

كلّها، كلُّها لهُ　　وعلى غيرِهِ حَرام

وهوَ ساهٍ كأنما　　بسواها لهُ مرام

وجهُهُ غيرُ وجههِ!　　أمْ على وجهِهِ لثام

كالتماثيلِ حولَهُ　　منْ نحاسٍ ومن رخام

لا اكتئابٌ ولا رضى　　لا بكاءٌ ولا ابتسام

ليلةٌ ما أمرَّها　　ليلةُ اليأسِ ألفُ عام

بقيَ الحسنُ إنما　　ماتَ في الشاعرِ الهيام

فإذا الكونُ عندَهُ　　جَدَثٌ كلُّه رِمام

أفاتحة أم ختام

قالها في رثاء الاسقف عمانوئيل أبو حطب

ما وَعَظَ الإنسانَ مثلُ الحِمامْ … فليتَّعظْ بالصَّمتِ أهلُ الكلامْ

أفصحُ مِنْ كلِّ فصيحٍ بنا … هذا الذي أعياهُ ردُّ السلامْ

إنّي أراهُ وهوَ في صَمْتِهِ … أروعَ من جيشٍ كبيرٍ لُهامْ

نامتْ جُفونٌ سهرتْ للعُلى … من قبلِ أنْ ينجابَ جنحُ الظلامْ

وسَكَنَ الوثّابُ في صدرهِ … من قَبلِ أنْ يدركَ كلَّ المرامْ

يا لهفةَ القومِ على كوكبٍ … لاحَ قليلاً واختفى في الغَمامْ

ولهفةَ الدِّينِ على سيّدٍ … كان يرجّى في الخطوبِ الجسامْ

وصاحبٍ قد كانَ في صحبهِ … كالروضِ فيهِ أرَجٌ وابتسامْ

ما غابَ عنّا وكأنّي بهِ … يَفصِلُهُ عن صحبهِ ألفُ عامْ

مَنِ الذي يُطفِئُ من بعدهِ … في المُهَجِ الحرّى ذكيَّ الضرامْ؟

مَنِ الذي يمسحُ دمعَ الأسى … وماسحُ الأدمعِ تحتَ الرغامْ؟

يا نائماً مستغرقاً في الكرَى … خطبُكَ قد أقلقَ حتى النيامْ

خبّرْ، فإنَّ القومَ في حيرةٍ … هل الرّدى فاتحةٌ أمْ خِتامْ

وهلْ صحيحٌ أنَّ كلَّ المنى … يطحنُها صِرفُ الرّدى كالعظامْ؟

وهلْ حقيقٌ أنَّ أهلَ العلى … والفضلِ بعدَ الموتِ مثلُ الطغامْ؟

أمْ بعد هذا يقظةٌ حلوةٌ … يَنسى بها المرءُ الشقا والسُّقامْ؟

ويصبحُ النابهُ في مأمنٍ … من عنَتِ المالِ وعَيْثِ الحسامْ؟

وتستوي الحالاتُ في حالةٍ … لا حيفَ فيها، لا أذى، لا انتقامْ؟

خبّرْ، وحدِّثْ، كلُّنا حائرٌ … ذو الجهلِ منّا والأريبُ الهمامْ

لأيّما أمرٍ يَعيشُ الورَى؟ … لأيّما أمرٍ يموتُ الأنامْ؟

وأينَ دارٌ ليسَ فيها شقَا … إنْ لم تكنْ هاتيكَ دارَ السلامْ؟

نمْ آمناً، فالمرءُ بعد الردى … كالفكرِ، لا يُزرى بهِ، لا يُضامْ

أمة تفنى وأنتم تلعبون

أعلى عيني من الدمع غشاء
أم على الشمس حجاب من غمام
غاض نور الطرف أم غارت ذكاء
لست أدري غير أني في ظلام

•

ما لنفسي لا تبالي الطربا / أين ذاك الزهو، أين الكلف؟
عجباً ماذا دهاها عجباً / فهي لا تشكو ولا تستعطف
ليتها ما عرفت ذاك النبا / فالسعيد العيش من لا يعرف

لا ابتسام العيد، لا رقص الطلاء
يتصباها ولا شدو الحمام
بالكرى عني وبي عنه جفاء
أنا وحدي ... أم كذا كل الأنام؟

•

لا أرى لي من همومي مهربا / فهي في هذا وذياك الطريق
في الربى فوق الربى تحت الربى / في الفضاء الرحب، في الروض الأنيق
في اهتزاز الغصن في نفح الصبا / في انسجام الغيث في لمح البروق

كلما أومض برق أو أضاء
بت أشكو في الدجى وقع السهام
في ابتسام الفجر للمرضى شفاء
وابتسام الفجر فيه لي سقام

•

تعتريني هزة كالكهربا / كلما حن مشوق لمشوق
علمت عيني السهاد الكوكبا / وفؤادي علم البرق الخفوق
ما دعوت الدمع إلا انسكبا / يا دموعي أنت لي أوفى صديق

لم أر كاليأس يغري بالبكاء
لا ولا كالدمع يشفي المستهام
فاستعينوا بالبكا يا تعساء
كلما اشتدت بكم نار الهيام

•

خلت قلبي بالأسى منفردا / وأنا وحدي صريع المحن

وتوهمتُ الأمنى لن يجدا سكناً في غير قلبي المثخنِ
وظننتُ الدهرَ مهما حقدا سوف لا يفجعني في وطني

فإذا تلك المعاني في شقاء
وإذا كلُّ فؤادٍ في ضرام
ذهبت كلُّ ظنوني في الهواء
وتولت مثلَ أضغاثِ المنام

•

لا تلمني إن أنا لمتُ القضا ولِمِ الدهرَ الذي أخنى عليّ
لم تدع فيَّ الليالي غرضا والضنى لم يبقِ مني غيرَ فيّ
لا تسلني: أيُّ خطبٍ عرضا في الحشا وجدٌ وفي المقولِ عِيّ

فلّ غربي سالبُ السيفِ المضاء
والشذى الزهرةَ والعقدَ النظام
وإذا ما غلبَ اليأسُ الرجاء
هانتِ الشكوى ولم يجدِ الكلام

•

صرتُ لكن مثلما شاء الكمدْ شاعراً من مقلتي أرتجلُ
صدّ ما كانَ بنفسي عنهُ صدّ وتجافاني الكلامُ المرسلُ

عقدَ الحزنُ لساني فانعقد أيُّ سيفٍ ما اعتراهُ الفللُ ؟

بي همومٌ كلما لاحَ الضياء
ضربتْ فوقَ عيوني بلثام
وشجونٌ كلما جنَّ المساء
قطعتْ بينَ جفوني والمنام

•

لا أرى غيرَ خيالاتٍ تسيرْ مطبقاتٍ عن يساري واليمين
فوقَ أرضٍ من دماءٍ وسعيرْ في فضاءٍ من همومٍ وشجون
عجباً ... أينَ ابتسامات الثغورْ ما لقومي كلهم باكٍ حزين

كلُّ ما أسمعُ نوحٌ وبكاء
كلُّ ما أبصرُ صرعى ورمام
زلزلت زلزالها هذي السماء
أم ترى فضّت عن الموتى الرجام

•

وقعَ الأمرُ الذي لا يُدفعُ وجنى الجاني على تلكَ الربوعْ
واحتواها نهمٌ لا يشبعُ فاحتوى سكانَها خوفٌ وجوعْ
فهي إمّا دمنةٌ أو بلقعُ وهمُ إمّا قتيلٌ أو صريعْ

إن شكت قالت على الدنيا العفاء
أو شكوا قالوا على الناس السلام
عبث الإنسان فيها والقضاء
آه من جور الليالي والطغام

•

رُبَّ طفلٍ طاهرٍ ما أثما — مات موتَ الآثم المجترمِ
كان ممن يُرتجى لو سلما — للعلى لكنه لم يسلمِ
كوكبٌ ما كاد يبدو في السما — طالعاً حتى اختفى كالحُلُمِ

غاض مثلَ الماء في الأرض العراء
ما جهلتُ البدرَ مثواه الرغام
هكذا أودت به ريح الشتاء
زهرةٌ لم تتفتح عنها الكمام

•

رُبَّ شيخٍ أقعدته الحادثات — ومشى «الأبيض» في لِمَّتِهِ
وثناه الضعفُ عن حمل القناة — وعن السابق في حلبتِهِ
كان من قبل حلول الكارثات — آمناً كالنسر في وُكنتِهِ

لاهياً يذكر أيام الصباء

ولياليه وفي الثغر ابتسام
حكم العاتي عليه بالفناء
وأبى المقدور إلا أن يضام

•

وفتى كالغصن ريان نضير — تحلمُ الخودُ به إذ تحلمُ
وتراه للهوى بين البدور — فتراه فوقهن الأنجمُ
ألمعيُّ الذهن والقلب الكبير — ملكٌ في بردتيه ضيغمُ

بات لا يقوى على حمل الرداء
منكباه وهو في العشرين عام
ما به عجزٌ ولا داءٌ عياء
غير أن الجوع قد هدَّ العظام

•

وصغارٍ مثل أفراخ القطا — يتضاغون من الجوع الشديد
وهنت أعصابهم لما سطا — والطوى يوهن عزمات الأسود
أرأيت العقد إمّا انفرطا — هكذا دمعهم فوق الخدود

زهقت أرواحهم في شكل ماء
للأسى، لله ما أقسى الحمام

يا رعى الله نفوس الشهداء

وسقى أجداثهم صوب الغمام

•

أيها الجالون عن ذاك الحمى / إنّ في ذاك الحمى ما تعلمون

ضيم في أحرارهِ واهتضما / ووقفتم من بعيدٍ تنظرون

لا ، ومن شاء لنا أن ننعما / ما كذا يجزي الأبَ البرَّ البنون

كلكم يا قوم في البلوى سواء

لا أرى في الرزء لبنانا وشام

في ربى لبنان قومي الأصفياء

وبأرض الشام أحبابي الكرام

•

الليالي غاديات رائحة / بالدواهي وأراكم تضحكون

ما اتعظتم بالسنين البارحة / لا ولا أنتم غداً متعظون

يا لهول الخطب ! .. يا للفادحة / أمة تفنى وأنتم تلعبون

فادفنوا أضغانكم يا زعماء

يبعث الله من القبر الوئام

وابسطوا أيديكم يا أغنياء

أبغض الشحّ إلى الصادي الجهام !

صوت من سورية

صوت سوريا الجميلة / صوتك العذب الرخيم

ضاحك مثل الخميلة / لاعب مثل النسيم

*

يا أخا الورقاء غنّ / فالغنا شعر السماء

فهو في الغصن تثنٍّ / وهو في النجم سناء

صوت سوريا الجميلة

صوتك العذب الرخيم

ضاحك مثل الخميلة

لاعب مثل النسيم

*

غنّنا حتى نميلا / مثل أغصان الأراك

كم بنا صبّاً عليلا / لا يداويه سواك ؟

صوت سوريا الجميلة

صوتك العذب الرخيم

ضاحِكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثلُ النسيمْ

*

أيها المحزونُ هيا   واسمعِ اليومَ الكنارْ
ساجعاً سجعاً شجيا   ذاكراً تلكَ الديارْ
صوتُ سوريا الجميلهْ
صوتُكِ العَذْبُ الرخيمْ
ضاحِكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثـــلُ النسيمْ

*

ليتنا كنا طيورا   حولَ عينٍ أو غديرْ
نرشفُ المـــاءَ نميرا   نلقطُ الحبَّ النثيرْ
صوتُ سوريا الجميلهْ
صوتُكِ العَذْبُ الرخيمْ
ضاحكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثـــلُ النسيمْ

*

موطنٌ نهوى سهولَهْ   مثلمـــا نهوى رباهْ
الصَّبـــا فيه عليلَهْ   تتداوى بنداهْ

*

كم بدا البدرُ ضحوكا   راقصاً فوقَ الكرومْ
واستوى الليلُ مليكا   لابساً تاجَ النجومْ
صوتُ سوريا الجميلهْ
صوتُكِ العَذْبُ الرخيمْ
ضاحِكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثـــلُ النسيمْ

•

البدر الآفل

بكى بها شقيقه المغفور له طانيوس
ظاهر أبي ماضي وقد مات شاباً

أبعدَكَ يَعْرِفُ الصبرَ الحزينُ ... وقد طاحتْ بهجتِهِ المنونُ ؟
رَمَتْكَ يدُ الزمانِ بشرِّ سَهْمٍ ... فلما أن قضيتَ بكى الخَؤونُ
رماكَ وأنتَ حبةُ كلِّ قلبٍ ... شريفٍ ، فالقلوبُ له رَهينُ
ولم يَكُ للزمانِ عليكَ ثأرٌ ... ولم يَكُ في خلالِكَ ما يَشينُ
ولكنْ كنتَ ذا خُلُقٍ رضيٍّ ... على خُلُقٍ لغيرِكَ لا يكونُ
وكنتَ تحيطُ علماً بالخفايا ... وتمنعُ أن تحيطَ بكَ الظنونُ
كأنكَ قد قتلتَ الدهرَ بحثاً ... فعندَكَ سرُّهُ الخافي مُبينُ
حكَيْتَ البدرَ في عمرٍ ولكنْ ... ذكاؤكَ لا تكوِّنُهُ قرونُ
عجيبٌ أن تعيشَ بنا الأماني ... وأنّا للأماني نستكينُ
ومــا أرواحنا إلّا أسارى ... ومــا أجسادنا إلّا سُجونُ
وما في الكونِ مثلُ الكونِ فانٍ ... كما تَفنى الديارُ كذا القَطينُ
لقد عَلِقَتْكَ أسبابُ المنــايا ... وفياً لا يُخانُ ولا يَخونُ

أيدري النعشُ أيَّ فتى يُواري ... وهذا القبرُ أيَّ فتى يَصونُ؟
فتى جُمِعَتْ ضروبُ الحُسْنِ فيهِ ... وكانتْ فيهِ للحُسنى فنونُ
فبعضُ صفاتِهِ ليثٌ وبدرٌ ... وبعضُ خـــلالِهِ شَمَمٌ ولينُ
أماراتُ الشبابِ عليهِ تبدو ... وفي أثوابِهِ كَهْلٌ رزينُ
ألا لا يَشمتِ الأعداءُ منا ... فكلُّ فتى بمصرعهِ رَهينُ

. . .

أيا نورَ العيونِ بَعُدْتَ عنا ... ولمـــا تمتلئْ منكَ العيونُ
وعاجلَكَ الحِمامُ فـلم تُوَدِّعْ ... وبِنْتَ ولم يودِّعْكَ القرينُ
وما عِفْتَ الوداعَ قِلًى ولكنْ ... أردتَ ولم يُرِدْ دهرٌ ضَنينُ
فيا لَهفي لأمِّكَ حينَ يَدْوي ... نعيُّكَ بعدَ ما طالَ السكونُ
ولَهْفَ شقيقِكَ النائي بعيداً ... إذا مـــا جاءهُ الخبرُ اليقينُ
ستبكيكَ الكواكبُ في الدياجي ... كما تبكيكَ في الروضِ الغصونُ
ويبكي أخوةٌ قد غِبتَ عنهمْ ... وأمٌّ ثاكلٌ وأبٌ حزينُ
فما تندى لنــا أبداً ضلوعٌ ... عليكَ ، وما تجفُّ لنا شؤونُ
قدِ ازدانتْ بكَ الفتيانُ طفلاً ... كما يزدانُ بالتــاجِ الجبينُ
ذَهَبْتَ بزينةِ الدنيا جميعاً ... فما في الدهرِ بعدَكَ ما يَزينُ
وكنتَ لنا الرجاءَ فلا رجاءٌ ... وكنتَ لنا المعينَ فلا مُعينُ

أبعدكَ ، يا أخي ، أبغي عزاءً — إذا شُلّتْ يَساري واليمينُ ؟
يهونُ الرزءُ إلّا عندَ مِثلي — بمثلِكَ فهو رزءٌ لا يَهونُ
عليكَ تُقطِّعُ الحَسراتُ نفسي — وفيكَ أطاعني الدّمعُ الحرونُ
فملءُ جوانحي حزنٌ مُذيبٌ — وملءُ محاجري دَمعٌ سخينُ
وما أبقى المصابُ على فؤادي — فأزعمُ أنّـهُ دامٍ طَعينُ
يذودُ الدمعُ عَنْ عَيْني كَرَاها — وتأبى أن تفارقَهُ الجفونُ
لقد طالَ السُّهادُ وطالَ ليلي — فلا أدري الرُّقادَ متى يكونُ
كأنّ الصبحَ قد لَبِسَ الدَّياجي — عليكَ أسىً لفقدِكَ ما يبينُ
جزاكَ اللهُ عنّا كلَّ خيرٍ — وجادَ ضريحَكَ الغيثُ الهتونُ

يا جارتي

قالَتْ لجارتِها يوماً تُسائلُها — عنّي، وفي طَرفِها الوَسْنانِ أشجانُ
ما بالُ هذا الفتى في الدّارِ مُعتزلاً — كما تَوحّدَ نُسّاكٌ ورُهبانُ
يأتي المساءُ عَلَيهِ وهو مُكتئبٌ — ويَرجِعُ اللّيلُ عَنهُ وَهو حيرانُ
يَمرُّ بالقُربِ مِنّا لا يُكلِّمُنا — وللحَديثِ مَجالٌ، وهو مِلسانُ
وإن نُكلِّمْهُ لا يَفقهْ مَقالَتَنا — إلّا كما يَفقهُ التّسبيحَ سَكرانُ
إذا تَبسّمَ ، لا تَبدو نَواجِذُهُ — وإنْ بَكى ، فلَهُ نَزْعٌ وإرنانُ
كأنّما نِيطَت الدّنيا بعاتِقِهِ — كأنّما كلُّ عُضوٍ فيهِ بُركانُ
فلا ابتِسامُ ذواتِ الغَنجِ يُطرِبُهُ — ولا ابنةُ الحانِ تُصبيهِ ولا الحانُ
أمالَهُ أمَلٌ حُـلوٌ يَلَذُّ بِهِ — كما تَلَذُّ بمرأى النّورِ أجفانُ
أمالَهُ جيرةٌ في الأرضِ يألَفُهُم — يا جارَتي، كانَ لي أهلٌ وجيرانُ
فبَتَّتِ الحربُ ما بَيني وَبَينَهُمُ — كما تُقطِّعُ أمراسٌ وخيطانُ
فاليومَ كلُّ الّذي في مُهجَتي ألَمٌ — وكلُّ ما حولَهُمْ بؤسٌ وأحزانُ
وكانَ لي أمَلٌ إذ كانَ لي وطَنٌ — فيهِ لِنفسي لُباناتٌ وخِلّانُ
فجَرّدَتْهُ اللّيالي مِن محاسِنِهِ — كما يُعرّى منَ الأشجارِ بُستانُ

فَلا المغاني التي أشتاقُ رُؤيَتَها   تلكَ المَغاني، وَلا السُّكّانَ سُكّانُ

لَوِ المُروءةُ تَدري أيَّ فاجعةٍ   بالشّام، ناحَ عليها الإنسُ وَالجانُّ

وَلو يَبِثُّ بَنو لُبنانَ لوعَتَهُم   لاهتزَّتِ الأرضُ لَمّا اهتزَّ لُبنانُ

قالَت: شَكَوتَ الّذي بالخَلقِ كُلِّهِم

وَمــا كَذَبتُكَ إنَّ الحَربَ طُوفانُ

تَساوتِ النّاسُ في البَلوى، فَقُلتُ لَها

هَيهاتَ، مــا هانَ قَومٌ مِثلَما هانوا

أمَنْ يَموتُ وَلا سِترٌ يُظَلِّلُهُ   كَمَنْ عَلَيهِ أكاليلٌ وَتيجانُ؟

قالَت، وَيا وَيحَ نَفسي مِنْ مَقالَتِها

كَفكِفْ دُموعَكَ، بَعضُ الحُزنِ أهوانُ

لَو كانَ قَومُكَ أهلاً للحَياةِ لما   ماتوا وَفي أرضِهِم تُركٌ وَألمانُ

وَكُلُّ مَن لا يَرى في الذُّلِّ مَنقَصَةً   لا يَستَحِقُّ بأنْ يَبكيهِ إنسانُ

كُفّي مَلامَكِ يا حَسناءُ وَاتَّئِدي   فإنَّ مَدحَ ذَوي العُدوانِ عُدوانُ

وَأنتِ مِن أُمَّةٍ تأبى خَلائِقُها   أنْ يَقتُلَ الطَّيرَ في الأقفاصِ سَجّانُ

وَإنَّ قَومي طُيورٌ غَيرُ كاسِرَةٍ   سَطَتْ عَلَيها شَواهينٌ وَعُقبانُ

لا تَحسَبي أنّي أبكي لِمَصرَعِهِمْ   فَكُلُّنا لِلرَّدى شِيبٌ وَشُبّانُ

لكِنْ بَكَيتُ مِنَ الباغي يُعَذِّبُهُم   وَهُم شُيوخٌ وَأطفالٌ وَنِسوانُ

وَرُحتُ أشكو إلَيها وَهيَ ساهِيَةٌ   لكِنَّما قَلبُها الخَفّاقُ يَقظانُ

حَتّى انتَهَيتُ فَصاحَتْ وَهيَ مُجهِشَةٌ   يا لَيتَ ما قُلتَهُ زورٌ وَبُهتانُ

بَلْ لَيتَني لَم أُسائِلْ عَنكَ جارَتَنا   بَلْ لَيتَ قَلبيَ إذْ ساءَلتَ صَوّانُ

يا لَيتَ شِعري وَهذي الحَربُ قائِمَةٌ   هَلْ تَنجَلي وَلَنا في الشّامِ إخوانُ؟

وَهَلْ تَعودُ إلى لُبنانَ بَهجَتُهُ   وَهَل أعودُ وَفي لُبنانَ نَيسانُ؟

فأسمَعَ الطَّيرَ تَشدو في خَمائِلِهِ   وَأُبصِرَ الحَقلَ فيهِ الشّيحُ وَالبانُ؟

بَني بِلادي، وَلا أدعو بَخيلَكُمُ   غَيرُ البَخيلِ لَهُ قَلبٌ وَوِجدانُ

بَني بِلادي، وَلا أدعو جَبانَكُمُ   ما لِلجَبانِ وَلا لي فيهِ إيمانُ

بَني بِلادي، وَكَم أدعو..! أليسَ لَكُم   كَسائِرِ الخَلقِ أكبادٌ وَآذانُ؟

لا تَضحَكوا وَبِأرضِ الشّامِ نائِحَةٌ   وَلا تَناموا وَفي لُبنانَ سَهرانُ!



امتنان

في حفلة ميلاد ديوانه الخمائل

ما لقلبي يلجُّ في الخفقانِ ... لا أنا عاشقٌ ولا أنا جانِ

أبتغي أن أقولَ شيئاً فيعصاني لساني، والسحرُ تحتَ لساني

أنا كالطائرِ الذي اندفقَ السحرُ عليهِ فغصَّ بالألحـــانِ

أو كفلكٍ في البحرِ أوفى عليها ... عارضٌ بعد عارضٍ هتّانِ

غلبتني عواطفُ الصحبِ حتى ... صرتُ في حاجةٍ إلى ترجمانِ

أينَ في موكبِ القريضِ لوائي ... قد طواهُ بيانُهُمْ وطواني

أيها المادحونَ خمري رويداً ... منكمُ الخمرةُ التي في دِناني

من أنا؟ ما صنعتُ؟ كي تعصبوا بالتاجِ رأسي وأيُّ شأنٍ شاني؟

لا افتخارٌ لنحلةٍ وجدتْ حقلاً فعادتْ من زهرهِ بالمجاني

أنا من روضِكُمْ قطفتُ أزاهيري، ومِنْ بحركُمْ غرفتُ جماني

إن أكُنْ فرقداً فأنتمْ سمائي ... أو هزاراً فأنتمْ بستاني

أيُّ بدعٍ إن أخرجَ الحقلُ للناسِ صنوفَ النباتِ في نيسانِ؟

ليسَ لي من قصائدي غيرَ أوزانٍ ، وليستْ أصيلةً أوزاني

أصدقُ الشعرِ في الحياةِ وفيكمْ ... ليسَ غيرَ الأطلالِ في ديواني

. . .

ما هوَ الشعر؟ . إنني مـــا رأيتُ اثنينِ إلا وفيهِ يختصمانِ

قالَ قومٌ « وحيٌ ينزّلُهُ اللهُ » وقومٌ « نفثٌ من الشيطانِ »

ضلَّ هذا وذا ، فما حَزَرَ الانسانَ شيءٌ للشعرِ كالإنسانِ

يعشقُ المرءُ ذاتَهُ في سواهُ ... ويُحبُّ الإنسانُ في الأكوانِ

أنا من أجلهِ بنيتُ قصوري ... وفرشتُ الدروبَ بالريحانِ

أنا من أجلهِ سكبتُ خموري ... وشددتُ الأوتارَ في عيداني

أنا من أجلهِ رجعتُ من الروضةِ في راحتيَّ بالألوانِ

واستعرتُ التهليلَ من جدولِ الوادي، وضحكَ الرُّضى من الغدرانِ

ومنَ الشمسِ في الأصائلِ والإصباحِ ذوبَ اللجينِ والعقيانِ

وحملتُ الجلالَ من أرضِ (سوريا) إليهِ والسحرَ من (لبنانِ)

نحنُ أهلُ الخيالِ أسعدَ خَلْقِ اللهِ حتى في حالةِ الحرمـــانِ

كمْ زهدنا بثروةٍ من نُضارٍ ... وقنعنا بثروةٍ من أماني

وانطوينا في موكبٍ من ضياءٍ ... وسطعنا في غمرةٍ من دُخانِ

نتراءى على الصعيدِ صعاليكَ ... ولكن أرواحنا في العنانِ

إن ظمئنا وعزَّ أنْ نَرِدَ المـــاء   رَوَانا تصوُّرُ الغدرانِ
وإذا غابت النجومُ اهتدينا   بالرؤى، بالرجاء، بالإيمانِ
لا يعدُّ الورى علينا الليالي   نحنُ قومٌ نعيشُ في الأزمانِ

. . .

ردَّ عني الكؤوسَ، يا أيها الساقي،   فروحي نشوى بخمرِ المعاني
بالقوافي (جداولًا) من وفاء   والأغاني (خمائلًا) من حنانِ
زَهِدَ الناسُ حين دارتْ عليهم   بالتي في كؤوسهمْ والقناني

. . .

أيها الليلُ أنت أبهى منَ الفجرِ   وإنْ كنتَ أسودَ الطيلسانِ
بالوجوهِ الزهراء، بالأنفسِ السمحاء،   من يَعْرُبٍ ومن غسانِ
بملوكِ البيانِ، بالأدبِ الرائعِ،   بالمنشدينَ، بالألحانِ
بالغواني، فديتهنّ، فأسمى   الشعرِ والفنّ في الحياةِ الغواني
هذهِ الشمسُ هل رأى الناسُ وجهاً   مثلَهَا في البهاء واللمعانِ
تتجلّى لنـــا على اليُسْرِ والعُسْرِ   وتمشي في نورها الفتّانِ
قد نسينا شعاعَهَا وسناها   عندما أشرقتْ وجوهُ الحسانِ
قُسِّمَ الدهرُ ـ أنتَ، يا ليلُ، شطرٌ
من حياتي، والعمرُ شطرٌ ثانِ

أنتَ عصرٌ مستجمَعٌ في سويعاتٍ،   ودنيا رحيبةٌ في مكانِ
قد تلاقتْ فيكَ القلوبُ على الحبِّ   تلاقي الأجفانِ بالأجفانِ
لا تقولوا دقائقٌ وثوانٍ   ذاهباتٌ فالعمرُ هذي الثواني

. . .

أنا ما عشتُ سوفَ أذكرُ بالشكرِ   جيلَ الرفاقِ والأخوانِ
وإذا متُّ في غدٍ فسيأتيكمْ   ثنـــائي من ظلمةِ الأكفانِ

ذكرى

إني امرؤٌ لا شيءَ يُطربُ روحَهُ   ويهزُّها كالزهرِ والألحانِ

اللحنُ من قُمريّةٍ أو مُنشدٍ   والزهرُ في حقلٍ وفي بستانِ

هذا يحرّكُ بي دفينَ صبابتي   ويهزُّ ذاكَ مشاعري وكياني

يهوى الملاحةَ ناظري صُوَراً تُرى   وأحبُّها في مسمعيَّ أغاني

وأحبُّها نوراً جميلاً صافيــاً   متألقاً في النفسِ والوجدانِ

وأحبُّها سِحراً يَرفُّ مع الندى   ويموجُ في الألوانِ كالألوانِ

وأحبُّها ذكرى تُطيفُ بخاطري   لأخٍ هَوِيتُ، وغادةٍ تهواني

أو مجلسٌ للحبِّ في ظلِّ الصبا   إنَّ الحيــاةَ جميعَها هذانِ

أو في خيــالِ منازلٍ أشتاقُها   كم من جمالٍ في خيالِ مكانِ

ولقد نظرتُ إليكمُ فكأنّما   أنا في الربيعِ وفي ربى لبنانِ

أصغي إلى النّسَماتِ تَروي للربى   ما قالتِ الأشجارُ للغُدرانِ

وإلى السواقي وهي تُنشدُ للصبا   والحبِّ، في الفتياتِ والفتيانِ

وإلى الأزاهرِ كلّما مرّتْ بها   عذراءُ ذاتُ ملاحةٍ وبيانِ

متهامساتٍ: «ما نظنُّ (فلانةً)   أحداً بها أَولى مِنِ (ابنِ فلانِ)

يا ليتَ ينثرُنا الغرامُ عليهما   من قَبلُ ينثرُنا الخريفُ الجاني»

أَلِفتْ مجاورةَ الأنامِ فأصبحتْ   وكأنّها شيءٌ من الإنسانِ

فــإذا نظرتَ إليهما متأمّلاً   شاهدتَ حولكَ وحدةَ الأكوانِ



معركة بورغاس

هذي الوغى مشبوبة النيران ... مشدودة الأسباب والأقران

شابت مفارقها وكانت طفلة ... عذراء منذ دقائق وثوان

طوي السلام فليس ينشر بعدها ... أو يبعث الملحود في الأكفان

شقوا الطروس وحطموا أقلامكم ... أليوم يوم شواجر المران

هانت على الصمصام كل يراعة ... ما لليراعة في الحروب يدان

يا صاحبي ليس الوغى من مذهبي ... هاتيك وسوسة من الشيطان

فالناس إخوان وليس من النهى ... أن يفتك الإخوان بالإخوان

لو تعقل الأجناد أن ملوكها ... أعداؤها انقلبت على التيجان

قوم إذا شاؤوا الصعود لمطلب ... تخذوا مراقيهم من الأبدان

أو إن كرهت الحرب كنت يراعة ... وإذا قتلت أخاك غير جبان؟

إن كان قتل النفس غير محرم ... ما الفرق بين المرء والحيوان؟

الحرب مجلبة الشقاوة للورى ... والحرب يعشقها بنو الإنسان

***

لمن الخميس خوافق راياته ... متماسك الأجزاء كالبنيان

متألب كالليل جن سواده ... مستوفز كالقدر في الغليان

متدفق كالسيل في الغدران ... متدفع كالعاصف المرنان

تتزلزل الأطواد من صدماته ... وتظل منه الأرض في رجفان

عجلان يكتسح البلاد وأهلها ... إن الشقي العاجز المتواني

في كل سرج ضيغم متحفز ... في كفه ماضي الشباة يماني

سمح إذا ضن الجبان بروحه ... فكأنما في جسمه روحان

ما صان مهجته التي في صدره ... إلا ليبذلها بيوم طعان

لا شيء، يوم الروع، أجمل عنده ... من أن يرى والقرن يصطرعان

***

يا رب معركة تراكم نقعها ... حتى اختفى في ظلها الجيشان

باتت صقال الهند في أفيائها ... كالبرق يسطع من خلال دخان

والخيل طائرة على أرسانها ... تهوى لو انعتقت من الأرسان

دوت المدافع كالرعود قواصفاً ... نطق الحديد فعي كل لسان

ترمي بأشباه الرجوم تخالها ... حمراء قد صبغت من المرجان

ما إن تطيش وإن نأت أغراضها ... ولكم تطيش قذائف البركان

صخابة تذر الحصون بلاقعاً ... وتدكها دكاً إلى الأركان

تنقضُّ والفرسانُ في آثارها … تنقضُّ مثلَ كواسرِ العقبانِ

هي وقعةٌ ضجّتْ لها الدّنيا كما … ضجّتْ وضجَّ النّاسُ في «ميدانِ»

مشتِ المنايا حاسراتٍ عندها … تتطلّبُ الأرواحَ في الأبدانِ

فعلى أديمِ الجوِّ ثوبٌ أسودٌ … وعلى أديمِ الأرضِ ثوبٌ قانِ

وإذا نظرتَ إلى الجسومِ على الثّرى … أبصرتَ كثباناً على كثبانِ

لمّا رأوا (بورغاس) ضربةَ مكمنٍ … حملوا عليها حملةَ اليابانِ

وقدِ انجلتْ فإذا الهلالُ منكّسٌ … علمٌ طوتْهُ رايةُ الصّلبانِ

رجحتْ قواهُمْ أيّما رجحانِ … فيها وشالَ التّركُ في الميزانِ

نفروا لكالحمرِ التي روّعتَها … بابنِ الشرى المتجهّمِ الغضبانِ

وقلوبُهمْ قدْ أسرعتْ ضرباتُها … وتظنُّها وقفتْ عنِ الخفقانِ

متلفّتينَ إلى الوراءِ بأعينٍ … تتخيّلُ الأعداءَ في الأجفانِ

يتلمّسونَ منَ المنيّةِ مهرباً … هيهاتَ إنَّ الموتَ كلُّ مكانِ

واللهِ ما ينجونَ منْ أشراكِهِ … ولوِ استعاروا أرجلَ الغزلانِ

أسلابُهمْ للظّافرينَ غنيمةٌ … وجسومُهمْ للحاجلِ الغرثانِ

إنْ يأمنوا وقعَ الأسنّةِ والظّبى … فالذّعرُ طاعنُهمْ بشرِّ سنانِ

***

ما أنسَ لا أنسى عصابةَ خُرّدٍ … في اللهِ مسعاهنَّ والإحسانِ

عِفْنَ الوثيرَ إلى وسائدَ قضّةٍ … ونزحنَ عنْ أهلٍ وعنْ أوطانِ

ووقفنَ أنفسَهنَّ في الدنيا على … تأمينِ ملتاعٍ ونصرةِ عانِ

يحملنَ ألويةَ السّلامِ إلى الأُلى … حملوا لواءَ الشرِّ والعدوانِ

كمْ منْ جريحٍ بالنجيعِ مخضّبٍ … في الأرضِ لا يحنو عليهِ حانِ

ما راعهُ طيفُ المنيّةِ مثلما … راعتْ حشاهُ فرقةُ الخلّانِ

قلْهُ، إذا ذكرَ الدّيارَ وأهلَهُ، … آهُ الغريبِ وأنّةُ الثّكلانِ

نفّسْنَ منْ برحائِهِ، وأسونَهُ … وأعضنَهُ منْ خوفِهِ بأمانِ

ما حبّبَ الجنّاتِ عندي أنّها … مثوى سلامٍ، مستقرُّ حِسانِ

لولا حنانُ الغانياتِ وعطفُها … ما كانتِ الدّنيا سوى أحزانِ

***

منْ مسمعُ الأيامَ عنّي نبأةً … يرتاعُ منها كلُّ ذي وجدانِ

إنَّ الأُلى جبنوا أمامَ عداتِهمْ … شجعوا على الأطفالِ والنّسوانِ

وصوارماً قدْ أغمدتْ يومَ الوغى … شهرتْ على الأضيافِ والقطّانِ

أكذا يجازى الآمنونَ بدورِهمْ … أوْ هكذا قدْ جاءَ في القرآنِ ؟

***

أخنى على الأتراكِ دهرٌ حوّلٌ … أخنى على اليونانِ والرّومانِ

وطوى محاسنَ «يلدزٍ» قدرٌ طوى … ربَّ السّديرِ وصاحبَ الإيوانِ

فاليومَ لا أستانةٌ أستانةٌ ... تزهو ولا السُّلطانُ بالسُّلطانِ
دارت دوائرُهُ علينا مثلما ... دارت دوائرُهُ على «طهرانِ»
أمُنَبِّهي الأضغانِ كيف هجعتمُ ... لمّا تنبَّهَ نائمُ الأضغانِ
وحكومةَ الأشياخِ ويحكِ ما الذي ... خالفتِ فيه عصبةَ الفتيانِ
قالوا: لنا المُلكُ العريضُ وجاهُهُ ... كذبوا فإنَّ المُلكَ للرحمنِ
ما بالُ قومي كلّما استصرختُهُمْ ... وضعوا أصابعَهُمْ على الآذانِ
أبناءَ سوريّا الفتاةِ تضافروا ... وخذوا مثالَكُمُ عن البلقانِ
ما التُّركُ أهلٌ أن يسودوا فيكُمُ ... أو تحكمَ الآسادُ بالظُّلمانِ
هُمْ ألبسوا الشرقيَّ ثوبَ غضاضةٍ ... وسقوهُ كأسَيْ ذلّةٍ وهوانِ
فإذا جرى ذكرُ الشعوبِ بموضعٍ ... شمختْ، وطأطأ رأسَهُ العثماني!..

البغضاء *

لا نُبغِضُ «الرُّوسَ» لكنْ لا نُحِبُّهُمُ ... فحربُنا حربُ أقرانٍ لأقرانِ
ولا «الفرنسيس» ما هُمْ بالعُداةِ لنا ... لكنَّهُمْ غيرُ أصحابٍ وإخوانِ
إنّا نُبادِلُهُمْ والنقعُ منسدِلٌ ... طعناً بطعنٍ ونيراناً بنيرانِ
وذي بيارِقُنا في «الفوجِ» خافقةٌ ... وجيشُنا ظافرٌ في كلِّ ميدانِ
قلوبُنا ليسَ فيها غيرُ موجدةٍ ... ذو الشَّيبِ فيها وفحمُ الشَّعرِ سيّانِ
نهوى ونحنُ جموعٌ لا عِدادَ لها ... كواحدٍ وكذا نقلى كإنسانِ
عدوُّنا واحدٌ، الكلُّ يعرفُهُ ... ذاكَ الحسودُ الخبيثُ الماكرُ الشّاني
تردُّنا عنهُ أمواجٌ يلوذُ بها ... سميكةٌ كالنجيعِ اليابسِ القاني
أرى بهِ، وهوَ في الطوفانِ مختبئٌ ... طوفانَ غيظٍ توارى خلفَ طوفانِ

(*) هي القصيدة المشهورة التي نظمها الشاعر الالماني «ارنست ليسوار» في غضون الحرب فكان لها في المانيا دوي ورنين، وقد نال ناظمها من أمبراطوره وساماً عالياً من نوع «الصليب الحديدي» دلالة على الاستحسان والرضى. ولما كانت هذه القصيدة قد نقلت الى أكثر اللغات فقد اقترحت جريدة «مرآة الغرب» اليومية على صاحب الديوان أن ينقلها الى عالم الشعر العربي ففعل.

قد أصبح الماء يحميه ويمنعه ... الويل للماء منا إنه جانِ

قفوا أمام القضاء العدل كلكم ... وليحلفنّ يميناً كل ألماني

غليظة كالحديد الصلب، صارمة ... كالموت، تبقى لأدهار وأزمانِ

أن نبغض البغض لا تبلى مرائره ... ولا يقاس ولا يحصى بميزانِ

وأن نردده في كل ناحية ... وأن نكرره تكرير ألحانِ

وأن نعلم منا كل ذي كبد ... أن يبغض القوم في سر وإعلانِ

بعضاً إلى نسلنا بالإرث منتقلاً ... إلى بنيهم ومن جيل إلى ثاني

عدونا واحد، الكل يعرفه ... ذاك الحسود الخبيث الماكر الشاني

إنكلترا !!

ألا اسمعوا أيها الألمان واعتبروا ... ذا أنتم أهل ألباب وأذهانِ

... في محفل جلس القواد كلهم ... كمحكم العقد أو مرصوص بنيانِ

وقام واحدهم والكأس في يده ... كأنها قبس أو عين غضبانِ

فقال: يا قوم «هذا سر يومكم» ... ألا اشربوا، إن سر اليوم سرانِ

مقالة فعلت في الجمع فعلتها ... فأصبحوا وكأن الواحد اثنانِ

ماضربة السيف من ذي مرة بطل ... ومستطير اللظى من قلب صوانِ

ولا السفينة في التيار جارية ... ولا الشهاب هوى في إثر شيطانِ

أمضى وأنفذ منها وهي خارجة ... من فيه كالسهم من أحشاء مرنانِ

فضاء من كان في الكأس التي ارتفعت ... ومن يريد ويعني القائل العاني ؟

إنكلترا !!

بني بريطانيا نادوا جموعكم ... واستصرخوا الخلق من إنس ومن جانِ

وابنوا المعاقل والأسوار من ذهب ... واستأجروا الجند من بيض وعبدانِ

مروا أساطيلكم في البحر ترصدنا ... وترصد البحر من موج وحيتانِ

تالله لا ذي ولا هذي تردّ يداً ... إذا رمت دكّت البنيان والباني

. . .

لا نبغض الروس لكن لا نحبهم ... فحربنا حرب أقران لأقرانِ

ولا الفرنسيس، ما هم بالعداة لنا ... لكنهم غير أصحاب وإخوانِ

إنا نبادلهم والنقع منسدل ... طعناً بطعن ونيراناً بنيرانِ

نأتي ويأتون والهيجاء قائمة ... بكل ماض وفتاك وطعانِ

لكننا في غد يرخي السلام على ... هذي الوغى وعليهم ستر نسيانِ

ويمحي كل بغض غير بغضكم ... فإنه آمن من كل نقصانِ

حقد القلوب عليكم لا يزول وإن ... زلتم وزلنا وزال العالم الفاني

في الأرضِ بغضكمُ والمـــاءِ مِثلُها
وَالبُغضُ في الحُرِّ مِثلُ البُغضِ في العاني

الكوخُ يُبغِضكمْ وَالقصرُ يُبغِضكمْ ... وَكلُّ ذي مُهجَةٍ منَّا وَوجدانِ
نَهوى ونَحنُ جموعٌ لا عِدادَ لها ... كَواحِدٍ وَكذا نَقلَى كَأنسانِ
عَدوُّنا واحِدٌ، الكُلُّ يَعرِفهُ ... ذاكَ الحَسودُ الخَبيثُ الماكرُ الشّاني

إنكلترا !!



في سبيل الاصلاح

حيَّا الصَّبـا عني رُبَى لبنانِ ... حيثُ الهوى ومراتعُ الغزلانِ
وَرَعى المُهيمنُ ساكنيهِ فإنَّهمْ ... في خيرِ أرضٍ خيرةِ السُّكانِ
قومٌ صفَتْ أخلاقُهمْ ووجوهُهمْ ... فالحسنُ مجموعٌ إلى الإحسانِ
لَهُمُ الأيادي البيضُ والشِّيمُ التي ... لو مُثِّلَتْ كانتْ عقودَ جُمانِ
شِيَمُ الكرامِ قصائدٌ في الكونِ غـ ... رٌّ، وهي في شِيَمِ الكرامِ معانِ
قومٌ إذا زارَ الغريبُ بلادَهمْ ... جعلوهُ منهمْ في أجلِّ مكانِ
إنْ خِفتَ شرَّ طوارقِ الحدَثانِ فا ... قصدْهُمُ، تَخفْكَ طوارقُ الحدَثانِ
لو انَّ في كيوانَ دارَ إقامتي ... لهجرتُ كيواناً إلى لُبنانِ
قيَّدْتُ قلبي في هواهُ فلَمْ أعُدْ ... أهوى السِّوى إذ ليسَ لي قلبانِ
والحُبُّ يَجمُلُ في الشبيبةِ والصِّبى ... كجمالِ زَهرِ الرَّوضِ في نَيسانِ
هوَ جنَّةُ الخُلدِ التي منَّى بها ... رُسْلُ الهُدى قدماً بني الإنسانِ
خلَتِ الدُّهورُ ولا يزالُ كأنَّما ... بالأمسِ شادَتْهُ يدُ الرحمنِ
يا ساكنيهِ تحيةً من نازحٍ ... إنَّ التحيةَ لهْيَ جُهدُ العاني
أصبحتُمْ فوقَ الممالكِ رِفعةً ... لولا وجودُ معاشرِ (الغربانِ)

قومٌ قد اتخذوا الديانةَ بينكمْ ... شَرَكاً لِصَيدِ الأصفرِ الرنّانِ
فتظاهروا بالزهدِ حتى أوشكتْ ... تَخفى دخائلُهمْ على اليقظانِ
وتفننوا بالمكرِ حتى أصبحوا ... وغبيُّهمْ أدهى من الشيطانِ
ضربوا على الشعْبِ الرُّسومَ شراهةً ... حَسْبُ التعيسِ ضرائبُ السُّلطانِ
كَفَروا بِنِعمَتِهِ التي أسداهُمُ ... ورَمَوهُ بالإلحادِ والكفرانِ
ولَقدْ تفانوا في انتهاكِ حقوقِهِ ... وهو المحبُّ رضاهُمُ المتفاني
حتى حَسِبْنا أنهُ ينحطُّ عَنْ ... كَسَلٍ، ولم يَكُ قطُّ بالكسلانِ
لكنهُ يسعى ويذهبُ سَعْيُهُ ... للقسِّ والشماسِ والمطرانِ
لولا احترامي مذهباً عُرِفوا بِهِ ... لَكَشَفْتُ مستوراتِهِمْ ببيانِ
فتنبهوا إنْ كنتمُ في غفلةٍ ... فالدهرُ بالمرصادِ للغفلانِ
إنَّ الأبالسَ حينَ أعيا أمرُكُمْ ... جاءتكُمُ في صورةِ الرُّهبانِ
فَحَذارِ من أنْ تُخدَعوا بلباسِهِمْ ... فَهُمُ الضواري في لباسِ الضأنِ
مَنْ يَتْبعِ العميانَ حُبّاً بالهُدى ... لا يأمَنَنَّ تعثُّرَ العميانِ

فجعل قوم يلومونه على ذلك فقال :

إنْ كانَ لي ذنبٌ وهُمْ غفرانُهُ ... آثرتُ أنْ أبقى بلا غُفرانِ
أو كنتُ في النيرانِ حيثُ لديهمُ ... منها النجاةُ رَضِيتُ بالنيرانِ
أشهى إلى نفسي من الذلِّ الرَّدى ... لا يرتضي بالذلِّ غيرُ جَبانِ

زهرة اقحوان

كانَ في صدري سرٌّ كامنٌ كالأُفعوانِ
أتوقّاهُ وأخشى أن يراهُ مَنْ يراني
وإذا لاحَ أمامي عَقَلَ الذعرُ لساني
فكأني عندَ بحرٍ هائجٍ أو بُركانِ
لم أخفهُ غيرَ أني خفتُ أبناءَ الزمانِ
ولكمْ فانٍ نظيري خافَ قبلي بَطشَ فانِ

***

لم يَسَعْ سري فؤادي، لم تَسَعْ نفسي المغاني
فقصدتُ الغابَ وحدي والدُّجى ملقي الجرانِ
ودفنتُ السرَّ فيهِ مثلما يُدفنُ جانِ
ورأى الليلُ قتيلي فبكاهُ وبكاني
إنَّ لِلَّيلِ دموعاً لا تراها مقلتانِ

***

كنتُ حتى مع ضميري أمسِ في حربٍ عوانِ

فانقضى عهدُ التجافي وأتى عهدُ التداني

خُدِّرت روحي فأمسى شأنُ جلِّ الخلقِ شاني

لا أرى في الخيرِ معنًى، ولكم فيها معاني

فكأني آلةُ العاصرِ أو إحدى الأواني

لم يَعُدْ قلبيَ كالبرقِ شديدَ الخفقانِ

لم تَعُدْ نفسيَ كالنجمةِ ذاتِ اللمعان

بتُّ لا أبكي لمظلومٍ ولا حُرٍّ مُهانِ

لا ولا أحفلُ بالباكي ولو ذو صولجانِ

صرتُ كالصخرِ سواءٌ هادمٌ عندي وبانِ

***

يا لآمالي الغوالي! يا لأحلامي الحسانِ!

طوَتِ الغابةُ سري فانطوتْ معْهُ الأماني

ضاعَ لما ضاعَ شيءٌ من كياني بل كياني

***

في صباحٍ مستطيرٍ كصباحِ المهرجانِ

لَبِسَتْ فيه الروابي حلةً من أرجوانِ

وتبدّى الغابُ من أوراقِهِ في طيلسانِ

ساقني روحٌ خفيٌّ نحو ذيّاكَ المكانِ

فإذا بالسرِّ أضحى زهرةً من أقحوانِ

الفردوس الضائع *

ما زالَ يمشي في الأمورِ بفكرِهِ   حتى تمشّى النومُ في الأجفانِ
وكما يرى الوسنانُ راهُ كأنّهُ   في النعشِ ميتٌ هامدُ الجثمانِ
وعلى جوانبِ نعشِهِ صفّانِ   من جُندِ «ألبرتِ» الرفيعِ الشانِ
يبكونَهُ لا شامتينَ بموتِهِ   ليسَ الشماتةُ عادةَ الشجعانِ
ورأى حواليهِ جماهيرَ الورى   تستعرضُ الملحودَ في الأكفانِ
وكأنّما كرهَ اختلاطَ رفاتِهِ   في الأرضِ بالضعفاءِ والعبدانِ
أو أنْ مرأى الحشدِ أقلقَ روحَهُ   في جسمِهِ فهفا إلى الطيرانِ
ومنَ العجائبِ في الكرى أنّ الفتى   يغدو بهِ وكأنّهُ شخصانِ

. . .

أمَّ السماءَ وقد توهّمَ أنّهُ   لا شكَّ والجها بلا استئذانِ
ما زالَ يرقى صاعداً حتى انتهى   حيثُ الغناءُ مثالثٌ ومثاني
فرمى بناظرِهِ فأبصرَ بابها   فمشى إليهِ مِشيةَ العجلانِ
وأقامَ يقرعُهُ فأقبلَ «بطرسٌ»   ذو الأمرِ في الفردوسِ والسلطانِ
وأدارَ فيهِ لحظَهُ فإذا بهِ   ضيفٌ، ولكنْ ليسَ كالضيفانِ
ما جاءنا بكَ؟ صاحَ «بطرسُ» غاضباً   يا شرَّ إنسانٍ على الإنسانِ
إذهبْ فما لكَ في السما من موضعٍ   يا أيها الرجلُ الأثيمُ الجاني
ثمَّ انثنى للبابِ يحكمُ سدَّهُ   والضيفُ لم ينبسْ ببنتِ لسانِ
ما ذي الفظاظةُ؟ قالَ «وليمُ» وانثنى   لليأسِ كالمصفودِ في الأقرانِ
وبمثلِ لمحِ الطرفِ أسرعَ هابطاً   نحوَ الجحيمِ يقولُ ذاكَ مكاني
هيهاتَ يُحرَمُ من جهنّمَ عائدٌ   من جانبِ الفردوسِ بالحرمانِ
حتى إذا ما صارَ دونَ رتاجِها   سمعَ «الزعيمَ» يصيحُ بالأعوانِ
أبني جهنّمَ أوصدوا أبوابَكُمْ   واستعصموا كالطيرِ بالأوكانِ
كونوا على حذرٍ ففي هذا الضحى   يأتي إلينا قيصرُ الألمانِ
إنْ كنتمُ لم تعرفوهُ فإنّهُ   رجلٌ بلا قلبٍ ولا وجدانِ
أخشى على أخلاقِكُمْ إن زارَكُمْ   وهيَ الحسانُ تصيرُ غيرَ حسانِ
إيّاكُمْ أن تسمحوا بدخولِهِ   فدخولُهُ خطرٌ على السكّانِ
أمري لكم أصدرتُهُ فخذوا بهِ   وحذارِ ثمَّ حذارِ من عصياني
ماذا تراني؟ صاحَ «وليمُ» باكياً   حتى الأبالسُ لا تحبُّ تراني
ابليسُ، يا شيخَ الزبانيةِ الألى   كانوا لأخداني مِنَ الأخدانِ

(*) أو رؤيا القيصر الألماني.

رُحماكَ بي ، فاللّيلُ قاسٍ بَردُهُ   وَالهَولُ يملأُ ناظِري وَجَناني

بجهنّمٍ ، بالسّاكني حُجراتِها   بمَواقِدِ النّيرانِ ، بالنّيرانِ

وَبكلِّ شَيطانٍ مَريدٍ ماكرٍ   وبِكلِّ تابعِ ماردٍ شَيطانِ

مُذ يَنفَتِحْ بابُ الجَحيمِ فإنّني   قد كادَ يَجمدُ للصقيعِ لِساني

يا لَيتَ شِعري أينَ أذهبُ بعدما   سُدّ السَّبيلُ وَأُوصِدَ البابانِ

مَنْ لي بِزاويَةٍ أزجُّ بمُهجَتي   فيها ، وإنْ تَكُ مِن حَميمٍ آنِ

هَلّا قَبِلتَ تَضَرُّعي ؟ فأجابَهُ   إبليسُ ، وهو يَروغُ كالسّرحانِ

لو كُنتُ أعلَمُ ما سَكَتُّ فلا تَزِدْ   لا رأيَ للحَيرانِ في الحَيرانِ

عَبَثاً تحاوِلُ أن تُصادِفَ عِندَنا   نُزلا ، فهذا لَيسَ بالإمكانِ

لا تَذكُرَنَّ ليَ الحَنانَ وَما جرى   مجراهُ ، إنّي قد قَتلتُ حَناني

لا يَدخُلَنَّ جَهنّماً ذو مَطمَعٍ   بالمَجدِ أو بالأصفَرِ الرّنّانِ

إن كُنتَ تَشتاقُ الإقامَةَ في اللَّظَى   فالنّارُ والكبريتُ كلُّ مَكانِ

فاجمَعهُما واصنَعْ لِنَفسِكَ مِنهُما   ولِمَن تحبُّهمُ جَحيماً ثاني

وَهُنا تَقَهقَرَ ، ولَيمْ ، ثُمَّ اختَفى   ما بَينَ لَيلٍ حالِكٍ ودُخانِ

فأفاقَ مَذعوراً يُقَلِّبُ طَرفَهُ   لِلرُّعبِ في الأبوابِ والحيطانِ

وَيَقولُ لا أنساكَ يا حُلمي ولو   نَسَجَتْ عليَّ عَناكِبُ النِّسيانِ

ما راعَني أنّي طُرِدتُ مِنَ السَّما   أنا قانِطٌ مِنْ رَحمَةِ الدّيّانِ

لكِنْ طَردي مِن جَهنّمَ ، إنّهُ   ما دارَ في خَلَدي ولا حِسباني

الشجاع

لا أُحِبُّ الإنسانَ يَرضَخُ للوَهْـ   ـمِ ، ويرضى بتافِهاتِ الأماني

إنّ حَيّاً يهابُ أنْ يلمسَ النّو   رَ كَمَيْتٍ في ظُلمةِ الأكفانِ

وحَياةً أمَدُّ فيهـا التوقّي   لا تُوازي في المجدِ بضعَ ثوانِ

ألشجاعُ الشجاعُ عِندي مَنْ أمْـ   ـسى يُغنّي والدمعُ في الأجفانِ

الحرب العظمى

لو استطيعُ كتبتُ بالنيرانِ   فلقدْ عييتُ بكمْ وعيَّ بياني
ولكنتُ أستحي القريضَ وأتقي   أنْ يستريبَ يراعتي وجناني
أمسى يعاصيني لما جشّمته   فيكمْ وكنتُ وكانَ طوعَ بناني
يشكو إليَّ وأشتكي إعراضكمْ   اللهَ في عانٍ يلوذُ بعانِ
عاهدتُهُ أنْ لا أثيرَ شجونَهُ   أو يستثيرَ كوامنَ الأشجانِ
يا طالما استبكيتُهُ فبكى لكمْ   لولا الرجاءُ بكيتُهُ وبكاني
كمْ ليلةٍ أحييتُها متململاً   طرفي وطرفُ النجمِ ملتقيانِ
تحنو على قلبي يميني والدجى   حانٍ على الفتياتِ والفتيانِ
أجلو عرائسَهُ لكمْ وأزفُّها   ما بينَ بكرٍ كاعبٍ وعوانِ
متأملاً فيكمْ وفي أبنائكمْ   وهمُ وأنتمْ نائمو الأجفانِ
ما غالَ نومي حبُّ معسولِ اللمى   ممنوعِهِ، لكنْ هوى الأوطانِ
أنفقتُ أيامَ الشبابِ عليكمْ   في ذمةِ الماضي الشبابُ الفاني

***

كمْ تسألوني أنْ أعيدَ زمانَهُ   يا قومُ، مرَّ زمانُهُ وزماني
هانَ اليراعُ على البواترِ والقنا   ما تصنعُ الأقلامُ بالمرّانِ
ليسَ الكلامُ بنافعٍ أو تغتدي   حمرُ المضاربِ خلفَ كلِّ لسانِ
والشعبُ ليسَ بمدركٍ آمالَهُ   حتى يسيرَ على النجيعِ القاني!..

***

صلَّ[1] الحديدُ وشمرتْ عنْ ساقِها   وتنكَّرَ الإخوانُ للإخوانِ
فالخيلُ غاضبةٌ على أرسانِها   والبيضُ غاضبةٌ على الأجفانِ
والموتُ منْ قدّامِهمْ وورائِهمْ   والهولُ كلَّ ثنيّةٍ ومكانِ
بسطتْ جناحيها ومدتْ ظلَّها   فإذا جناحا السلمِ مقصوصانِ
تغشى مواكبُها ثلاثَ غياهبٍ   منْ قسطلٍ ودجنّةٍ ودخانِ
ويرودُ عنها كلُّ خائضِ لجّةٍ   سيلانِ: منْ ماءٍ ومنْ نيرانِ
أنى التفتَّ رأيتَ رأساً طائراً   أو مهجةً مطعونةً بسنانِ
يمشي الردى في إثرِ كلِّ قذيفةٍ   فكأنما تقتادُهُ بعنانِ
فالجوُّ مما فاضَ منْ أرواحِهمْ   لا تستبينُ نجومُهُ عينانِ
والنهرُ مما سالَ منْ مهجاتِهمْ   يجري على أرضٍ منَ المرجانِ
والأرضُ حمراءُ الأديمِ كأنها   خدُّ الحبيبةِ أو خضيبُ بنانِ

---

(١) صل: كصلصل: صوت.

كَمْ مِن مُبيحٍ للضُّيوفِ طَعامَهُ   أمسى طَعامَ الأجدلِ الغَرثانِ

ومُقاتِلٍ ناشَ الكَتيبَةَ ، ناشَهُ   ظُفرُ العُقابِ ومِخلَبُ السِّرحانِ

ومُحلِّقٍ بَينَ المَجَرَّةِ والسُّهـــا   صَعدَ الحِمامُ إليهِ في الطَيرانِ

ومُشيَّدٍ وقفَ الزَّمانُ حِيالَهُ   مُتحيِّراً بجَـــمالِهِ الفتّانِ

أخنى على ذكرِ «الخَوَرنَقِ» ذِكرُهُ   وسما على «الحمراءِ» و «الإيوانِ»

وقضى العُصورَ الناسُ في تَشييدِهِ   أودَتْ بهِ مَقذَفَةٌ وثَوانِ

ومَدينةٍ زَهراءَ آمِنَةِ الحِمى   هُدِمَتْ مَنازِلُها على السُّكّانِ

خرِسَتْ بَلابِلُها الشَّوادي في الضُّحى   وعَلا صِياحُ البُومِ والغِربانِ

وتَعطَّلَتْ جَنّاتُها وقُصورُها   ولَقَدْ تَكونُ بِغِبطَةٍ وأمانِ

حَربٌ أذَلَّ بِها التَّمدُّنُ أهلَهُ   وجَنى الشُّيوخُ بِها على الشُّبّانِ

سَحَقَ القَويُّ بِها الضَّعيفَ وداسَهُ   ومَشى على أرضٍ مِنَ الأبدانِ

بِئسَ الوَغى يَجني الجُنودُ حُتوفَهُمْ   في ساحِها والفَخرُ للتيجانِ

ما أقبَحَ الإنسانَ يَقتُلُ جارَهُ   ويَقولُ هذي سُنَّةُ العُمرانِ

يَبلى الزَّمانُ وأنتَ مِثلكَ قبله   يا شِرعَةً قَد سَنَّها الجَدّانِ

فالقاتِلُ الآلافِ غازٍ فاتِحٌ   والقاتِلُ الجاني أثيمٌ جانِ

لا حَقَّ إلّا ما تُؤيِّدُهُ الظُّبى   ما دامَ حُبُّ الظُّلمِ في الإنسانِ

لو خُيِّرَ الضُّعفاءُ لاختاروا الرَّدى   لَكِنْ عَيشَ الأكثرينَ أماني

***

ما بالُ قَومي نائِمينَ عَنِ العُلى   ولَقَد تَنَبَّهَ للعُـــلى الثَّقلانِ

تُبّاعُ أحمدَ والمسيحِ ، هَوادَةً   ما العَهدُ أنْ يَتَنكَّرَ الأخَوانِ

اللهُ ربُّ الشِّرعَتَينِ وربُّكُمْ   فإلى مَتى في الدِّينِ تختَصِمانِ

مَهْما يَكُنْ مِن فارِقٍ فَكِلاكُما   يُنمى إلى قَحطانَ أو غَسّانِ

فَخُذوا بِأسبابِ الوِفاقِ وطَهِّروا   أكبادَكُم مِن لَوثَةِ الأضغانِ

في ما يُحيقُ بأرضِكُم ونُفوسِكُمْ   شُغلٌ لِمُشتَغِلٍ عَنِ الأديانِ

نِمتُم وقَد سَهِرَ الأعادي حَولَكُم   وسَكَنتُمُ والأرضُ في جَيَشانِ

لا رأيَ يَجمَعُكُم إذا اختلفَ القَنا   وتَلاقتِ الفُرسانُ بالفُرسانِ

لا رايَةٌ لَكُمُ يُدافِعُ دونَها   مُردُ العَوارِضِ ، والحُتوفُ دَواني

لا ذَنبَ للأقدارِ في إذلالِكُم   هذا جَزاءُ الغافِلِ المُتَواني

لو لَم يَعِزَّ الجَهلُ بَينَ رُبوعِكُم   ما هانَ جَمعُكُمُ على الحَدَثانِ

المرءُ ، قيمَتُهُ المَعارِفُ والنُّهى   مــا نَفعُ باصِرَةٍ بِلا إنسانِ

ما بالُكُم لا تَغضَبونَ لِمَجدِكُم   غَضَباتِ مَلطومِ الجَبينِ مُهانِ

أو لَستُمُ كالنّاسِ أهلَ حَفائِظٍ   أم أنتُمُ لَستُم مِنَ الحَيَوانِ ؟

أبناؤكُم ، لَهفي عَلى أبنائِكُم   يَلهو بِهِم أبناءُ جنكيزَ خانِ

النّازِعونَ المُلكَ مِن أيديكُمُ   العابِثونَ بِكُم وبالقُرآنِ

أو كُلَّما طَلَعَتْ عَليهِم أزمَةٌ   هاجوا ضَغائِنَكُم عَلى الصُّلبانِ

لا تَخدَعَنَّكُمُ السِّيَاسَةُ إنَّهـا — شَتَّى الوُجوهِ كثيرةُ الألوانِ
لو تَعقِلونَ عَلِمتُمْ لِخلاصِكُم — مِنْ دَولةِ القَينَاتِ والخِصيانِ
عَارٌ عَلَى نَسلِ المُلوكِ بني العُلى — أن يَستَذِلَّهُمْ بَنُو الرُّعيانِ
ثُوروا عَلَيهِمْ وَاطلُبُوا استِقلالَكُمْ — وَتَشَبَّهوا بالصِّربِ واليونَانِ
مَاذا يَروعُ نُفوسَكُم، مَا فيكمُ — وَكِلٌ وَلَا في التُّركِ غيرُ جَبانِ
وَهَبُوهُمُ الرُّومَانَ في غُلَوائِهِمْ — أَفَمـا غَلَبتُمْ أُمَّةَ الرُّومَانِ
مَا المَوتُ مَا أعيا النِّطَاسِي رَدَّهُ — مَوتُ الذَّليلِ وَعَيشُهُ سِيَّانِ

•

العير المنكر

زَعَمَ المؤدِّبُ أنَّ عَيراً ساءهُ — أنْ لا يُسارَ بهِ إلى الميدانِ
فمضى فقصَّرتِ القواطعُ ذيلَهُ — وسطتْ مواضيها على الآذانِ
حتى إذا جاء المروضُ واعتلى — متنيهِ رابَ الفارسُ الكشحانِ
لكنهُ مـا زالَ غيرَ مصدِّقٍ — حتى علا صوتٌ كصوتِ الجانِ
فاستلَّ صارمَهُ فطاحَ برأسهِ — ورمى بجثتهِ إلى الغربانِ
ما دام يصحبُ كلَّ حيٍ صوتهُ — هيهات يخفي العيرَ جلدُ حصانِ

•

وقائلة

وقائلةٍ : هجرتَ الشعرَ حتى / تغنّى بالسخافاتِ المغنّي

أتى زمنُ الربيعِ وأنتَ لاهٍ / وقد ولّى ولم تهتِفْ بلحنِ

ونفسُكَ كالصّدى في قاعِ بئرٍ / ومثلِ الفجرِ ملتحفاً بدَجْنِ

فما لكَ ليسَ يستهويكَ حُسنٌ / وأنتَ لمرءٍ تعشقُ كلَّ حسنِ ؟

أتسكتُ والشبابُ عليكَ ضافٍ / وحولكَ للهوى جنّاتُ عدنِ ؟

ركودُ المـــاءِ يورثهُ فساداً ! / فقلتُ لها : استكيني واطمئنّي

فما حطّمتْ يدُ الأيامِ روحي / وإنْ حطّمتْ أباريقي ودَنّي

ولم أعقِدْ على خوفٍ لساني / ولا ضناً على الدنيا بفنّي

ولكنّي امرؤٌ للناسِ ضحكي / ولي وحدي تباريحي وحُزني

إذا أشكو إلى خِدنٍ همومي / وفي وسْعي السكوتُ ظلمتُ خِدْني

وتأبى كبريائي أن يَراني / فتىً مغروروقاً بالدمعِ جفني

فأسترُ عَبرتي عنهُ تنبّلا / يضيقُ بها وإنْ هيَ أحرقتني

ويبكي صاحبي فإخالُ أنّي / أنا الجاني وإنْ لم يتّهمني

فأمسحُ أدمعاً في مقلتيهِ / وإنْ حكّتِ اللهيبَ، وإنْ كوتني

لأنّي كلما رفّهتُ عنهُ / طربتُ كأنّني رفّهتُ عنّي

كذلكَ كانَ شأني بينَ قومي / وهذا بينَ كلِّ الناسِ شأني

أقولُ لكلِّ نوّاحٍ رويداً / فإنَّ الحزنَ لا يُغني، ويُضني

وجدتُ الدمعَ بالأحرارِ يُزري / فليتَ الدمعَ لم يُخلَقْ بجفنِ !

. . .

سبيلُ العزِ أنْ تَبني وتُعـــلي / فلا تَقنعْ بأنَّ سواكَ يَبني

ولا تكُ عالةً في عُنقِ جَدٍّ / رميمِ العظمِ أو عِبئاً على ابنِ

فَمَنْ يغرسْ لكي يجني سواهُ / يعشْ، ويموتُ من يحيا ليجني !

. . .

ألائمي اتركيني في سكوني / ولومي من يضجُّ بغيرِ طحنِ

إذا صارَ السماعُ بــلا قياسٍ / فلا عَجَبٌ إذا سكتَ المغنّي

أنا ولَئنْ سكتُّ وقالَ غيري / وجعجعَ صاحبُ الصوتِ الأرَنِّ

إذا أنا لم أجِدْ حقلاً مَريعاً / خلقتُ الحقلَ في روحي وذِهني

فكادتْ تمـــلأُ الأثمارُ كَنّي / ويَعبَقُ بالشذى الفوّاحِ رُدني

●

أخت ليلى

ولقد عَلِقتُ من الحسانَ مليحةً ... تحكي الهلالَ بحاجبٍ وجبينِ

كلفتْ بها نفسي ودونَ وصولها ... وصلُ المنونِ وثمّ ليثُ عرينِ

حسناءُ أضحى كلُّ حسنٍ دونَها ... ولذاكَ عُشّاقُ المحاسنِ دوني

قد روّعتْ حتى لتخشى بُردَها ... من أن يبوحَ بسرِّها المكنونِ

وتُريبها أنفاسُــــها وتُخيفُها ... عندَ اللقـــاءِ تنهُّدُ المحزونِ

هجرتْ فكلُّ دقيقةٍ من هجرها ... عندي تُعَدُّ بأشهرٍ وسنينِ

يا هذهِ لا تجحدي حقي فقدْ ... أصليتِ قلبي بالنّوى فَصليني

أطلقتِ دمعاً كانَ قبلُ مقيّداً ... وسجنتِ قلباً كانَ غيرَ سجينِ

أشبهتِ (ليلى العامرية) فاكتمي ... خبرَ الذي قد صارَ (كالمجنونِ)

•

عش للجمال

عِشْ للجمالِ تراهُ العينُ مؤتلقاً ... في أنجمِ الليلِ أو زهرِ البساتينِ

وفي الرُّبى نَصبتْ كفُّ الأصيلِ بها ... سُرادقاً من نُضارٍ للرياحينِ

وفي الجبالِ إذا طافَ المساءُ بها ... ولفَّها بسرابيلِ الرّهابينِ

وفي السواقي لها كالطفلِ ثرثرةٌ ... وفي البروقِ لها ضِحكُ المجانينِ

وفي ابتسامات «أيارٍ» وروعتِها ... فإن تولّى، ففي أجفانِ «تشرينِ»

لا حينَ للحسنِ، لا حدّ يقاس به ... وإنّما نحنُ أهلُ الحدِّ والحينِ

فكم تماوجَ في سربالِ غانيةٍ ... وكم تألّق في أسمالِ مسكينِ

وكم أحسّ بهِ أعمى فجُنَّ لهُ ... وحولهُ ألفُ راءٍ غيرِ مفتونِ

عِشْ للجمالِ تراهُ ههُنا وهنا ... وعشْ لهُ وهو سرٌّ جِدُّ مكنونِ

خيرٌ وأفضلُ ممن لا حنينَ لهم ... إلى الجمالِ، تماثيلٌ من الطينِ

•

«ميامي فلوريدا»

ألقاها في المأدبة التي أقامها النادي السوري اللبناني الاميركي في ميامي فلوريدا تكريماً له .

ما طائرٌ كانَ في بيداء موحشةٍ ... فساقهُ قَدَرٌ نحو البساتينِ
فباتَ تُسعدهُ فيهـا بلابلُها ... حيناً ، ويسعدُها بعضَ الأحايينِ
مني بأسعدَ حظاً مُذ نزلتُ بكمْ ... يا معشرَ السادةِ الغرِّ الميامينِ
فررتُ من بَردِ كانونٍ فقابلني ... في أرضكمْ بالأقاحي شهرُ كانونِ
أنسامُ «أيارَ» تسري في أصائلها ... وفي عشياتها أنفاسُ «تشرينِ»
توزّعُ السحرَ شطراً في مغارسها ... وآخرَ في لحاظِ الخُرَّدِ العينِ
كلُّ الشتاء ربيعٌ في شواطئها ... وكلُّ أيامهـا عيدُ الشعانينِ
لكنَّ ميامي وإنْ جلّتْ مفاتنها ... لولا وجودكمْ ليستْ لتغريني
إني لأشهدُ دنيا من عواطفكمْ ... أحبُّ عنديَ من دنيا الرياحينِ
وكلما سمعتْ نجواكمْ أذني ... ظننتُ أنيَ في دنيا تلاحينِ
لأنتمُ النورُ لي والنورُ منطمسٌ ... وأنتمُ الماءُ إذ لا ماءَ يرويني

أحببتكمْ حبَّ إنسانٍ لإخوتِهِ ... إذ ليس بينكمْ فوقي ولا دوني
إنْ كانَ فيكمْ قويٌ لا يقاهرني ... أو كانَ فيكمْ ضعيفٌ لا يداجيني
قلْ لامرىءٍ مثلَ قارونٍ بثروتِهِ ... إني امرؤٌ بصحابي فوقَ قارونِ
من يكتسبْ صاحباً تبقَ مودتُهُ ... فهو الغنيُّ به لا ذو الملايينِ
فاخترْ صحابَك وانظرْ في اختيارهمُ ... إلى الطبائع قبلَ اللونِ والدينِ
ليس الودادُ الذي يبقَ إلى أبدٍ ... مثلَ الوِدادِ الذي يبقى إلى حينِ
والمرءُ في هذهِ الدنيا عواطفُهُ ... إن تندرسْ فهو بيتٌ غيرُ مسكونِ
وإنَّ عاطفةً هذي مظاهرُها ... من عالمِ الرُّوحِ لا من عالمِ الطينِ
لو فاتني كلُّ ما في الأرضِ من ذَهَبٍ ... ولم تفتني فـإني غيرُ مغبونِ
لو القوافي تواتيني شكرتكمْ ... كما أريدُ ، ولكنْ لا تواتيني
لا يمدحُ الوردَ إنسانٌ يقولُ لهُ ... يا وردُ إنكَ ذو عطرٍ وتلوينِ
فاستنطقوا القلبَ عني فهو يخبركمْ ... فالحبُّ والقلبُ مكنونٌ بمكنونِ
لولا المحبةُ صارَ الكونُ أجمعهُ ... طوبى الأفاعي وفردوسَ السراحينِ
إني سأحفظُ في قلبي جميلكمُ ... وسوفَ أذكرهُ في العسرِ واللينِ

●

شبح

وسالة من لبنان الى ابنائه المهاجرين قالها في حفلة .

بأبي خيالٌ لاحَ لي متلفّعاً ... بعباءةٍ من عَهْدِ فخرِ الدينِ
يمشي على مَهَلٍ ويُرسلُ طرفَهُ ... في حيْرةِ المستوحشِ المحزونِ
من أنتَ يا شَبَحاً كئيباً صامتاً ؟ ... قلْ لي. فإنَّكَ قد أثرتَ شجوني
أخيالُ خصمٍ أتّقي نزواتِهِ ؟ ... أم أنتَ ، ياهذا ، خيالُ خدينِ ؟
فأجابني مترفّقــاً متحبّباً ... فسمعتُ صوتَ أبٍ أبرَّ حنونِ

. . .

يا شاعري قلْ للأُلى هَجَروني ... أنا مــا نسيتكمُ فلا تنسوني
ما بالكمْ طوّلتمُ حبلَ النوى ... يا لَيْتَ هذا الحبلَ غيرُ متينِ
قد طفتمُ الدنيا فهلْ شاهدتمُ ... جبلاً عليهِ مهابتي وسكوني ؟
أوَردتمُ كمناهلي ؟ أنشقتمُ ... كأزاهري في الحسنِ والتلوينِ ؟
ولقد تظلّلتمْ بأشجارٍ فهــل ... رفّتْ غصونٌ فوقكمْ كغصوني ؟
وسمعتمُ شتّى الطيورِ صوادحاً ... أسمعتمْ أشجى من الحسّونِ ؟

هل أنبتت كالأرزِ غيري بقعةٌ ... في مجدهِ وجلالهِ الميمونِ ؟
أرأيتمُ في مــا رأيتمْ فتنةً ... كالبدرِ حينَ يُطلُّ من صنّينِ ؟
أو كالغزالةِ وهي تنقضُ تِبرَها ... عندَ المغيبِ على ذُرى حرمونِ ؟
مرّتْ قرونٌ وانطوتْ وكأنني ... لمحاسني كُوِّنتُ منذ سنينِ
أبليتُها وبقيتُ ، إلا أنــني ... للشوقِ كادَ غيابكمْ يَبليني

. . .

لبنانُ ! لا تعذلْ بنيكَ إذا هُمُ ... ركبوا إلى العلياءِ كلَّ سفينِ
لم يهجروكَ مــلالةً لكنَّهمْ ... خُلقوا لصيدِ اللؤلؤِ المكنونِ
ورثوا اقتحامَ البحرِ عن فينيقيا ... أمِّ الثقافةِ مصدرِ التمدينِ
لـمّـا ولدتَهمْ نسوراً حلّقوا ... لا يقنعونَ من العُلى بالدونِ
والنسرُ لا يرضى السجونَ وإنْ تكنْ ... ذَهباً ، فكيفَ محابسٌ من طينِ ؟
الأرض للحشراتِ تزحفُ فوقها ... والجــوُّ للبازي وللشاهينِ

. . .

فأجابني والدمعُ ملءُ جفونِهِ ... كم ذا تسلّيني ولا تُسليني ؟
أنا كالعرينِ اليومَ غابَ أسودُهُ ... وتفرّقوا عنهُ لكلِّ عرينِ
الأرمنيُّ على سفوحي والربى ... يبني الحصونَ لنفسهِ بحصوني

وبنو يهوذا ينصبونَ خيامَهمْ   في ظلِّ أوديتي وفوقَ حزوني
وبنيَّ عنّي غافلونَ كأنّني   قد صرتُ في الأشياء غيرَ ثمينِ
أنتمْ ديونٌ لي على آميركا   ومن المروءةِ أنْ تُرَدَّ ديوني
أوَليسَ من سُخرِ القضاء وهُزئِهِ   أنْ يأخذَ المثري من المسكينِ ؟
عودوا فإنَّ المالَ لا يغنيكمْ   عنّي ، ولا هوَ عنكمْ يغنيني

. . .

فشجيتُ ممّا قالهُ لكنّني   لمّا رأيتكمْ نسيتُ شجوني
لبنانُ فيكمْ ماثلٌ إنْ كنتمْ   في مصرَ أو في الهندِ أو في الصينِ
إن بنتمْ عنهُ فما زالَ الهوى   يدنيكمْ منهُ كما يُدنيني
وحراكمْ لعلائهِ وسكونكمْ   وإلى ثراهُ حنينكمْ وحنيني
لو أمستِ الدنيا لغيري كلُّها   ورُباهُ لي ما كنتُ بالمغبونِ
أنا في حماكمْ طائرٌ مترنّمٌ   بين الأقاحِ الغضِّ والنسرينِ
! أنتمْ بنو وطني وأنتمْ إخوتي   وأنا امرؤٌ دينُ المحبّةِ ديني

أبي

طوى بعضَ نفسي إذ طواكَ الثّرى عنّي   وذا بعضُها الثاني يَفيضُ بهِ جفني
أبي ! خانني فيكَ الرّدى فتقوّضتْ   مقاصيرُ أحلامي كَبيْتٍ منَ التبْنِ
وكانتْ رياضي حالياتٍ ضواحكاً   فأقوتْ وعفّى زهرَها الجزَعُ المضني
وكانتْ دِناني بالسرورِ مليئةً   فطاحتْ يدٌ عمياءُ بالخمرِ والدّنِّ
فليسَ سِوى طَعْمِ المنيّةِ في فمي ،   وليسَ سِوى صَوتِ النوادبِ في أذني
ولا حَسَنٌ في ناظريَّ وقلّما   فتحتهما من قَبلُ إلّا على حُسنِ
وما صُوَرُ الأشياءِ بعدَكَ غيرَها   ولكنّما قد شوّهتها يدُ الحزنِ
على منكبي تِبرُ الضحى وعقيقهُ   وقلبيَ في نارٍ ، وعينايَ في دجنِ
أبحتُ الأسى دمعي وأنهبتهُ دمي   وكنتُ أعدُّ الحزنَ ضرباً من الجبنِ
فمستنكرٌ كيفَ استحالتْ بشاشتي   كمستنكرٍ في عاصفٍ رعشةَ الغصنِ
يقولُ المعزّي ليسَ يُجدي البكا الفتى   وقولُ المعزّي لا يُفيدُ ولا يُغني

. . .

شخصتُ بروحي حائراً متطلّعاً   إلى ما وراءَ البحرِ أدنو وأستدني

كذاتِ جَناحٍ أدركَ السيلُ عشَّها — فطارتْ على رَوْعٍ تحومُ على الوَكْنِ
فَوَاهاً لو اني كنتُ في القومِ عندما — نظرتَ إلى العوّادِ تسألُهم عنّي
ويا ليتما الأرضُ انطوى لي بساطُها — فكنتُ مع الباكينَ في ساعةِ الدفنِ
لعلّي أفي تلكَ الأبوّةَ حقَّها — وإن كانَ لا يوفى بكيلٍ ولا وزنِ
فأعظمُ مجدي كانَ أنكَ لي أبٌ — وأكبرُ فخري كانَ قولكَ: ذا إبني!
أقولُ: لو اني ... كي أبرِّدَ لوعتي — فيزدادُ شجْوي كلّما قلتُ: لو أنّي!
أحتّى وداعُ الأهلِ يُحرَمُهُ الفتى؟ — أيا دهرُ هذا منتهى الحَيْفِ والغَبْنِ!
أبي! وإذا ما قلتُها فكأنني — أنادي وأدعو يا ملاذي ويا ركني
لمن يلجأُ المكروبُ بعدكَ في الحمى — فيرجعَ ريّانَ المنى ضاحكَ السنِّ؟
خلعتَ الصبا في حَوْمةِ المجدِ ناصعاً — ونُزِّهَ فيكَ الشيبُ عن لوثةِ الأفنِ
فذهنٌ كنجمِ الصيفِ في أوّلِ الدجى — ورأيٌ كحدِّ السيفِ أو ذلكَ الذهنِ
وكنتَ ترى الدنيا بغيرِ بشاشةٍ — كأرضٍ بلا ماءٍ وصوتٍ بلا لحنِ
فما بكَ من ضُرٍّ لنفسِكَ وحدها — وضحكُكَ والإيناسُ للجارِ والخِدْنِ
جريءٌ على الباغي، عَيوفٌ عن الخنا، — سريعٌ إلى الداعي، كريمٌ بلا منِّ
وكنتَ إذا حدّثتَ حدّثَ شاعرٌ — لبيبٌ دقيقُ الفهمِ والذوقِ والفنِّ
فما استشعرَ المُصغي إليكَ ملالةً — ولا قلتَ إلّا قالَ من طربٍ: زدني!

برغمكَ فارقتَ الربوعَ وإننا — على الرغمِ منّا سوفَ نلحقُ بالظعنِ
طريقٌ مَشى فيها الملايينُ قبلَنا — منَ المَلِكِ السامي إلى عبدِهِ القِنِّ
نَظُنُّ لنا الدنيا وما في رحابِها — وليستْ لنا إلّا كما البحرُ للسفنِ
تروحُ وتغدو حرّةً في عُبابِهِ — كما يتهادى ساكنُ السجنِ في السجنِ
وَزَنْتُ بسرِّ الموتِ فلسفةَ الورى — فشالتْ وكانتْ جعجعاتٍ بلا طحنِ
فأصدقُ أهلِ الأرضِ معرفةً به — كأكثرهم جهلاً يُرَجِّمُ بالظنِّ
فذا مثلُ هذا حائرُ اللبِّ عندَه — وذاكَ كهذا ليسَ منهُ على أمنِ
فيا لكَ سِفراً لم يزلْ جدَّ غامضٍ — على كثرةِ التفصيلِ في الشرحِ والمتنِ
أيا رمزَ لبنانٍ جلالاً وهيبةً — وحصنَ الوفاءِ المَحْضِ في ذلكَ الحصنِ
ضريحُكَ مهما يستقرُّ وبلدةٌ — أقمتَ بها تبني المحامدَ ما تبني
أحبُّ منَ الأبراجِ طالتْ قِبابُها — وأجملُ في عيني من أجملِ المدْنِ
على ذلكَ القبرِ السلامُ فذكرُه — أريجٌ به نفسي عنِ العطرِ تستغني

لا أنت ولا أنا

قلتُ : السعادةُ في المنى فرددتني — وزعمتَ أنَّ المرءَ آفتُهُ المُنى

ورأيتُ في ظلِّ الغِنى تمثالَها — ورأيتَ أنتَ البؤسَ في ظلِّ الغِنى

ما لي أقولُ بأنهـــا قد تُقتنى — فتقولُ أنتَ بأنها لا تُقتنى ؟

وأقولُ إنْ خُلقتْ فقد خُلقتْ لنا، — فتقولُ إنْ خُلقتْ فلم تُخلقْ لنا ؟

وأقولُ إني مؤمنٌ بوجودها — فتقولُ ما أحراكَ أنْ لا تؤمنا؟

وأقولُ سرٌّ سوفَ يُعلنُ في غدٍ — فتقولُ لا سرٌّ هناك ولا هنا؟

يا صاحبي، هذا حوارٌ باطلٌ — لا أنتَ أدركتَ الصوابَ ولا أنا

•

قف يا قطار بنا

ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقامتها مؤسسة وطنية في مدينة (كانتون) أوهايو.

منذُ افترقنا لم أذقْ وسَنا — للهِ ما صَنعَ الفراقُ بنا

قُلْ للخليّينَ الهناءُ لكم — ألحبُّ قد خلقَ العذابَ لنا

لم أنسَ قولَتَها التي ملأتْ — نفسي أسى وجوانحي شجَنا

ماذا جنَيْنا كي تفارقَنا — أمللتَنا وسئمتَ صُحبتَنا

فأجبتُها بلسانِ مُعتذرٍ — لم تجني أنتِ ولا مللتُ أنا

لكنْ رأيتُ الماءَ منطلقاً — رياً، فإنْ هو لم يسِرْ أجنا

والسيفُ إنْ طالَ الثواءُ بهِ — يصدأ ويصبحْ حدُّهُ خَشِنا

والسحبُ إنْ وقفتْ وما هطلتْ — لم تروِ أوديةً ولا قِننا

إنَّ الحياةَ مع الجمودِ قذًى — ومعَ الحراكِ بشاشةٌ وهَنا

لا تعذليني فالقُرى أرَبي — حيثُ الحياةُ رغائبٌ ومُنى

حيثُ النجومُ تلوحُ سافرةً — لم تلتحفْ سِتراً ولا كفنا

والفجرُ ملءَ جيوبِهِ أرَجٌ والطيرُ يملأُ شدوُها الوُكُنا

وعلى الرُّبى الأطلالُ راقصةٌ ويَدُ النسيمِ تُداعِبُ الغُصُنَا

ويحَ المدائنِ إنّ ساكنَها كالميتِ لم يُطمَرْ ولا دُفِنَا

كم رُحتُ أستَسقي سحائبَها فَهمَتْ ولكنْ محنةً وضنى

ولكمْ سهرتُ فلم أجدْ قمراً ولكمْ شدوتُ فلم أجدْ أذُنا

لو كانَ يألفُ بلبلٌ غَرِدٌ قفصاً، أحبَّ الشاعرُ المدُنا

كَرِهَ الورَى طولَ المُقامِ بها فاستنبطوا العجلاتِ والسُفُنَا

ولقد ظفرتُ بمركبٍ لجبٍ فخرجتُ أطوي السهلَ والحَزَنا

والشوقُ يدفعهُ ويدفعني حتى بلغتُ المنزلَ الحَسَنا

. . .

قفْ، يا قطارُ، على ربوعهمُ إنّ الأحبةَ، يا قطارُ... هُنا

هذي منازلُهمْ تهشُّ لنا أخطأتَ... بلْ هذي منازلُنا

ما حلَّ منهمْ موضعاً أحدٌ إلا وصارَ لكلِّنا وَطَنا

«سوريةٌ» في «كانتن» نغمٌ عذبٌ، «ولبنانٌ» شذىً وسَنا

إنْ تنطفِىءْ زُهرُ النجومِ ففي هذي الوجوهِ عنِ النجومِ غِنَى

وإذا الحياةُ طوَتْ محاسنَها عني، وصارَ نعيمُها مِحَنا

مثّلتهمْ في خاطري، فإذا دنيايَ فيها للسرورِ دُنَى

. . .

يا قومُ هذا اليومُ يومكمو من ينتهزْهُ ينلْ رضىً وثَنا

فلتنبسطْ أيديكمو كرماً ألـحبُّ أنفعُها الذي هَتَنا

أنا لا أرى مثلَ البخيلِ فتى يطوي ويهزلُ كلما سَمِنَا

من لا يشيدُ بمالِهِ أثَراً أو يستفيدُ بمـــالِهِ مِننا

ويعيشُ مثلَ العنكبوتِ يعِشْ

في النـــاسِ مذموماً وممتهَنا

فابنوا وشيدوا تُكرموا رَجُلا

كمْ قد سَعَى من أجلِكمْ وبنى

وطنٌ وأهلٌ لائذونَ بكمْ

أفتخذلونَ الأهلَ والوَطَنا؟

«قطَنا»، بنوكِ اليومَ قد نهضوا

فتمجدي ببنيكِ يا «قطَنا»

وطن النجوم

وَطَنَ النجومِ ... أنا هنا   حدِّقْ ... أتذكرُ من أنا ؟

ألمحتَ في الماضي البعيدِ   فتىً غريراً أرعنا ؟

جذلانَ يمرحُ في حقولِكَ   كالنسيمِ مُدندِنا

ألمقتنى المملوكُ ملعبُهُ   وغيرُ المُقتنى !

يتسلّقُ الأشجارَ لا ضجَراً   يحسُّ ولا وَنى

ويعودُ بالأغصانِ يَبريها   سيوفاً أو قنا [1]

ويخوضُ في وَحلِ الشتا   متهلّلاً متيمّنا

لا يتّقي شرَّ العيونِ   ولا يخافُ الألسنا

وَلَكَمْ تشيطَنَ كي يقولَ   الناسُ عنهُ « تشيطنا »

.

أنا ذلكَ الولَدُ الذي   دنياهُ كانتْ ههنا !

أنا مِنْ مياهِكَ قطرةٌ   فاضتْ جداولَ من سَنا

---

(١) القنا : الرمح .

أنا مِنْ ترابِكَ ذرّةٌ   ماجتْ مواكبَ من مُنى

أنا مِنْ طيورِكَ بلبلٌ   غنّى بمجدِكَ فاغتنى

حَمَلَ الطلاقةَ والبشاشةَ   من رُبوعِكَ للدُّنى

كمْ عانقتْ روحي رُباكَ   وصفّقتْ في المنحنى ؟

للأرزِ يهزأُ بالرياحِ   وبالدهورِ وبالفنا

للبحرِ ينشرُهُ بنوكَ   حضارةً وتمدُّنا

لليلِ فيكَ مصلّياً   للصبحِ فيكَ مؤذّنا

للشمسِ تُبطئ في وَداعِ   ذُراكَ كيلا تحزنا

للبدرِ في نيسانَ يكحلُ   بالضياءِ الأعينا

فيذوبُ في حدَقِ المهى   سحراً لطيفاً ليّنا

للحقلِ يرتجلُ الروائعَ   زنبقاً أو سوسنا

للعشبِ أثقلَهُ الندى ،   للغصنِ أثقلَهُ الجنى

عاشَ الجمالُ مشرّداً   في الأرضِ ينشدُ مسكنا

حتى انكشفتَ له فألقى   رحلَه وتوطّنا

واستعرضَ الفنُّ الجبالَ   فكنتَ أنتَ الأحسنا

للهِ سرٌّ فيكَ ، يا   لبنانُ ، لم يُعلِنْ لنا

خلقَ النجومَ وخافَ أن   تغوي العقولَ وتفتنا

فأعـــارَ أرزكَ مجدَهُ ... وجلالَهُ كـي نؤمنا

زعموا سَلوتكَ ... ليتهم ... نَسَبوا إليَّ الممكنا

فالمرءُ قد ينسى المسيءَ ... المفتري ، والمحسنا

والخمرَ ، والحسناءَ ، والوترَ ... المرنّحَ ، والغِنـا

ومرارةَ الفقرِ المذلِّ ... بلى ، ولذّاتِ الغِنى

لكنّهُ مهما سلا ... هيهاتِ يسلو الموطنا

•

فلسطين

ديارُ السلامِ ، وأرضُ الهنا ... يشقُّ على الكلِّ أنْ تحزنا

فخطْبُ فلسطينَ خطبُ العلى ... ومـا كانَ رزءُ العُلى هيِّنا

سَهِرْنا لهُ فكأنَّ السيوفَ ... تحزُّ بأكبادِنا ههنـا

وكيفَ يزورُ الكرى أعيناً ... ترى حولَهـا للرّدى أعينا ؟

وكيفَ تطيبُ الحياةُ لقومٍ ... تُسدُّ عليهمْ دروبُ المنى ؟

بلادهمْ عرضةٌ للضَّياعِ ... وأمّتهمْ عرضةٌ للفنـا

يُريدُ اليهودُ بأنْ يصلبوها ... وتأبى فلسطينُ أنْ تذعنا

وتأبى المروءةُ في أهلِهـا ... وتأبى السيوفُ ، وتأبى القَنَا

أأرضُ الخيـالِ وآياتِهِ ... وذاتُ الجلالِ ، وذاتُ السَّنا

تصيرُ لغوغائهمْ مسرحـاً ... وتغدو لشذّاذِهمْ مَكْمنا ؟

★

بنفسي «أردنُّها» السلسبيلُ   ومَنْ جاوروا ذلكَ الأُردنا

لقد دافعوا أمسِ دونَ الحمى   فكانتْ حروبهم حربنا

وجادوا بكلّ الذي عندهمْ   ونحنُ سنبذلُ مـا عندنا

فقـلْ لليهودِ وأشياعهم   لقد خدعتكمْ بُروقُ المنى

ألا ليْتَ «بلفورَ» أعطاكمُ   بلاداً لَهُ لا بلاداً لنـا

«فلندنُ» أرحبُ من قُدْسِنا   وأنتمْ أحبُّ إلى «لندنا»

ومنأكمْ وطناً في النجومِ   فـلا عربيٌّ بتلكَ الدنى

أيسلبُ قومَكمُ رشدَهمْ   ويدعوهُ قومكمُ محسنا ؟

ويدفعُ للموتِ بالأبرياء   ويحسبهُ معشرٌ ديِّنـا ؟

ويا عَجَباً لكمْ توغرونَ   على العَرَبِ «التامزَ والهدسنا»

وترمونهمْ بقبيحِ الكلامِ   وكانوا أحقَّ بضافي الثنا

وكلُّ خطيئاتهمْ أنهـمْ   يقولونَ : لا تسرقوا بيتنا

فليستْ فلسطينُ أرضاً مشاعاً   فتُعطى لمنْ شاء أنْ يسكنا

فإنْ تطلبوها بسمرِ القنا   نردُّكمُ بطوالِ القنـا

ففي العربيِّ صفاتُ الأنامِ   سوى أنْ يخافَ وأنْ يجبُنا

وإنْ تحجلوا بيننا بالخداعِ   فلنْ تخدعوا رجلاً مؤمنا

وإن تهجروها فذلكَ أولى   فإنَّ «فلسطينَ» مُلْكٌ لنا

وكانتْ لأجدادنا قبلنَا   وتبقى لأحفادِنا بعـدنا

وإنْ لكمْ بسواها غنًى   وليسَ لنـا بسواها غنى

فلا تحسبوها لكُمْ موطناً   فلمْ تكُ يوماً لكمْ موطنا

وليسَ الذي نَبْتغيهِ مُحالاً   وليسَ الذي رُمتمْ ممكنا

نصحناكمُ فارعووا وانبذوا   «بليفورَ» ذيَّالكَ الأرعنا

وإمّـا أبيتمْ فأوصيكمُ   بأنْ تحملوا معكمْ الأكفنا

فـإنّا سنجعلُ من أرضها   لنا وَطناً ولكمْ مدفنا !

•

الانسان والدين

إني عرفتُ منَ الانسانِ ما كانا   فلستُ أحمدُ بعدَ اليومِ إنسانا

بلوتُهُ وهوَ مشتدُّ القوى أسداً   صعبَ المراسِ وعندَ الضعفِ ثعبانا

تعودَ الشرَّ حتى لو نبتْ يدهُ   عنهُ إلى الخيرِ سهواً باتَ حسرانا

خِفهُ قديراً وخِفهُ لا اقتدارَ لهُ   فالظلمُ والغدرُ إمّا عزَّ أو هانا

ألقتلُ ذنبٌ شنيعٌ غيرُ مغتفرٍ   والقتلُ يغفرهُ الإنسانُ أحيانا

أحلَّ قتلَ نفوسِ السائماتِ لهُ   والطيرُ والقتلُ قتلٌ حيثما كانا

أذاقَ ذِئبَ الفلا من غدرهِ طُرفاً   فلا يزالُ مدى الأيامِ يقظانا

ونفّرَ الطيرَ حتى مـــا تلمُّ بهِ   إلّا كما اعتادتِ الأحلامُ وسنانا

سرورهُ في بكاءِ الأكثرينَ لهُ   وحزنُهُ أن ترى عيناهُ جذلانا

كأنّما المجدُ ربٌّ ليسَ يعطفهُ   إلّا إذا قدّمَ الأرواحَ قربانا

هوَ الذي سلبَ الدنيا بشاشتها   وراحَ يملأهـــا همّاً وأحزانا

لا تصطفيهِ وإنْ أثقلتهُ مِنناً   يعدو عليكَ وإنْ أولاكَ شكرانا

قالوا ترقّى سليلُ الطينِ قلتُ لهمْ   ألآنَ تمَّ شقاءُ العـــالمِ الآنا

إنَّ الحديدَ إذا ما لانَ صارَ مُدى   فكُنْ على حذَرٍ منهُ إذا لانا

والمرءُ وحشٌ ولكنْ حسنُ صورتهِ   أنسى بلاياهُ مَنْ سمّاهُ إنسانا

قدْ حاربَ الدينَ خوفاً من زواجرهِ   كأنَّ بينَ الورى والدينِ عدوانا

ورامَ يهدمُ ما الرحمنُ شيّدهُ   وليسَ ما شيّدَ الرحمنُ بنيانا

إني ليأخذُني مِن أمرهِ عجبٌ   أكلّما زادَ علماً زادَ كفرانا ؟

وكلّما انقادتِ الدنيا وصارَ لهُ   زمامُها انقادَ للآثامِ طغيانا ؟

يرجو الكمالَ منَ الدنيا وكيفَ لهُ   نيلُ الكمالِ منَ الدنيا وما دانا ؟

إذا ارتدى المرءُ في الأرضِ من بُردٍ   وعافَ للدينِ بُرداً عادَ عُريانا

هو الحياةُ التي ما غادرتْ جسداً   إلّا اغتدى الميتُ أحيامنهُ وجدانا

وهوَ الضياءُ الذي يمحو الظلامَ فمنْ   لا يهتدي بسناهُ ظلَّ حيرانا

والمنهلُ الرائقُ العذبُ الورودِ فمنْ   لا يستقي منهُ دامَ الدهرَ عطشانا

ليسَ المبذّرُ منْ يغلي دراهمهُ   إنَّ المبذّرَ منْ للدينِ ما صانا

ليسَ الكفيفُ الذي أمسى بلا بصرٍ   إني أرى منْ ذوي الأبصارِ عميانا

الفاتنة

يا رفيقي ... أنا لولا أنت ما وقّعتُ لحنا
كنتَ في سرّيَ لمـــا كنتُ وحدي أتغنى
ألبسُ الروضَ حلاهُ أنه يومـــاً سيُجنى
هذه أصداءُ روحي، فلتكنْ روحُكَ أذنا
إنْ تجدْ حسناً فخذه واطّرحْ ما ليسَ حسنا
إنَّ بعضَ القولِ فنٌ فاجعلِ الإصغاءَ فنـــا
تكُ كالحقلِ يردُّ الكيلَ للزارعِ طنا
ربَّ غيمٍ صار لمـــا لمسته الريح مزنا
وبما كنتُ غنياً غيرَ أني بكَ أغنى
ما لصوتٍ أغلقتْ من دونه الأسماعُ معنى
كلُّ نورٍ غـــيرُ نورٍ مرَّ بالأعينِ وسنى
يا رفيقي، أنت إن راعيتَ فجري صار أسنى
وإذا طفتَ بكرمي زدتهُ خصباً وأمنـــا
قد سكبتُ الخمرَ كي تشربَ، فاشرب مطمئنا

واسقِ مَنْ شئتَ كريماً لا تخفْ أن تتجنى
كلما أفرغتَ كأسي زدتُ في كأسيَ دنّا
فهي بالإنفاق تبقى وهي بالإمساك تفنى

...

لستَ مني إنْ حسبتَ الشعرَ ألفاظاً ووزنا
خالفتْ دربُكَ دربي وانقضى ما كان منا
فانطلقْ عني لئلا تقتني همـــاً وحزنا
واتخذْ غيري رفيقاً وسوى دنياي مغنى

وداع

ذَهَبَ الربيعُ ففي الخمائلِ وحشةٌ … مثلُ الكآبةِ مِنْ فِراقِكَ فينا
لو دمتَ لم تحزنْ عليهِ قلوبُنا … ولئنْ أضعْنا الوردَ والنّسرينا
فلقدْ وجدْنا في خلالِكَ زهرَهُ … المفترَّ والماءَ الذي يَرْوينا
ونسيمةُ الساري كأنفاسِ الرضى … وشعاعةُ يَغْشى المروجَ فتونا
حِزْتَ المحاسنَ في الربيعِ وفقتَهُ … إذ ليسَ عندكَ عوسجٌ يدمينا

***

يا أشهراً مرّتْ سِراعاً كالمنى … لو أستطيعُ جعلتكنَّ سنينا
وأمرتُ أنْ يقفَ الزمانُ عنِ السُّرى … كيلا تمرَّ بساعةٍ تبكينا
وتمدَّ أيدينا فترجعَ لم تُصِبْ … وتعودَ فوقَ قلوبِنا أيدينا
خوفاً عليها أنْ تساقطَ حسرةً … أو أن تفيضَ لواعجاً وشجونا
قد كنتُ خِلتُ الدهرَ حطّمَ قوسَهُ … حتى رأيتُ سهامَهُ تصمينا
فكأنما قد ساءَهُ وأمضَّهُ … أنّا تمتّعنا بقربِكَ حينا

مستشفى تل شيحا

أنشدها في مهرجان أقامته لجنة المستشفى في مدينة دترويت.

أباعثةَ المطايا مِنْ حديدٍ … كأسرابِ القَطا للعالمينا
ركائبُ في فِجاجِ الأرضِ تَسري … تُهِلُّ الذاهبينَ الآيبينا
تقصُّ على المدائنِ والقرايا … حكايةَ قومِكِ المستنبطينا
وكيفَ العقلُ يخلقُ من زريٍّ … مهينٍ لا زريَّ ولا مهينا
وينفخُ في الجمادِ قِوىً وحسّاً … فيركضُ تارةً ويطيرُ حينا
ويهتفُ بالقصائدِ والأغاني … وقد ذَهَبَ الردى بالمنشدينا
لقدْ حسدتْكِ أمُّ الفنِّ «روما» … كما حسدتْكِ ضرّتُها «أثينا»
فمجدُكِ فوقَ مجدِهما علاءً … وحسنُكِ فوقَ حسنِهما فتونا
نزلنا في حِماكِ فقرّبينا … وباركْتِنا ثراكِ فباركينا
فما لطاعةٍ بنضارِ «فوردٍ» … وفضّتهِ إليكِ اليومَ جينا
فما هوَ في سماحتِهِ «كمعنٍ» … وليستْ نوقُهُ للذابحينا
ولكنْ فيكِ إخوانٌ هوينا … لأجلِهم جميعَ الساكنينا

أحبُّونا كأنَّهمُ ذوونا — وأنسونا بلطفهمِ ذوينا
وعاهدناهمُ إذْ عاهدونا — فلمْ ننكثْ ولا نكثوا يمينا
إذا غضبوا على الدنيا غضبنا — وإنْ يرضوا على الدنيا رضينا
دعاهمْ للعلى والخيرِ داعٍ — من «الوادي» فلبُّوا أجمعينا
أيخذلُ «جارةَ الوادي» بنوها؟ — معاذَ اللهِ هذا لنْ يكونا
فما لاقيتُ «زحلياً» جباناً — ولا لاقيتُ «زحلياً» ضنينا
تأمَّلْ كيفَ أضحى «تلُّ شيحا» — يُحاكي في الجلالةِ «طورَسينا»
فَعَنْ هذا تحدَّرتِ الوصايا — وفي هذا وَجَدنا المُحسنينا
على جَنَباتهِ وعلى ذراهُ — جمالٌ يبهرُ المتأمّلينا
فلمْ أرَ مثلَهُ للخيرِ دنيا — ولمْ أرَ مثلَهُ فتحاً مبينا
فيا أشبالَ «لبنانَ» المفدّى — ويا إخواننا وبني أبينا
ترنَّحَ عصركمْ فخراً وهشَّتْ — لصنعكمُ عظامُ المائتينا
تبارى الناسُ في طَلَبِ المعالي — فكنتمْ في المجالِ السابقينا
بنى الأهرامَ «فرعونٌ» فدامتْ — لتخبرَ كيفَ كانَ الظالمونا
وكم أشقى الجموعَ الفردُ منهم — وكم طَمَسَ الألوفَ لكي يبينا
وشدتمْ معهداً في «تلِّ شيحا» — سيبقى ملجأً للبائسينا
يُطلُّ الفجرُ مبتسماً عليه — ويرجعُ مطمئناً مستكينا

ويمضي يملأُ الوادي ثناءً — عليكمْ، والأباطحَ والحزونا
أرى غيثَيْنِ يستبقانِ جوداً — هُما مطرُ السَّما والغائثونا
لئنْ حجبَ الغمامُ الشمسَ عنّا — فلمْ يطمسْ ضياءَ اللهِ فينا
ولمْ يسترْ سبيلَ الخيرِ عنكمْ — ولمْ يقبضْ أكفَّ الباذلينا
وجدتُ المرءَ حبُّ الخيرِ فيهِ — فإنْ يفقدْهُ صارَ المرءُ طينا
تكمَّشَ في الحقولِ الشوكُ بخلاً — فذلَّ وعاشَ مكتئباً حزينا
وأسنى الوردُ، إذْ أعطى شذاهُ، — مكانتَهُ فكنْ في الواهبينا
سألتُ الشعرَ أنْ يثني عليكمْ — فقالتْ لي القوافي: قد عيينا
سيجزيهمْ عن البؤساءِ ربٌّ — يكافىءُ بالجميلِ المحسنينا



الشاعر

الى روح خليل مطران

عندما أبدع هذا الكون ربُّ العالمينا
ورأى كل الذي فيه جميلاً وثمينا
خلق الشاعر . . .
كي يخلق للناس عيونا
تُبصر الحسن . . .
وتهواه حراكاً وسكونا
وزماناً ، ومكاناً ، وشخوصاً وشؤونا
فارتقى الخلق . . .
وكانوا قبله لا يرتقونا
واستمر الحسن في الدنيا ودام الحب فينا

•

انه روح كريم لبس الطين المهينا
ونبيّ بهر الخلق ومـــا أعلن دينا

يلمح النجم خفياً ، ويرى العطر دفينا
ويرينا الطُهر حتى في الجناة الآثمينا
ويحس الفرحَ الأسمى جريحاً أو طعينا
كلما شاعت دماه أملاً في البائسينا

•

مَن سواه ثائرٌ فيه وقار الناسكينا
من سواه عابد فيه جنون الثائرينا
من سواه عانقَ الله يقيناً لا ظنونا
من ترى إلاه يحيا نغماتٍ ولحونا
من ترى إلاه يفني ذاته . . .
في الآخرينا

•

لو أبى الله علينا وعليه ان يكونا
عادت الأرض وهاداً شاحباتٍ وحزونا
ترتدي الوحشة والهول ضباباً ودجونا
وأقاحيها هشيماً لا أريجاً وفتونا
وسواقيها سراباً هازئاً بالظامئينا

وشواديها دمى خرساء تؤذي الناظرينا

واستفاق الجدول الحالم غيظاً وجنونا

واستوى النهر على وجه الثرى جرحاً ثخينا

وانطوت دنيا الرؤى فيها . . .

ومات الحالمونا

•

أي وربي لو مضى الشاعر عنّا لشقينا

ولعشنا بعده في غصص لا ينتهينا

ولأمسى الله مثلَ الناس مغموماً حزينا !

•

زعموا ولّى ولن يرجع ... ويح الجاهلينا

لم يمت من كان لله خليلا وخدينا

عاش حيناً وسيحيا بعدما غاب قرونا

•

ماء وطين

سألتني وقَدْ رجعتُ إليها   وعلى مَفْرقي غبارُ السنينا :

أيّ شيءٍ وجدتَ في الأرضِ بعدي؟   قلتُ : إني وجدتُ ماءً وطينا

يجمع الحسنَ والدمامةَ والإقـ   ـدامَ والخوفَ والنهى والجنونا

والرجاء الذي يصيرُ به الفدْ   فدُ روضاً ، وشَوكُهُ نَسرينا

والقنوطَ الذي يعرّي من الأو   راقِ في نشوةِ الربيعِ الغصونا

ووجدتُ الهوى كما كانَ قِدْماً   يِقْظـةً تارةً ، وطوراً ظنونا

وشباباً سكرانَ من خمرةِ الوَهْمِ   يخـالُ المحالَ أمراً يقينا

فإذا شاختِ الرؤى وتلاشتْ   وصحا باتَ جزمهُ تخمينا

لا يزالُ الايمانُ نوعـاً منَ   الرّهبةِ ، والحسنُ للغرورِ خدينا

لا يزالُ الغنيُّ يختالُ في الأر   ضِ وإنْ كانَ جاهلاً مأفونا

كلُّ من قد لقيتُ مثلُكِ ، يا نفـ   ـسي ، في ما تُبدينَ أو تُخفينا

فانظري مرّةً إليكِ مليّـاً   تُبصري الأولينَ والآخِرينا

العميان

كم خفضنا الجناحَ للجاهلينا
وعذرناهمُ فما عذرونا
خبّروهم، يا أيها العاقلونا
إنما نحنُ معشرُ الشعراء يتجلّى سرُّ النبوةِ فينا

*

ذكروهم، فَرُبَّ خيرٍ كبيرِ
فعلتهُ الهداةُ بالتذكيرِ
إنما الناسُ من ترابٍ ونورِ
فبنو النورِ يَعْبدونَ النورا وبنو الطينِ يعبدونَ الطينا

*

قيلَ عنا قُصورنا من هَباءِ
تتلاشى في صحوةٍ ومساءِ

أو سطورٌ بالماء فوقَ الماءِ
لو سكنتم قصورَنا بعضَ ساعةْ لنسيتمْ شهورَكُمْ والسنينا

*

لو دخلتمْ هياكلَ الإلهامِ
وسرحتمْ في عالمِ الأحلامِ
واجتليتمْ سرَّ الخيالِ السامي
وعرفتمْ كما عرفنا اللهَ لخررتُمْ أمامنا ساجدينا

*

قد سقتْنا الحياةُ كأساً دِهاقا
حسُنَتْ نكهةً، وطابتْ مَذاقا
وسَقَيْنا مما شربْنا الرِّفاقا
فتركناهمُ حيارى سكارى يتمنونَ أنهمْ لا يعونا

*

همُّكُمْ في الكؤوسِ والأكوابِ
آهِ لو كانَ همُّكُمْ في الشرابِ
لطرحتمْ! عنكم قيودَ الترابِ
وشعرتمْ بلذةٍ أو عذابِ هذه الخمرُ ليتكُمْ تشربونا

*

أتقولونَ إنهُ مجنونٌ !

أتقولونَ إنهُ مفتونٌ !

أتقولونَ شاعرٌ مسكينٌ !

كم مليكٍ، كم قائدٍ، كم وزيرٍ ودَّ لو كانَ شاعراً مسكينا؟

★

عاش «ملتن» فلم يكنْ مذكورا

وهوميروسُ كالشيخ، كان ضريرا

ولقد ماتَ «ابنُ بردٍ» فقيراً

أرأيتمْ كما رأى العميانُ؟ أفلستمْ بنورهمْ تهتدونا؟

•

ابنة الفجر

أنا ان أغمض الحمام جفوني ... ودوى صوت مصرعي في المدينه

وتمشى في الأرض داراً فداراً ... فسمعت دويّه ورنينه

لا تصيحي واحسرتاه لئلا ... يدرك السامعون ما تضمرينه

وإذا زرتني وأبصرت وجهي ... قد محا الموت شكه ويقينه

ورأيت الصحاب جاثين حولي ... يندبون الفتى الذي تعرفينه

وتعالى العويل حولك ممن ... مارسوه وأصبحوا يحسنونه

لا تشقي على ثوبك حزنا ... لا ولا تذرفي الدموع السخينه

غالبي اليأس وأجلي عند نعشي ... بسكون، إني أحب السكينه

إن للصمت في المآتم معنى ... تتعزى به النفوس الحزينه

ولقول العذال عنك (بخيل) ... هو خير من قولهم (مسكينه)

وإذا خفت ان يثور بك الوجد ... فتبدو أسرارنا المكنونه

فارجعي واسكبي دموعك سراً ... وامسحي باليدين ما تسكبينه

***

يا ابنة الفجر من أحبك ميت   ولأنت بمثل هذا مهينه

زايل النور مقلتيه وغابت   تحت أجفانه المعاني المبينه

فأصيخي ! هل تسمعين خفوقاً   كنت قبلاً في صدره تسمعينه؟

وانظري ثم فكري كيف أمسى   ليس يدري عدوّه وخدينه

ساكناً لا يقول شيئاً ولا يسـ   ـمع شيئاً وليس يبصر دونه

لا يبـالي أأودعوه الثريا   أم رموه في حمـأة مسنونه

وإذا الحارسان ناما عياء   ورأيت أصحابه يتركونه

فتعـالي وقبلي شفتيه   ويديه وشعره وجبينه

قبل أن يسدل الحجاب عليه   ويُواري عنك فلا تبصرينه

واحذري ان تراك عين رقيب   ولئن كان جل مـا تحذرينه

فاذا مـا أمنت لا تتركيه   قبلما يفتح الصباح جفونه

***

وإذا الساعة الرهيبة حانت   ورأيت حرّاسه يحملونه

وسمعت الناقوس يقرع حزنا   فيردُّ الوادي عليه أنينه

زوّدي الراحل الذي مات وجداً   بالذي زوّد الغريق السفينه

نظرة تعـلم السماوات منها   أنه مات عن فتـاة أمينه

***

طوت الأرض من طوى الأرض حياً   وعلاه من كان بالأمس دونه

واختفى في التراب وجه صبيح   وفؤاد حرٍ ونفسٌ مصونه

وإذا ما وقفت عند السواقي   وذكرت وقوفه وسكونه

حيث أقسمت أن تدومي على العهـ   ـد وآلى بـأنه لن يخونه

حيث علمته القريض فأمسى   يتغنى كي تسمعي تلحينه

فاذكريه مع البروق السواري   واندبيه مع الغيوث الهتونه

وإذا ما مشيت في الروض يوماً   ووطأت سهوله وحزونه

وذكرت مواقف الوجد فيه   عندما كنت بالهوى تغرينه

حيث علمته الفتون فأضحى   يحسب الأرض كلها مفتونه

حيث وسدته يمينك حتى   كاد ينسى شماله ويمينه

حيث كنت وكان يسقيك طوراً   من هواه وتارة تسقينه

حتى حاك الربيع للروض ثوباً   كان أحلى لديه لو ترتدينه

فالثمي كل زهرة فيه إني   كنت أهوى زهوره وغصونه

ثم قولي للطير : مات حبيبي !   فلماذا يا طير لا تبكينه ؟

***

وإذا ما جلست وحدك في الليـ   ـل وهاجت بك الشجون الدفينه

ورأيت الغيوم تركض نحو الغر   ب ركضاً كأنهـا مجنونه

ولحظت من الكواكب صداً ... ونفاراً وفي النسيم خشونه
فغضبت على الليالي البواقي ... وحننت إلى الليالي الثمينه
فاهجري المخدع الجميل وزوري ... ذلك القبر ثم حيي قطينه
وانثري الورد حوله وعليه ... واغرسي عند قلبه ياسمينه

كلوا واشربوا

كُلوا واشربوا أيُّها الأغنياءُ ... وإن مَلأَ السِكَكَ الجائعونْ
ولا تلبسوا الخزَّ إلّا جديداً ... وإن لَبِسَ الخِرَقَ البائسونْ
وحوطوا قُصورَكُمْ بالرجالِ، ... وحوطوا رِجالَكُمْ بالحصونْ
فلا تُبصرونَ ضحايا الطوى ... ولا يُبصرونَ الذي تَصنعونْ
وإن ساءكُمْ أنَّهمْ في الوجودِ ... وأزعجكمْ أنَّهمْ يُعولونْ
مُروا فَتَصُولُ الجنودُ عليهمْ ... تعلّمهمْ كيفَ فَتْكُ المنونْ
فَهُمْ معتدونَ، وهمْ مجرمونَ، ... وهمْ مقلقونَ، وهمْ ثائرونْ
وتلكَ العِصيُّ لتلكَ الرؤوس ... وتلكَ الحرابُ لتلكَ البطونْ
وتلكَ السجونُ لِمَنْ شدتموها ... إذا لم تزُجّوهمُ في السجونْ؟
كُلوا للظبى حَلَقَ هاماتهمْ ... فإنَّ الملوكَ كذا يَفعلونْ
إذا الجندُ لم يحرسوكُمْ وأنتم ... سَراةُ البلادِ فمَنْ يحرسونْ؟
وإن هُمْ لم يَقتلوا الأشقياءَ ... فيا لَيتَ شعري مَنْ يقتلونْ؟
ولا يُحزِنُنكمْ مَوتُهمْ ... فإنّهمْ للردى يُولدونْ

وقولوا كَذَا قد أرادَ الإلَهُ ... وإنْ قدَّرَ اللهُ شيئاً يكونْ

ويا فقراءُ لماذا التشكّي ؟ ... ألا تستحونَ ؟ ألا تخجلونْ ؟

دعوا الأغنياء ولذّاتِهِمْ ... فهمْ مثلُ لذّاتهمْ زائلونْ

سيُمسونَ في «سقرٍ» خالدينَ ... وتُمسونَ في جنَّةٍ تَنعمونْ

فلا تعطشونَ، ولا تسغبونَ، ... ولا ترتوونَ، ولا تشبعونْ

لَكُمْ وحدَكُمْ ملكوتُ السماء ... فما بالُكُمْ لستمْ تقنعونْ ؟

فلا تحزنوا أنّكُمْ ساهرونَ ... فسوفَ تنامونَ ملءَ الجفونْ

ستُكْثون مَعَ الأنبياء ... تظلِّلُكُمْ وارفاتُ الغصونْ

يضوعُ السَّنا حولكُمْ بالشَّذى ... وتجري الطِّلا أنهراً وعيونْ

وتسقيكُمُ الخمرَ حُورٌ حسانٌ ... كما يشتهينَ، كما تشتهونْ

كذا وعَدَ اللهُ أهلَ التقى ... وأنتمْ هُمْ، أيُّها المتعبونْ

ألا تؤمنونَ بقولِ الكتابِ ؟ ... فوَيلٌ لكمْ إنّكمْ كافرونْ !

•

الى اللّه راجعون

بيني وبينَ العيونِ سِرٌّ

اللهُ في السرِّ والعيونْ

إذا عصَتْ فكرتي القوافي ... أوحتْ لِنفسي بها الجفونْ

***

هاتِ اسقِني الخمرَ جهراً

ولا تُبالِ بما يكونْ

إنْ كانَ خيرٌ أو كانَ شرٌّ ... إنّا الى اللهِ راجعونْ !!

•

المساء

ألسحبُ تركضُ في الفضاء الرّحبِ ركْضَ الخائفينْ
والشمسُ تبدو خلفَها صفراءَ عاصِبةَ الجبينْ
والبحرُ ساجٍ صامتٌ فيه خشوعُ الزاهدينْ
لكنّما عيناكِ باهتتانِ في الأفقِ البعيدْ
سلمى ... بماذا تفكرينَ ؟
سلمى ... بمــاذا تحلمينَ ؟

•

أرأيتِ أحلامَ الطفولَةِ تختفي خلفَ التُّخومْ ؟
أمْ أبصرتْ عيناكِ أشباحَ الكهولَةِ في الغيومْ ؟
أمْ خفتِ أن يأتي الدُّجى الجاني ولا تأتي النجومْ ؟
أنا لا أرى ما تلمحينَ منَ المشاهدِ إنّمــا
أظلالُها في ناظريكِ
تَنِمُّ ، يا سلمى ، عليكِ

إني أراكِ كسائحٍ في القفرِ ضلَّ عن الطريقْ
يرجو صديقاً في الفلاةِ ، وأينَ في القفرِ الصديقْ
يهوى البروقَ وضوءَها ، ويخافُ تخدعُهُ البروقْ
بلْ أنتِ أعظمُ حيرةً من فارسٍ تحتَ القتامْ
لا يستطيعُ الانتصارْ
ولا يطيقُ الانكسارْ

•

هذي الهواجسُ لم تكنْ مرسومةً في مقلتَيْكِ
فلقدْ رأيتُكِ في الضُّحى ورأيتُهُ في وجنتَيْكِ
لكنْ وجدتُكِ في المساءِ وضعتِ رأسَكِ في يديْكِ
وجلستِ في عينيكِ ألغازٌ ، وفي النفسِ اكتئابْ
مثلُ اكتئابِ العاشقينْ
سلمى ... بماذا تفكرينْ ؟

•

بالأرضِ كيفَ هوتْ عروشُ النورِ عن هضباتِها ؟
أمْ بالمروجِ الخُضْرِ سادَ الصمتُ في جنباتِها ؟

أمْ بالعصافيرِ التي تعدو إلى وكناتِها ؟
أمْ بالمسا ؟ إنَّ المسا يخفي المدائنَ كالقرى
والكوخُ كالقصرِ المكينْ
والشوكُ مثلُ الياسمينْ

•

لا فرقَ عندَ الليلِ بينَ النهرِ والمستنقعِ
يخفي ابتساماتِ الطروبِ كأدمعِ المتوجِّعِ
إنَّ الجمالَ يغيبُ مثلُ القبحِ تحتَ البُرقعِ
لكنْ لماذا تجزعينَ على النهارِ وللدجى
أحلامُهُ ورغائبُهْ
وسماؤهُ وكواكبُهْ ؟

•

إنْ كانَ قد سَتَرَ البلادَ سهولَها ووعورَها
لم يسلُبِ الزهرَ الأريجَ ولا المياهَ خريرَها
كلا ، ولا منعَ النسائمَ في الفضاءِ مسيرَها
ما زالَ في الوَرَقِ الحفيفُ وفي الصَّبا أنفاسُها

والعندليبُ صداحُهُ
لا ظفرُهُ وجناحُهُ

•

فاصغَيْ إلى صوتِ الجداولِ جارياتٍ في السفوحْ
واستنشقي الأزهارَ في الجنَّاتِ ما دامتْ تفوحْ
وتمتَّعي بالشُّهْبِ في الأفلاكِ مـا دامتْ تلوحْ
من قبلُ أنْ يأتي زمانٌ كالضبابِ أو الدخانْ
لا تبصرينَ به الغديرْ
ولا يَـلَذُّ لكِ الخريرْ

•

لتكنْ حياتُكِ كلها أملاً جميلاً طيِّبا
ولتملإِ الأحلامُ نفسَكِ في الكهولةِ والصِّبا
مثلُ الكواكبِ في السماءِ وكالأزاهرِ في الرُّبى
ليكنْ بأمرِ الحبِ قلبُكِ عالماً في ذاتِهِ
أزهارُهُ لا تذبلُ
ونجومُهُ لا تأفلُ

•

ماتَ النهارُ ابنُ الصباحِ فلا تقولي كيفَ ماتْ

إنَّ التأملَ في الحيــاةِ يَزيدُ أوجاعَ الحياةْ
فدعي الكآبةَ والأسى واسترجعي مَرَحَ الفتاةْ
قد كانَ وجهُكِ في الضحى مثلَ الضحى متهلّلا
فيه البشاشةُ والبهــاء
ليكنْ كذلكَ في المساء



مقلتان

رأيتُ في عينيكِ سِحْرَ الهوى
مندفقاً كالنورِ من نجمتَينْ
فبتُّ لا أقوى على دَفْعِهِ
مَن رَدَّ عنهُ عارضاً باليدَينْ
يا جنّةَ الحبِّ ودنيــا المنى
ما خِلْتُني ألقاكِ في مقلتَينْ

•

الشاعر والملك الجائر

١

أمرَ السلطانُ بالشاعرِ يوماً فأتاهْ
في كساءٍ حائلِ الصِّبغةِ واهٍ جانباهْ
وحذاءٍ أوشكتْ تفلتُ منهُ قدماهْ
قالَ : صِفْ جاهي ، ففي وصفِكَ لي للشعرِ جاهْ
إنَّ لي القصرَ الذي لا تبلُغُ الطيرُ ذُراهْ
وليَ الروضُ الذي يعبَقُ بالمسكِ ثراهْ
وليَ الجيشُ الذي ترشحُ بالموتِ ظِباهْ
وليَ الغاباتُ والشمُّ الرواسي والمياهْ
وليَ الناسُ ... وبؤسُ الناس مِني والرفاهْ
إنَّ هذا الكونَ ملكي ، أنا في الكونِ إلهْ !

٢

ضَحِكَ الشاعرُ مما سمعتْهُ أذناهْ
وتمنّى إنْ يُداجي فعصتْهُ شفتاهْ

قال : إني لا أرى الأمرَ كما أنتَ تراهْ
إنَّ ملكي قد طوى ملكَكَ عني وَمحاهْ

* * *

ألقصرُ ينبيءُ عن مهارةِ شاعرٍ لَبِقٍ ، ويخبرُ بعدهُ عنكا
هوَ للأُلى يَدرونَ كُنْهَ جمالِهِ فـإذا مضوا فكأنهُ دُكّا
ستزولُ أنتَ ولا يزولُ جلالُهُ كالفُلكِ تبقى ، إنْ خَلَتْ ، فُلكا

* * *

والروضُ؟ إنَّ الروضَ صَنعةُ شاعرٍ سَمْحٍ ، طروبٍ ، رائقٍ ، جزلِ
وشّى حواشيَهُ وزيَّنَ أرضَهُ بروائعِ الألوانِ والظلِّ
لفراشةٍ تحيـا لهُ ، ولنحلةٍ تحيا بهِ ، ولشاعرٍ مثلي !
ولديمةٍ تَذري عليهِ دموعَها كيما تَقيهِ غوائلَ المَحـلِ
ولبلبلٍ غَرِدٍ يساجلُ بلبلاً غرداً ، وللنسماتِ والظلِّ
فإذا مضى زَمَنُ الربيعِ أضعتَهُ وأقـامَ في قلبي وفي عقلي !

* * *

والجيشُ معقودٌ لواؤكَ فوقهُ مـا دمتَ تكسوهُ وتطعمهُ
للخبزِ طاعَتُهُ وَحُسْنُ ولائهِ هو «لاتُهُ» الكبرى و «بَرْهَمُهُ»
فإذا يجوعُ بظلِّ عَرْشِكَ ليلةً فهو الذي بِيَدَيْهِ يحطِمُهُ

لكَ منه أسيفةٌ، ولكنْ في غدٍ   لسواكَ   أسيفةٌ   وأسهمهُ
أتراهُ سارَ إلى الوَغى متهللاً   لولا الذي الشعراء تنظِمهُ ؟
وإذا ترنَّمَ هل بغيرِ قصيدةٍ   من شاعرٍ مثـــلي ترنَّمهُ ؟

***

والبحرُ ، قد ظفرتْ يداكَ بدرِّهِ
وحصاهُ ، لكنْ هل ملكتَ هديرَهُ ؟
هُوَ للدجى يلقي عليهِ خشوعهُ
والصبحُ يسكبُ ، وهو يضحكُ ، نورَهُ
أمزجتَ أنتَ مياهَهُ ؟ أصبغتَ أ:
تَ رمالَهُ ؟ أجبلتَ أنتَ صخورَهُ ؟

هوَ للرياحِ تهزُّهُ وتثيرُهُ   والشهبُ تسمعُ في الظلامِ زئيرَهُ
للطيرِ هـــائمةً بِهِ مفتونةً   لا للذينَ يروِّعون طيورَهُ
للشاعرِ المفتونِ يخلقُ لاهياً   من مَوْجِهِ حُوراً ويعشقُ حورَهُ
ولمنْ يشاهدُ فيهِ رمزَ كيانِهِ   ولمنْ يجيدُ لغيرِهِ تصويرَهُ
يا مَنْ يصيدُ الدرَّ من أعماقِهِ   أخذتْ يداكَ من الجليلِ حقيرَهُ
لا تدَّعيهِ... فليسَ مُلكَكَ، إنهُ   كالروضِ جهدُكَ أن تشمَّ عبيرَهُ

***

ومررتُ بالجبلِ الأشمِّ فما زوى   عني محاسنَهُ ولستُ أمـــيرا
ومررتَ أنتَ فما رأيتَ صخورَهُ   ضحكتْ ولا رقصتْ لديكَ حبورا
ولقد نقلتُ لنملةٍ مـــا تدَّعي   فتعجبتْ، مما حكيتَ، كثيرا
قالتْ: صديقُكَ مايكونُ؟ أقشعماً   أم أرقماً؟ أم ضيغماً هيصورا؟
أيحوكُ مثلَ العنكبوتِ بيوتَهُ   حَوْكاً؟ ويَبني كالنسورِ وكورا؟
هل يملأُ الأغوارَ تِبْراً كالضحى   ويردُّ كالغيثِ المواتَ نضيرا؟
أيلفُّ كالليلِ الأباطحَ والربى   والمنزلَ المعمورَ والمهجورا؟
فأجبتُها: كلّا! فقالتْ: سَمِّهِ   في غيرِ خوفٍ ،كاتناً مغرورا!

٣

فاحتدمَ السلطانُ أيَّ احتدامْ   ولاحَ حبُّ البطشِ في مقلتيهْ
وصاحَ بالجلّادِ: هاتِ الحسامْ!   فأسرعَ الجلّادُ يسعى إليهْ
فقالَ: دحرجْ رأسَ هذا الغلامْ   فرأسُهُ عبءٌ على منكبيهْ

***

قد طُبعَ السيفُ لحزِّ الرقابْ   وهذهِ رقبـــةُ ثرثارِ
أقتلهُ... واطرحْ جسمَهُ للكلابْ   ولتذهبِ الروحُ إلى النـــارِ

***

سمعاً وطوعاً، سيدي!.. وانتضى   عَضْباً يموجُ الموتُ في شفرتيهْ
ولم يكُنْ إلا كبرقٍ أضا   حتى أطارَ الرأسَ عن منكبيهْ

فسقطَ الشاعرُ مُغرَوْرِضا   يَخدشُ الأرضَ بكلتا يديهْ
كأنّما يبحثُ عن رأسهِ   فاستضحكَ السلطانُ من سجدتهْ
ثم استوى يهمسُ في نفسه   «ذو جِنّةٍ، أمسى بلا جنّتهْ»

***

أجلْ، هكذا هلكَ الشاعرُ   كما يهلكُ الآثمُ المذنبُ
فما غصّ في روضةٍ طائرٌ   ولم ينطفىء في السما كوكبُ
ولا جزعَ الشجرُ الناضرُ   ولا اكتأبَ الجدولُ المُطرِبُ
وكوفِىءَ عن قتلهِ القاتلُ   بمالٍ جزيلٍ وخدٍّ أسيلْ
فقالَ لهُ خُلقهُ السافلُ:   ألا ليتَ لي كلَّ يومٍ قتيلْ!

٤

في ليلةٍ طامسةِ الأنجمِ   تسلَّلَ الموتُ إلى القصرِ
بين حرابِ الجندِ والأسهمِ   والأسيفِ الهنديّةِ الحمرِ
إلى سريرِ الملكِ الأعظمِ   إلى أميرِ البرِّ والبحرِ!!
ففارقَ الدنيا ولمّا نزَلْ   فيها خمورٌ وأغاريدُ
فلم يمُدْ حزناً عليهِ الجبَلْ   ولا ذوى في الروضِ أملودُ

٥

في حومةِ الموتِ وظلِّ البِلى   قد التقى السلطانُ والشاعرُ

هذا بلا مجدٍ، وهذا بلا   ذلٍّ، فلا باغٍ ولا ثائرُ
عانقت الأسمالُ تلك الحلى   واصطحبَ المقهورُ والقاهرُ

*

لا يجزع الشاعرُ أن يُقتلا   ليس وراء القبرِ سيفٌ ورمحْ
ولا يبالي ذاك أن يُعذلا   سِيّانِ عند الميتِ ذمٌّ ومدحْ

٦

وتوالتِ الأجيالُ تطّردُ   جيلٌ يغيبُ وآخرٌ يفدُ
أخنت على القصر المنيف فلا   الجدرانُ قائمةٌ ولا العُمُدُ
ومشتْ على الجيشِ الكثيفِ فلا   خيلٌ مسوّمةٌ ولا زردُ
ذهبت بمن صلُحوا ومن فسَدوا   ومضت بمن تعِسوا ومن سَعِدوا
وبمن أذابَ الحبُّ مهجتَهُ   وبمن تأكّلَ قلبَهُ الحسدُ
وطوت ملوكاً ما لهم عددُ   فكأنهم في الأرض ما وُجِدوا
والشاعرُ المقتولُ باقيةٌ   أقوالُهُ فكأنّها الأبدُ
الشيخُ يلمسُ في جوانبها   صوَرَ الهوى والحِكمةَ الولدُ

•

في قلبك الله

مرّتْ ليالٍ وقلبي حائرٌ قلِقٌ … كالفُلْكِ في النهرِ هاجَ النوءُ مجراهُ

أو كالمسافرِ في قفرٍ على ظمأٍ … أضنى المسيرُ مطاياهُ وأضناهُ

لا أدركُ الأمرَ أهواهُ وأطلبهُ، … وأبلغُ الأمرَ نفسي ليسَ تهواهُ

عَجِبْتُ من قائلٍ إني نسيتكمُ … من كانَ في القلبِ كيفَ القلبُ ينساهُ؟

إن كنتُ بالأمسِ لم أهبطْ مربعَكُمْ … فالطيرُ يقعدُ موثوقاً جناحاهُ

فــلا يقرِّبُهُ شوقٌ إلى نَهَرٍ … وليسَ تنقلهُ في الرّوضِ عيناهُ

وليسَ يشكو ولا يبكي مخافةَ أنْ … تؤذي مسامعَ مَنْ يهوى شكاواهُ

إني لأعجبُ منا كيفَ تخدعُنا … عَنِ الحقائقِ أمثالٌ وأشباهُ

إذا بنى رَجلٌ قصراً وزخرفَهُ … شُقنا إليه التهاني وامتدحناهُ

وما بنى قصرَهُ إلا ليحجُبَ عن … أبصارِنا في زواياهُ خطاياهُ

ونمدحُ المرءَ من خزٍّ ملابسِهِ … وذلكَ الخزُّ لم تَنْسجْهُ كفّاهُ

وإنْ أتانا أخو مالٍ يكاثرُنا … بالتِّبرِ تيهاً رَجَوْناهُ وخفناهُ

وقد يكونُ نضارُ في خزائنِهِ … دماً سفكناهُ أو جَهداً بذلناهُ

لا تحسبِ المجدَ ما عيناكَ أبصرتا … أو ما ملكتَ هو السلطانُ والجاهُ

المالُ مولاكَ ما أمسكتهُ طمعاً … فأنفقْهُ في الخيرِ تُصبحْ أنتَ مولاهُ

ما دامَ قلبُكَ فيهِ رحمةٌ لأخٍ … عانٍ، فأنتَ امرؤٌ في قلبِكَ اللهُ

الإله الثرثار

زعمَ المرءُ أنما هُوَ ربٌّ ... كمْ يلوكُ الكلامَ هذا الالهُ

يلفظُ البحرُ وهو ملحٌ أجاجٌ ... لؤلؤاً يبهرُ العيونَ سناهُ

ما ادّعى الدرُّ أنه صورة البحـ ... ـرِ ولا قالَ: إنني إيّاهُ

لا ولا قالَ كلُّ شيءٍ إلى المحـ ... ـوِ وما خصَّ بالخلودِ سواهُ

إنْ تكنْ للخلودِ ذاتكَ في الد ... نيا، فما ذا الأمرُ الذي تهواهُ

وإذا صرتَ غيرَ شخصِكَ في الأُ ... خرى فهذا الفنا الذي تخشاهُ

في الترابِ الذي تدوس عليه ... ألفُ دنيا وعالمٍ لا تراهُ

أنت جزءٌ من الكيانِ وفيه ... كثَراهُ، كنَبْتِهِ، كحصاهُ

كالورودِ التي تحبُّ شذاها ... والبعوضِ الذي تخافُ أذاهُ

ما الحيُّ بالموتِ عنه انفصالُ ... إنَّ دنياهُ هذهِ أخراهُ

•

رأي الأكثرية

لما سألتُ عن الحقيقةِ قيلَ لي ... ألحقُّ مـا اتّفقَ السوادُ عليهِ

فعجبتُ كيفَ ذبحتُ ثوري في الضحى ... والهند ساجدةٌ هناكَ لديهِ

نرضى بحكمِ الأكثريةِ مثلما ... يرضى الوليدُ الظلمَ من أبويهِ

إمّـا لغنمٍ يرتجيه منهما ... أو خيفةً من أنْ يُساءَ إليهِ

•

ليل الأشواق

رُبَّ ليلٍ نجومهُ ضاحكاتٌ ... مثلَ أحلامِ غادةٍ في صباها
لمستْ إصبعُ السكينةِ أشوا ... قي فهبّتْ مذعورةً من كراها
كطيورٍ في الأسْرِ تبغي انعتاقاً ... قبلَ أن يُفسِدَ الإسارُ لُغاها
أبِقَ النومُ ، فانطلقتُ إلى النهرِ ... بنفسٍ كادتْ تسيلُ دماها
ومعي صاحبٌ رقيقُ الحواشي ... تجدُ النفسُ في رُؤاهُ رؤاها
إنْ دَجتْ ليلةٌ أراكَ ضحاها ... أو ذوت زهرةٌ أراكَ شذاها

. . .

قالَ : ما أجملَ الكواكبَ ! ما ... أحلى سناها ! فقلتُ : ما أحلاها !
قالَ : لا شوقَ ، لا صبابةَ لولا ... ها ! فتمتمتُ قائلًا : لولاها !
قالَ : هل تشتهي الوصولَ إليها؟ ... قلتُ : إني لا أشتهي إلّاها !

. . .

كانَ طرفي يجولُ في العالمِ الأ ... على وروحي تجولُ في مغناها

وجليسي يظنّ في الشهْبِ قصدي ... وأنا أحسَبُ الجليسَ عناها
قالَ : والنهرُ كَمْ طوى من صَبابا ... تٍ ! فأطرقتُ أستشفُّ المياها
فإذا النهرُ فيهِ رعشةُ روحي ... حينَ يدوي فيها صدى ذكراها
قالَ: والليلُ ... قلتُ: حسبُكَ إعنا ... تُ لنفسي ، وحَسْبُ نفسي دجاها
فانقطعنا عَنِ الكلامِ وبِتْنا ... كلُّ نفسٍ لِذاتِها نجواها

. . .

خِلتُ أني إذا بَعِدتُ سأنسا ... ها ويطوي الزمانُ سفرَ هواها
وتوهّمتُ أنني سوفَ ألقى ... ألفَ ليلى وألفَ هندٍ سواها
فإذا الحبُّ كالفضاءِ ، وقلبي ... طائرٌ في الفضاءِ ضلّ وتاها
أنا في عالمٍ قَصِيٍّ سَحيقٍ ... لا أراها ، لكنّ روحي تَراها
قد نشقتُ الأزهارَ في كلِّ أرضٍ ... يا شذاهُنَّ لستَ مثلَ شذاها !
كيفَ أنسى وأينما سِرتُ في الد ... نيا أراني أسيرُ في دنياها
وإذا ما لمحتُ في الأرضِ حسناً ... فكأني لمحتُها إياها
وإذا داعبَ النسيمُ ردائي ... قلتُ : قد علّمتهُ هذا يداها !
هيَ أدنى من الأماني إلى قلـ ... ـبي ، وقلبي يصيحُ : ما أقصاها !
لستُ أشكو النوى مَلالًا ولكن ... طربُ الروحِ أن تُذيعَ جواها

. . .

قالَ قومٌ: إنّ المحبّةَ إثمٌ !   ويحَ بعضِ النفوسِ ما أغباها

إنّ نفساً لم يُشرقِ الحبُّ فيها   هيَ نفسٌ لم تدرِ ما معناها

خوّفوني جهنّماً ولظاها   أيُّ شيءٍ جهنّمٌ ولظاها ؟

ليسَ عند الإلهِ نارٌ لذي حبٍّ،   ونارُ الإنسانِ لا أخشاها !

أنا بالحبِّ قد وصلْتُ إلى نفسي،   وبالحبِّ قد عرفْتُ اللهَ !

أُم القرى

هذه «ملفردُ»[1]، قد لاحتْ رُباها   فانسَ، يا قلبُ، الليالي وأذاها

واشهدِ الفنَّ سفوحاً وذُرى   والهوى الصافي أريجاً ومياها

ههنا أودعتُ أحلامَ الصبا   أفـما تلمحُ نوراً في ثراها ؟

ههنا بالأمسِ في داريّها   كنتُ مثلَ النسرِ حراً في ذراها

أتلقى الوحيَ عن بلبلِها   وهو ولهانُ يغني لرباها

وتحسُّ الوحيَ روحي هابطاً   من سماها في ضحاها ومساها

ذهبتْ عشرون في فرقتِها   ليتها فيها انقضتْ لا في سواها

كم جلسنا تحتَ صفصافتِها   أشتكي وجدي وتشكو لي هواها

والسواقي استترتْ إلّا غناها   والروابي هجعتْ إلّا شذاها

والصدى في الغابِ لم تنبسْ معاً   نسبةً إلا وعاها وحكاها

نتناجى ويدي في يدها   فـإذا لاحَ خيالٌ نتلاهى

(١) هي ملفرد في ولاية بنسلفانيا حيث أقام الشاعر في صباه وخطب فتاة أحلامه وعاد اليها في [illegible]ى الشتاء.

أنا دنيا من شبابٍ وهوًى ... وهي كالروضةِ قد تمت حلاها
أحسنُ الأيامِ في العصرِ انقضتْ ... آهِ لو ينشرُها من قد طواها
صرتُ في نيويوركَ طيفاً شارداً ... مع طيوفٍ حائراتٍ في سراها
طرحتْ عنها رؤاها ومضتْ ... تنشدُ المجد الذي فيه شقاها
كنعاجٍ عميتْ أبصارُها ... ووهتْ في طَلَبِ العشبِ قواها
كلما جدّتْ لكي تدركَهُ ... وجدتهُ صارَ في الأرضِ وراها !
أينَ في نفسي رؤًى تسعدها ؟ ... سرقت نيويوركُ من نفسي رؤاها
في يدي أمري ولا أملكهُ ... ومعي ذاتي وأخشى أن أراها !
هذه « أم القرى » قفْ في حماها ... تسترحْ نفسيَ من بعضِ جواها
هنا الإنسانُ يلقى ذاتهُ ... هنا لا يحجبُ المالُ الإلها
لا تقلْ لي جنّتَها عاريةٌ ... فقرها عندي جميلٌ كغناها
لم يزلْ للصيفِ فيها عَبَقٌ ... وسماءُ الصيفِ ما زالتْ سماها
لا يزالُ الحبُّ في شلالها ... وبواديها حديثاً وانتباها
لم يجردْها الشتا من وشْيِها ... بل كساها روعةً فوقَ بهاها
فهي في ديباجةٍ من صبغهِ ... ما رآها أحدٌ إلا اشتهاها

اسألوها

اسألوها ، أو فاسألوا مضناها ... أيُّ شيءٍ قالتْ له عيناها ؟
فهوَ في نشوةٍ وما ذاقَ خمراً ... نشوةُ الحبِّ هذهِ إياها
ذاهلُ الطرفِ شاردُ الفكرِ ، لا يلمحُ حسناً في الأرضِ إلا رآها
ألسواقي لكي تحدّثَ عنها ... والأقاحي لكي تذيعَ شذاها
وحفيفُ النسيمِ في مسمعِ الأوراقِ نجوى تبثُّها شفتاها
يحسبُ الفجرُ قبسةً من سناها ... ونجومُ السماءِ بعضَ حلاها
وكذاكَ الهوى إذا حلَّ في الأرواحِ سارتْ في موكبٍ من رؤاها
كانَ ينهى عن الهوى نفسهُ الظمأى فأمسى يلومُ من ينهاها
لمسَ الحبُّ قلبَهُ فهو نارٌ ... تتلظى ويستلذُّ لظاها !
كلُّ نفسٍ لم يشرقِ الحبُّ فيها ... هيَ نفسٌ لم تدرِ ما معناها

حكاية حال

أَلْحَشْدُ مِلْءُ الدَّارِ لَكِنْ   لَمْ يَرَ أَحَداً سِوَاهَا
فَتَــاةٌ خَلَّابَةٌ   كَالْيَاسَمِينَةِ فِي شَذَاهَا
أَوْفَى عَلَيْهَا وَهِيَ تَخْطُــرُ   كَالْفَرَاشَةِ فَاشْتَهَاهَا
شَكَتِ الصَّبَابَةَ مُقْلَتَا   هُ فَجَاوَبَتْهُ مُقْلَتَاهَا
حَتَّى إِذَا مَا اخْتَارَ كُلٌّ   م، فَتًى رَفِيقَتَهُ اصْطَفَاهَا
وَرَأَتْ بِهِ مَنْ تَبْتَغِي   وَكَمَا رَآتْهُ كَذَا رَآهَا
وَتَقَدَّمَا لِلرَّقْصِ يَقْـــرَأُ   نَاظِرَيْهِ نَاظِرَاهَا
مُتَلَاصِقَيِ الْجِسْمَيْنِ يَسْنُــدُ   سَاعِدَيْهِ سَاعِدَاهَا
وَتَكَادُ لَوْلَا الْخَوْفُ تَلْمُــسُ   وَجْنَتَيْهِ وَجْنَتَاهَا
مُتَدَافِعَيْنِ كَمَوْجَتَيْــنِ،   خُطَاهُ تَتْبَعُهَا خُطَاهَا
يَمْشِي فَتَمْشِي وَهِيَ تَحْـــسَبُهُ   يَسِيرُ عَلَى حَشَاهَا
هِيَ فِي لِثَامٍ كَالدُّجَى   تُخْفِي كَذَا فَتَاهَا
لَكِنَّمَا الْأَلْحَاظُ تَخْـــتَرِقُ   السُّتُورَ وَمَا وَرَاهَا
فَاضَ الْغَرَامُ فَقَالَ آهٍ   وَقَالَتِ الْحَسْنَاءُ آهَــا

فَانْسَلَّ مِنْ أَصْحَابِهِ   سِرّاً، وَأَغْفَتْ جَارَتَاهَا
وَمَشَى بِهَا فِي رَوْضَةٍ   قَدْ نَامَ عَنْهَا حَارِسَاهَا
حَتَّى إِذَا أَمِنَا الْوَرَى
وَشَكَا الْهَوَى وَشَكَتْ هَوَاهَا
طَارَتْ بِبُرْقُعِهَا وَبُرْ   قُعِهِ عَلَى عَجَلٍ يَدَاهَا
كَيْمَا تُقَبِّلَ ثَغْرَهُ   وَيُقَبِّلَ الْمَعْشُوقُ فَاهَا
فَرَأَى الْمُتَيَّمُ بِنْتَهُ   وَرَأَتْ مَلِيحَتُنَا أَبَاهَا

•

الصيف

عادَ للأرضِ مَعَ الصيفِ صِباها ... فهي كالخَوْدِ التي تمّتْ حُلاها

صُوَرٌ من خُضرةٍ في نضرةٍ ... ما رآها أحدٌ إلا اشتهاها

ذَهَبُ الشمسِ على آفاقِها ... وسوادُ الليلِ مِسْكٌ في ثَرَاها

ونسيمُ الفجرِ في أشجارِها ... وشوشاتٌ يُطرِبُ النهرَ صَداها

والسواقي فِتَنٌ راقصةٌ ... ضِحْكُها شدوٌ وتهليلٌ بُكاها

والأقاحي صُوَرٌ خلابةٌ ... وأغاني الطيرِ شِعْرٌ لا يُضاهى

إنها الجنةُ فاعجبْ لامرىءٍ ... هُوَ فيها وقليلاً ما يَراها

أيها المعرضُ عن أزهارِها ... لكَ لو تعلمُ، يا هذا، شذاها

أيها النائمُ عن أنجمِها ... خَلَقَ اللهُ لِعينَيْكَ سَناها

أيها الكابحُ عن لذاتها ... نفسهُ، هيهاتِ لن تُعطى سواها

لا تُؤجِّلْ لِغَدٍ، ليسَ غدٌ ... غيرَ يومٍ كالذي ضاعَ وتاها

وإذا لم تُبصِرِ النفسُ المنى ... في الضحى كيفَ تَراها في مساها

هذه الجنةُ فاسرحْ في رُباها ... واشهدِ السحرَ زُهوراً ومِياها

واستمعْ للشِّعْرِ من بلبلِها ... فَهُوَ الشعرُ الذي ليسَ يُضاهى

. . .

ما أحيلى الصيفَ ما أكرمهُ ... مَلأَ الدنيا رَخاءً ورَفاها

عندما ردَّ إلى الأرضِ الصِّبا ... ردَّ أحلامي التي الدهرُ طواها

كنتُ أشكو مثلما تشكو الضنى ... فشَفَى آلامَ نفسي وشفاها

•

جرجي زيدان

ثَكِلَ الشَّرقُ فَتَاهُ لَيتني كُنتُ فِداهْ
ليتني كُنتُ أصَمّاً عِندَما النّاعي نعاهْ
قد نَعى النّاعونَ «زيداناً» إلى البَدرِ سَناهْ
وإلى التّاريخِ والعِلمِ أباهُ وأخاهْ !

. . .

سَرى نَعيُهُ فالدَّمعُ في كلِّ مِحجَرٍ   كأنَّ قلوبَ النّاسِ خلفَ المَحاجِرِ
وَللطَيرِ في الجَنّاتِ إرنانُ ثاكلٍ   وَللماءِ أنّاتُ الغَريبِ المُسافِرِ
وَللنجمِ ، وهوَ النَّجمُ ، مِشيةُ ظالِعٍ
وللارضِ ، وهي الأرضُ ، وِقفةُ حائرِ
وما كامِنٌ فيهِ الأسى غيرُ كامِنٍ   وَلا ظاهِرٌ فيهِ الأسى غيرُ ظاهِرِ
فَمَن لَم يَرَ الباكينَ في كلِّ مَنزلٍ   فما أبصَرَتْ عَيناهُ شَقَّ المَرائرِ
وَهي «البرقُ» مِمّا حَمَلُوهُ فلم يطِقْ   يحدِّثُنا عَنهُ بغيرِ الأشائرِ
فَيا خَبراً ألقى الفَجيعةَ بَينَنا   لأنتَ عَلينا اليَومَ أشأمُ طائرِ
وَيا ناقِلَ الأنباء يَجهَلُ كُنهَها   كَرِهناكَ حتّى قادِماً بالبَشائرِ

أقامَ الأسى بينَ العَزاءِ ومُهجَتي   وَباعَدَ ما بينَ القَريضِ وَخاطِري
فَأمسيتُ لا أدري أَيستُرُ مِنَ الدُّجى   عَلى الشَّمسِ أم ضُيِّعتُ أسودَ ناظِري
وَباتَ فُؤادي يَتّقي نَزَواتِهِ   كما يَتّقي العُصفورُ بأسَ الكَواسِرِ
كأنَّ بِقلبي شاعِراً يَنظِمُ الأسى   كأنّي تَوَلّى مَدمَعي كُلَّ ناثِرِ
ألا لَيتَ شِعري بَعدَ ما طارَ نَعيُهُ   أفي أرضِ مِصرٍ نائمٌ غيرُ ساهِرِ
وَهل في سَماءِ النّيلِ غيرُ دياجِرٍ   وَهل في مِياهِ النّيلِ غيرُ مَحاجِرِ
وَهل في ضِفافِ النّيلِ بَينَ نَخيلِهِ   مُغرِّدَةٌ أو آنِسٌ غيرُ نافِرِ
بِمَ تَسمُرُ الإخوانِ في كُلِّ لَيلَةٍ   وَصاحِبُهُم في اللَّحدِ غيرُ مُسامِرِ
لِيَبكِ عَليهِ المُسلِمونَ فإنَّهُمْ   أضاعوا بِهِ مُحيي العُصورِ الدَّوائِرِ
وَتَبكِ النَّصارى فَخرَها وعَميدَها   فما بَعدَهُ مِن حُجَّةٍ لِمُفاخِرِ
فما جادَتِ الدُّنيا عَلَيهِم بِمِثلِهِ   وَغيرُ يَسيرٍ أن تَجودَ بآخَرِ
أيا جَبَلَ العِلمِ الّذي مادَ هاوِياً   عَزيزٌ عَلَينا أن تُرى في الحُفائِرِ
عَليكَ يَوَدُّ الغَربُ لو كانَ مُشرِقاً   وفيكَ يَحِبُّ الحيُّ أهلَ المَقابِرِ
وَيَغبِطُ تِبرُ الأرضِ فيكَ تُرابَها   وَيَحسُدُ ماءَ الجَفنِ ماءُ المَحابِرِ
وَما عادَةٌ خَفضُ الرِّجالِ رُؤوسَها   ولكنَّما في الأرضِ كَنزُ الجَواهِرِ
لِتَفخَرْ عَلى الشُّهبِ الجَنادِلُ والحَصى   فَفيها هِلالُ العِلمِ شَمسُ المَحاضِرِ
ثَوَتْ الأوالي جامِعاً ومُؤَلِّفاً   وزِدتَ بأنْ أحرَزتَ فَضلَ الأواخِرِ

تخيّرَ أحداثُ الليالي كِبارَنا ... كأنَّ المنايا صَبّةٌ بالأكابِرِ

ونضحكُ للآمالِ ضِحكةَ وامقٍ ... فيضحكُ منّا الدهرُ ضحكةَ ساخِرِ

رَضينا بأنْ تغشى الغزاةُ بلادَنا ... ونِمنا وما نامتْ عيونُ المعاشِرِ

لها كُلَّ يومٍ بيننا حكمُ جائرٍ ... وإقدامُ موتورٍ وفتكةُ ثائرِ

على أنّها تقتصُّ من غيرِ مُذنبٍ ... وتأخذُ بالأوتارِ من غيرِ واترِ

فيا ويحَ هذا الشرقِ كيفَ اغتياله ... وأمضى مواضيهِ كليلُ الأظافرِ ؟

. . .

جَللٌ في مِصرَ لكنْ ... في العِراقينِ صَداهْ

مادَ لُبنانُ ومــادَ ... الشامُ لمّا سَمِعاهْ

كادَ أن يخذلَ فيهِ ... كلَّ طودٍ مَنكباهْ

أيهــا الراحِلُ عنّا ... بلغَ الحُزنُ مَداهْ

قد بكاكَ الأفقُ حتى ... فرقداهُ وسُهاهْ

يا خليــليَّ أعينا ... مَنْ عصاهُ مُسعِداهْ

خانتِ النفسَ قُواها ... خانتِ البَينَ قُواهْ

قد مضى مَن نتمنّى ... كلُّ عينٍ أنْ تراهْ

فتمنّى كلُّ قـبرٍ ... حينَ أودى لو حَواهْ

ماتَ «زيدانُ» أبو التاريخِ ... فليحيَ فتاهْ !

لبنان

إثنانِ أعيا الدهرَ أن يبليهما ... لبنانُ والأملُ الذي لذويهِ

نشتاقهُ والصيفُ فوقَ هضابهِ ... ونحبُّهُ والثلجُ في واديهِ

وإذا تمدُّ له ذُكاءُ حبالَها ... بقلائدِ العِقيانِ تستغويهِ

وإذا تنقّطهُ السماءُ عشيّةً ... بالأنجمِ الزهراءِ تسترضيهِ

وإذا الصبايا في الحقولِ كزهرها ... يضحكنَ ضحكاً لا تكلّفَ فيهِ

هنَّ اللواتي قد خلقنَ ليَ الهوى ... وسقينَني السحرَ الذي أسقيهِ

هذا الذي صانَ الشبابَ من البلى ... وأبى على الأيامِ أن تطويهِ

. . .

ولربمــا جبلٍ أشبّهُهُ بهِ ... مسترسلاً مع روعةِ التشبيهِ

فأقولُ يحكيهِ، وأعلــمُ أنّهُ ... مهما سما هيهاتَ أنْ يحكيهِ

يا لذّةً مكذوبةً يلهو بها ... قلبي ويعرفُ أنهـا تؤذيهِ

إني أذكّره بذيّاكَ الحمى ... وجمــالهِ وإخالني أنسيهِ

وإذا الحقائقُ أحرجتْ صدرَ الفتى ... ألقى مقالدَهُ إلى التمويهِ

وطني ستبقى الأرضُ عندي كلُّها ... حتى أعودَ إليهِ أرضَ التيهِ

سألوا الجمالَ فقالَ : هذا هيكلي ... والشعرَ قالَ : بنيتُ عرشي فيهِ

الأرضُ تستجدي الخِضَمَّ مياهَهُ   وكنوزَهُ والبحرُ يستجديهِ
يُمسي ويُصبحُ وهو منطرحٌ على   أقدامِهِ طمعاً بما يحويهِ
أعطاهُ بعضَ وقارِهِ حتى إذا   استجداه ثانيةً سخا ببنيهِ
لبنانُ صُنْ كنزَ العزائمِ واقتصدْ   أخشى مَعَ الإسرافِ أنْ تفنيهِ

. . .

غيري يراهُ سياسةً وطوائفاً   ويظلُّ يزعمُ أنَّهُ رائيهِ
ويروحُ من إشفاقِهِ يبكي له   لبنانُ أنتَ أحقُّ أنْ تبكيهِ
لا يسفرُ الحسنُ النزيهُ لناظرٍ   ما دامَ منه الطرفُ غيرَ نزيهِ

. . .

قلْ للأُلى رفعوا التخومَ لأرضهِ   ضيَّقتمُ الدنيا على أهليهِ
ولمن يقولونَ الفرنجَ حماتُهُ   أللهُ قبلَ سيوفِهِم حاميهِ

. . .

يا صاحبي، يَهنيكَ أنك في غدٍ   ستعانقُ الأحبابَ في ناديهِ
وتلذُّ بالأرواحِ تعبقُ بالشذى   وتهزُّكَ الأنغامُ من شاديهِ
إنْ حدَّثوكَ عن النعيمِ فأطنبوا   فاشتقتَهُ لا تنسَ أنكَ فيهِ!

يا قائد القوم

رثى بها صديقه الحميم الدكتور رزق حداد وقد ألقاها في الحفلة التأبينية.

يا أيها الشعرُ أسعفني فأرثيهِ   ويا دموعُ أعينيني فأبكيهِ
بحثتُ لي عن مُعزٍّ يومَ مصرعِهِ   فلم أجدْ غيرَ محزونٍ أعزيهِ
وما سألتُ امرءاً فيما تفجَّعُهُ   إلا وجاوبَ — «إني من محبيهِ»
كأنما كلُّ إنسانٍ أضاعَ أخاً   أو انطوتْ فجأةً دنيا أمانيهِ
فذا أساهُ لهيبٌ في أضالعِهِ   وذا أساهُ دموعٌ في مآقيهِ
فهل درى أيَّ سَهمٍ في القلوبِ رمى   لما نعاهُ إلى الأسماعِ ناعيهِ؟

***

يا شاعرَ الحسنِ هذا الروضُ قد طلعتْ   فيهِ الرياحينُ وافترَّتْ أقاحيهِ
وشاعَ «أيارُ» عطراً في جوانبِهِ   ونضرةً واخضراراً في روابيهِ
فأينَ شعرُكَ يَسري مع نسائمِهِ؟   وأينَ سِحرُكَ يجري في سواقيهِ؟
هَجَرْتَهُ فامَّحتْ منهُ بشاشتُهُ   ماتَ الهوى فيهِ لمَّا ماتَ شاديهِ

أغنى عن الدُّرِّ في القيعانِ محتجباً … درٌّ يساقطهُ الحدّادُ من فيهِ
وكانَ للسحرِ تأثيرٌ فأبطلهُ … بالسحرِ يجري حلالاً في قوافيهِ
بلاغةُ «المتنبي» في مدائحه ، … ودَمعُ «خنساء صَخرٍ» في مراثيهِ
لا يعذبُ الشعرُ إلا حينَ ينظمهُ ، … أو حينَ ينشدهُ ، أو حينَ يرويهِ
ويا طبيباً يُداوي الناسَ من عِلَلٍ … داءُ الأسى اليومَ فيهم مَنْ يُداويهِ؟
أمسى الذي كانَ يَشجينا ويُطربنا … لا شيءَ يُطربهُ ، لا شيءَ يَشجيهِ
لقد تساوى لديهِ شدوُ ساجعةٍ … وصوتُ نائحةٍ في الحيِّ تبكيهِ
صارتْ لياليهِ نوماً غيرَ منقطعٍ … ولم تكنْ هكذا قبلاً لياليهِ
قد كانَ نبراسنا في المعضلاتِ إذا … ما ليلُها جُنَّ واربدَّتْ نواصيهِ
فَمَنْ لنا في غدٍ إنْ أزمةٌ عَرَضتْ … وليسَ فينا أخو حزمٍ يضاهيهِ
مَنْ للحزينِ يُواسيهِ ويُسعدهُ … وللمريضِ يُداويهِ فيَشفيهِ
يا قائدَ القومِ إنْ تسألْ فإنهمُ … باتوا حَيارى كإسرائيلَ في التيهِ
لما رأوكَ مسجّى بينهمْ علموا … ما العيشُ غيرَ أخاييلٍ وتمويهِ
يا رزقُ ، قلبي عليكَ اليومَ منفطرٌ … وكلُّ قلبٍ كقلبي في تشظّيهِ
لم يحوِ نَعشكَ جسماً لا حَراكَ به … بل أنتَ آمالنا موضوعةٌ فيهِ
غداً يواريكَ عن أبصارِنا جَدَثٌ … لكنَّ فضلكَ لا شيءٌ يُواريهِ

الكمنجة المحطمة

شاهدتُها كالمَيْتِ في أكفانِهِ … فوجمتُ إلا عبرةً أذريها
مهجورةً كسفينةٍ مَنبوذةٍ … في الشطِّ غابَ وراءهُ ماضيها
نسجتْ عليها العنكبوتُ خيوطَها … وكسى الغبارُ غِلالةً تكسوها
أقوتْ وباتتْ كالمسامعِ بعدَها … لا شيءَ يُطربُها ولا يَشجيها
وكأنها ، في صمتها ، مشدوهةٌ … أنْ لا ترى بهتافِها مشدوها
لا حسَّ في أوتارها ، لا شوقَ في … أضلاعها ، لا حسنَ في باقيها
فاروحْ بحزنكَ ، يا حزينُ ، فإنها … لا تنشرُ الشكوى ولا تطويها
وإذا انقضى عهدُ التعلُّلِ بالمنى … فالنفسُ يَشفيها الذي يُرديها

***

للهِ عهدٌ مرَّ لي في ظلِّها … أبكي عليهِ وتارةً أبكيها
كانتْ كأنَّ ضلوعَها موصولةٌ … بأضالعي وسرائري في فيها
كم مرةً حامتْ غرابيبُ الأسى … لتقيتَ من قلبي الجريحِ بنيها
فإذا الأغاريدُ اللطيفةُ دونها … سُورٌ يصونُ حشاشتي ويقيها
كم هزني الشدوُ الرخيمُ فساقطتْ … نفسي هموماً أوشكتْ تبليها
فإذا أنا مثلُ البنفسجةِ التي … ذبلتْ فباكرَها النَّدى يُحييها
ولكمْ سمعتُ خفوقَ أجنحةِ المنى … وحفيفَها في نغمةٍ توحيها

فسكرتُ حتى ما أعي سُكْرَ امرئٍ ... بالخمرِ أترعَ كأسَهُ ساقيها

ورأيتني في جنّةٍ سحريةٍ ... لا يرتوي من حسنها رائيها

ولمحتُ أحلامَ الشبابِ مواكباً ... تترى أمامي والهوى حاديها

سرُّ السعادةِ في الرؤى إنّ الرؤى ... لا كفٌّ تثبتها ولا تمحوها

ولكمْ سمعتُ دبيبَ أشباحِ الأسى ... عند المسا في أنّةٍ تُزجيها

فذكرتُ ثَمَّ محاسناً تحتَ الثرى ... غابتْ وشوّهَها البلى تشويها

فإذا أنا كالسنديانةِ شوّشتْ ... أغصانَها الريحُ التي تلويها

أو كالسفينةِ في الضبابِ طريقَها ... ضلّتْ ، وغابتْ أنجمٌ تَهديها

شَهِدَ الدُّجى والفجرُ أنّيَ جازعٌ ... لسكوتها جَزَعَ الغديرِ أخيها

ما أنْ سمعتُ أنينَهُ ونشيجَهُ ... إلا ويعرو النفسَ ما يَعروها

روّى الثرى، ياليتَ روحيَ في الثرى ... أو في النباتِ لعلّهُ يرويها

***

يا صاحبيَّ ، وفي حنايا أضلعي ... همٌ يكظُّ الروحَ بل يدميها

إنَّ التي نقلتْ حكاياتِ الهوى ... لم يبقَ غيرُ حكايةٍ ترويها

كمدينةٍ دكَّ القضاءُ صروحَها ... دكّاً وكفّنَ بالسكوتِ ذويها

نُعيتْ فَرِيعَ الفجرُ وارتعشَ الدُّجى ... مــا كانَ أهونَها على ناعيها

لا تعجبا في الغابِ من نَوْحِ الصبا ... وعويلها ، إنَّ الصَّبا ترثيها

لو تسمعانِ نحيبَهــا متمشياً ... كالسحرِ في الأرواحِ يستهويها

لعلمتما أنَّ القضاءَ اغتالهـــا ... كيلا تبوحَ بكلِّ سرٍ فيها

«من اشتهى الخمر فليزرع دواليها»

خُذْ ما استطعتَ من الدنيا وأهليها ... لكنْ تعلَّمْ قليلاً كيف تُعطيها

كُنْ وردةً طيبُها حتى لسارقها ... لا دمنةً خبثُها حتى لساقيها

أكانَ في الكونِ نورٌ تستضيءُ بهِ ... لو السماءُ طوتْ عنا دراريها؟

أو كانَ في الأرضِ أزهارٌ لها أرجٌ ... لو كانتِ الأرضُ لا تُبدي أقاحيها؟

إنّ الطيورَ الدمى سيّانِ في نظري ... والورقَ إنْ حَبَسَتْ هذي أغانيها

إن كانتِ النفسُ لا تبدو محاسنُها ... في اليُسرِ صارَ غناها من مخازيها

***

يا عابدَ المالِ قُلْ لي هلْ وجدتَ بهِ ... روحاً تواسيكَ أو روحاً تؤاسيها

حتى مَ ، يا صاحِ ، تخفيهِ وتطمرهُ ... كأنّما هو سوءاتٍ تواريها ؟

وتحرمُ النفسَ لذاتٍ لها خُلقتْ ... ولم تصاحبك ، يا هذا ، لتؤذيها

أنظرْ إلى الماءِ إنَّ البذلَ شيمتهُ ... يأتي الحقولَ فيرويها ويُحييها

فما تعكّرَ إلا وهو منحبسٌ ... والنفسُ كالماءِ تحكيه ويحكيها

ألسجنُ للماءِ يُؤذيه ويفسدهُ ... والسجنُ للنفسِ يؤذيها ويضنيها

واظرْ إلى النارِ إنَّ الفتكَ عادتُها — لكنَّ عادتها الشنعاء ترديها
تفني القرى والمغاني وهي ضاحكةٌ — لجهلها أنَّ ما تفنيه يفنيها
أرسلتُ قولي تمثيلًا وتشبيهاً — لعلَّ في القولِ تذكيراً وتنبيها
لا شيءَ يُدركُ في الدنيا بلا تَعَبٍ — مَنِ اشتهى الخمرَ فليزرعْ دواليها



الغابة المفقودة

يا لهفةَ النفسِ على غابةٍ — كنتُ وهنداً نلتقي فيها
أنا كما شاء الهوى والصبا — وهيَ كما شاءتْ أمانيها
تكادُ من لُطفِ معانيها — يشربُها خاطرُ رائيها
آمنتُ باللهِ وآياتهِ — أليسَ أنَّ اللهَ باريها ؟

. . .

نباغتُ الأزهارَ عند الضحى — متَّكئاتٍ في نواحيها
ألوى على الزنبقِ نسرينُها — والتفَّ عاريها بكاسيها
واختلجتْ في الشمسِ ألوانها — كأنها تذكرُ ماضيها
تآلفتْ ، فالماء من حولها — يرقصُ والطيرُ تغنّيها
مَنْ لقَّنَ الطيرَ أناشيدها؟ — وعلَّمَ الزهرَ تآخيها ؟
يا هندُ هذي معجزاتُ الهوى — وإنّها فينا كما فيها
لا تستحي الزهرُ بإعلانها — فما لنا نحنُ نواريها ؟
وتهتفُ الطيرُ بها في الربى — فما لنا نحن نعمّيها ؟

قضى في الغـــابة أيامنا   مـــا عابها إلا تلاشيها
طوراً علينا ظلُّ أدواحها   وتارةً عطفُ دواليها
وتارةً نلهو بأعنابها   وتارةً نُحصي أقاحيها
تسكتُ إذ تشكو شحاريرُها   كأنّمـــا التغريدُ يؤذيها
وإنْ تضاحكنا سمعنا الصّدى   يضحكُ معنا في أقاصيها
وإن مَشَيْنا فوقَ كثبانها   لاحتْ فَشَاقَتْنا أدانيها
وفوقَنا الأغصانُ معقودةٌ   ذوائبٌ طـــالَ تدلّيها
إذا هَزَزْناها عن غُرّةٍ   ألقتْ من الذُعرِ لآليها
نسيرُ من كهفٍ إلى جدولٍ   نكتشفُ الأرضَ ونطويها
والنورُ عطرٌ في تعاريجها   والعطرُ نورٌ في حواشيها
وتختبي هندٌ فأشتاقها   وأختبي عنها فأُغريها
كم أوهمتني الخوفَ من طارىءٍ   تشجي بذا نفسي فتشجيها
فرحتُ أعدو نحوَها مشفقاً   فكانَ ما حاذرتُ تمويها !
فاعجبْ لأطواري وأطوارِها   تعبثُ منّي وأجاريها !

. . .

أللهُ لو دامَ زمانُ الهوى   ودامَ من هندٍ تجنّيها
لا غابتي اليومَ كعهدي بها   ولا التي أحبَبْتُها فيهـــا

ولا تلالٌ كنهودِ الدُمى   ولا سفوحٌ كتراقيها
ولا الندى درٌّ على عُشبها   ولا الأقاحي في روابيها
ولا الضُّحى يُلقي على أرضِها   شباكَ تِبْرٍ مِنْ أعاليها
أهبَطني أمسُ إلى حضنِها   شوقي إلى سَجْعِ قماريها
فـــلمْ تخشّني بأوراقها   ولمْ تهلّلْ لي سواقيها
قد بدّلَ الإنسانُ أطوارَها   واغتصبَ الطيرَ مآويها
وفتَّ بالبارودِ جلمودَها   واجتثّ بالفأسِ دواليها
وشادَ من أحجارِها قريةً   سكّانُها الناسُ وأهلوها

. . .

يا لهفةَ النفسِ على غابةٍ   كنتُ وهنداً نلتقي فيها
جنّةُ أحلامي وأحلامِها   ودارُ حبّي وتصابيها
نبكي من اليأسِ على شوكِها   وكانَ يُدميني ويُدميها
كانتْ تغطّينا بأوراقِها   فصارتِ الدورُ تغطّيها !

•

يا أنشودتي انطلقي

أنشودةٌ في ضميري كَمْ أواريها   وما شفائي إلا أنْ أغنّيها

ولّى الشتاءُ ونفسي في كآبتِها

واستضحكَ الصيفُ إلا في نواحيها

كأنها زهرةٌ في الظلِّ نابتةٌ   لا نورَ يغمرُها، لا ماءَ يَسقيها

كأنها الحربُ في قلبي زلازلُها   وبعضُ أهلي أقوامٌ تعانيها

حكايةٌ أتقّي حين أسمعها   ويأكلُ الحزنُ قلبي حينَ أرويها

وارحمتاه لأوربا فما فَتَكَتْ   أفعى بأفعى كأهليها بأهليها

لم يبقَ غيرُ الضواري في خلائقِها   ومَنْ حضارتِها إلّا مخازيها

كانتْ تعدُّ الدواهي في مصانِعِها

لغيرها ، فأصابتها دواهيها

وكلُّ طابخِ سُمٍّ سوفَ يأكلُهُ   وكلُّ حافرِ بئرٍ واقعٌ فيها

لو دامَ أيمانُها لم تنطلقْ سَقَرٌ   بدوْرِها والأفاعي في مغانيها

لكنْ أكبَّتْ على الآلاتِ تعبدُها

وتستعينُ بها مِنْ دونِ باريها

فصارَ مالكُها عبداً لسُلطتِها   وصارَ كلُّ ضعيفٍ من أضاحيها

وصارَ أنسانُها للحَلْبِ آونةً

والذبحِ ، مثلَ المواشي في مراعيها

يا نفسُ سرّي ، ويا أنشودتي انطلقي

من علَّ الصمتِ، إنَّ الصمتَ يؤذيها

أيشرقُ الأفقُ لم يُطلعْ كواكبَهُ

وتجملُ الأرضُ لم تُخرِجْ أقاحيها

اليومُ يومُ القوافي تهتفينَ بها   لا يشربُ الناسُ خمراً لم تُصبّيها

هذا هو العيدُ قد لاحتْ مواكبُهُ

يا قلبُ هلّلْ لها ، يا شِعرُ حيّيها



لقاء وفراق

صبراً على هجرِها إنْ كان يرضيها ... غيرُ المليحةِ ممـــلولٌ تجنّيها
فالوصلُ أجملُهُ ما كانَ بعدَ نوًى ... والشمسُ بعدَ الدُّجى أشهى لرائيها
أسلمتُ للسُّهدِ طرفي والضنى بَدَني ... إنّ الصبابةَ لا يُرجى تلافيها
إنّ النساءَ إذا أمرضنَ نفسَ فتًى ... فليسَ غيرُ تدانيهنَّ يشفيها
فاحذرْ من الحبِّ إنْ الريحَ ما خَفيَتْ ... لولا غرامٌ عظيمٌ مختفٍ فيها
يمضي الصفاءُ ويبقى بعدَهُ أثرٌ ... في النفسِ يولُها طوراً ويشجيها
مرّتْ ليالٍ بنا ما كانَ أجملَها ... تمّتْ فمـــا شأنها إلا تلاشيها
تلكَ الليالي لا أرجو تذكُّرَها ... خوفَ العناءِ ولا أخشى تناسيها
أصبو إليها وأصبو كلّما ذُكِرَتْ ... عندي اشتياقاً إلى مصرَ وأهليها
أرضٌ سماءٌ سواها دونها شَرَفاً ... فلا سماءٌ ولا أرضٌ تُحاكيها
رقّتْ حواشيها واخضرّ جانبُها ... وأجملُ الأرضِ ما رقّتْ حواشيها
كأنّ أهرامَها الأطوادُ باذخةً ... هذي إلى جنبِها الأُخرى تساميها
ونيلُها العذبُ ما أحلى مناظرَهُ ... والشمسُ تكسوهُ تبراً في تواريها
كأنّها كعبةٌ حجَّ الأنامُ لهـــا ... لولا التقى قلتُ فيها جلَّ بانيها

وما أحيلى الجواري الماخراتِ بهِ ... تقلُّ من أرضهِ أحلى جواريها
من كلِّ رعبوبةٍ عَبْلٍ روادفُها ... تأبى القعودَ فتأبى أن تجاريها
ضحوكةِ الوَجْهِ يُغرينا تبسُّمها ... إن نجتديها، ويَثْنينا تثنّيها
وناهدٍ حَجَبَتْ عن كلِّ ذي بَصَرٍ ... حشاشتي خِدْرُها والقلبُ ناديها
في كلِّ جارحةٍ مني لهـــا أثرٌ ... «والدارُ صاحبها أدرى بما فيها»
وفي الكواكبِ جزءٌ من محاسنها ... وفي الجآذرِ جزءٌ من معانيها
إن عنّفوني فإني لا أعنّفُها ... وإن أُسمْ فإني لا أسمّيها
يمّمتُها ونجومُ الأُفقِ تلحظُني ... في السيرِ شذراً كأني من أعاديها
كادتْ تساقطُ غيظاً عندما علمتْ ... أني أؤمُّ التي بالنفس أفديها
أسري إليها وجنحُ الليلِ مضطربٌ ... كأنّهُ مشفقٌ أن لا ألاقيها
والشوقُ يدفعني والخوفُ يَدفعني ... هذا إليها وهذا عن مغانيها
أطوي الدَّياجي وتطويني على جَزَعٍ ... تخشى افتضاحي وأخشى الصُّبحَ يطويها
فما بلغتُ مغاني من شغفتُ بها ... إلا وقد بلغتْ نفسي تراقيها
هناكَ ألقيتُ رحلي وانتحيتُ إلى ... خَوْدٍ يرى الدُّميةَ الحسناءَ رائيها
بيضٌ ترائبها سودٌ ذوائبها ... زُجٌّ حواجبها كحلٌ مآقيهـــا
نهودها من ثنايا الثوب بارزةٌ ... كأنها تشتكي ممـــا يواريها
والثوبُ قد ضاقَ عن إخفائها فنبا ... عنها فيـــا ليتني بُرْدٌ لأحميها

وتحتَ ذلكَ خصرٌ يستقلُّ بهِ … دعصٌ ترجرجَ حتى كادَ يلقيها

قامتْ تُصافحني والرِّدفُ يمنعها … والوجدُ يدفعها والقدُّ يثنيها

دهشتُ حتى كأني قطُّ لم أرها … وكدتُ واللهِ أنسى أن أحييها

باتتْ تكلّمني منها لواحظُها … بما تُكِنُّ وأجفاني تُناجيها

حتى بدا الفجرُ واعتلّتْ نسائمُهُ … وكادَ ينشرُ أسراري ويفشيها

بكت دموعاً وأبكتني الدموعُ دماً … ورحتُ أكتمُ أشياءَ وتبديها

كأنّها شعرتْ في بعدنا أبداً … فأكثرتْ من وَداعي عندَ واديها

فما تعزّتْ بأن الدّهرَ يجمعنا … يوماً ولا فرحتْ أني أُمنّيها

تقولُ والدمعُ مثلُ الطلِّ مُنتثرٌ … على خدودٍ خَشيتُ الدّمعَ يدميها

والهفَ نفسي على أنسٍ بلا كَدَرٍ … تُرى تنالُ من الدنيا أمانيها؟

فقلتُ صبراً على كَيدِ الزمانِ لنا … فكلُّ حافرِ بئرٍ واقعٌ فيها

•

فلوريدا

يا جنّةً قبلما حلّتْ بها قَدَمي … أحببتُها قصّةً واشتقتُ راويها

كانتْ لها صورةٌ في النفسِ حائرةٌ … مثلُ القصيدةِ لم تُنسجْ قوافيها

وددتُ لو أنّها تمّتْ فيُبصرها … غيري، وتُسكرهُ مثلي معانيها

وكيفَ تكملُ في ذهني ولم أرَها … وما لصورتِها شيءٌ يُحاكيها؟

وأيّما نغمةٍ أدّى عذوبتَها … كلامُ راوٍ ولا شادٍ يغنّيها

أأنشقُ العطرَ لم أهبطْ خمائلَها؟ … وأشربُ السحرَ لم أسمعْ قماريها؟

وتصعدُ النفسُ منّي للسماءِ ولا … حبالُ نورٍ تدلّتْ من دراريها؟

كانتْ سعادةُ نفسي في تَصوُّرِها … والنفسُ يُسعدُها وهمٌ ويُشقيها

بالوهمِ توجدُ دنيا لا وجودَ لها … وتنطوي عنكَ دنيا أنتَ رائيها

فكم ظَمِئتُ وفي روحي جداولُها … وكم رويتُ وغيري في سواقيها

قد كنتُ من قبلُ مثلَ الناسِ كلِّهمِ … أقولُ إنَّ إلهَ الكونِ باريها

حتى نظرتُ إليها في جلالتِها … فصارَ كلُّ يقيني أنّهُ فيها!

لمّا رأيتُ الجمالَ الحقَّ أدركني … زُهدٌ بكلِّ جمالٍ كانَ تمويها

كأنّما الحُورُ مرّتْ في شواطئِها … في ليلةٍ طفلةٍ رقّتْ حواشيها

ففي الرمالِ سناها من تضاحُكِها … وفي المياهِ أريجٌ من أغانيها

أتيتُها بشبابٍ ضاعَ أكثرُهُ … وغيّبتهُ الليالي في مطاويها

فاسترجعَ الحبَّ قلبي فهوَ مغتبطٌ   وعادتِ الروحُ خضراء أمانيها

*

سئلتُ ما راقَ نفسي من محاسِنِها؟   فقلتُ للناسِ: باديها وخافيها

وما حببتَ من الأشجارِ؟ قلتُ لهم: إنّي افتتنتُ بكاسيها وعاريها

وماهويتَ من الأزهارِ؟ قلتُ لهم: ألحبُّ عندي لناميها وذاويها

قالوا: وما تتمنّى؟ قلتُ مبتدراً:   يا ليتني طائرٌ أو زهرةٌ فيها

فربَّ أنشودةٍ من بلبلٍ غردٍ   حوتْ حكايةَ حبٍّ خفتُ أحكيها

وربَّ روحٍ كروحي في بنفسجةٍ   وسْنى أطلّتْ على روحي تناجيها

وربَّ قطرةِ ماءٍ لا غناءَ بها   شاهدتُ مصرعَ دنيا في تلاشيها

كلُّ الذي لاحَ لي في أرضها حسَنٌ   وأحسنُ الكلِّ في عيني أهاليها

إلّا ذوو السِحَنِ السوداءِ واعجبا   أجنّةٌ وذبابٌ في نواحيها ؟

إنّي ليكبتُ روحي أنْ ألاحظَهم   بمقلةٍ أبصرتْ فيها غوانيها

دعِ المساوىءَ في الدنيا فابرحتْ   فيها محاسنُ تنسينا مساويها

كم حاولَ الليلُ أنْ يطوي كواكبَهُ   فكانَ ينشرها من حيثُ يطويها

واذكرْ أكارمَ قومٍ طابَ عنصرُهُمْ   وأشبهوا بسجاياهم أقاحيها

بني بلادي! وفيكمْ من خمائلها   جمالُها والتسامي من روابيها

تسلّتِ النفسُ عن أحبابها بكُمْ   لولاكُمْ لم يكنْ شيءٌ يسلّيها

أكرمتموني فشكراً غيرَ منقطعٍ   دوامُ شكركِ للنعماءِ يبقيها

هي

أروي لكُمْ عن شاعرٍ ساحرٍ   حكايةً يُحمدُ راويها

قالَ: دعا أصحابَهُ سيّدٌ   في ليلةٍ رقّتْ حواشيها

فانتظمتْ في قصرهِ عصبةٌ   كريمةٌ لا واغلٌ فيها

مِنْ نُبلاءِ الشعبِ ساداتُها   وخيرةِ الغيدِ غوانيها

حتى إذا ما جلسوا كلهمْ   وطافَ بالأكوابِ ساقيها

قامَ أميرُ القصرِ في كفّهِ   كأسٌ أعارتهُ معانيها

وقالَ: يا صحبُ على ذكركمْ   أملأها حبّاً وأحسوها

وذكرِ مَنْ قلبيَ عبدٌ لها   ومهجتي إحدى جواريها

حبيبتي «ميساءُ» سميتها   ولم أكن قبلاً أسميها

فشربوا كلهمْ سرَّها   وهتفوا كلهمْ تيها

فأجزلَ الشكرَ لأصحابهِ   ألشكرُ للنعمةِ يُبقيها

وصاحَ بالساقي علينا بها   فطافَ بالأكوابِ ساقيها

وقالَ للأضيافِ: سمعاً! فلي   كلمةٌ، ألعدلُ يمليها

ما أنا وحدي الصبُّ فيكمْ، ولا   كلُّ العذارى من أناجيها

فكلُّ نفسٍ مثلُ نفسي لها   في هذهِ الدنيا أمانيها

وكلُّ قلبٍ مثلُ قلبي له   حسناءُ ترْجوهُ ويرجوها

يا صحبُ، من كانت به صبوةٌ   يُعلنها الآنَ ويُبديها

فنهضوا ثانيةً كلّهمْ   ورفعوا الكاساتِ تنويها

كلهمْ يشربُ سرَّ التي   يهوى من الغيدِ ويُطريها

. . .

وكانَ في الشَّربِ فتىً باسلٌ   طَلعتهُ تُسحرُ رائيها

شاركَ في أوّلِ أقداحهمْ   ولم يشارِكْهمْ بثانيها

وأنتَ؟ قال الصحبُ واستضحكوا

هل لكَ حسناءُ تحيّيها ؟

قال: أجل، أشربُ سرَّ التي   بالروحِ تفديني وأفديها

صُورتها في القلبِ مطبوعةٌ   لا شيءَ حتى الموتِ يمحوها

لا ترتضاني رياءً، ولا   تَلثُمني كذباً وتمويها

يضيعُ مالي ويزولُ الصبى   وحبُّها باقٍ وحبّيها

قد وهبتني روحَها كلَّها   ولم تخفْ أني أضحّيها

سرُّ التي لا غادةٌ بينكم   مهما تمتْ في الحبِّ تحكيها

فأجفلوا منهُ كمينَ حيّةٍ   نهاشةٍ قد عزَّ راقيها

وقالتِ الغاداتُ: أفٍ له،   قد شوّهَ المجلسَ تشويها

لو ظلَّ فيما بيننا صامتاً   لم تسمعِ الآذانُ مكروهها

وقلقلَ الفتيانُ أسيافهم   فأوشكتْ تبدو حواشيها

وتَعتعَ الشادي بألحانهِ   وماجتِ الدارُ بمن فيها

وقالَ قومٌ: خبلتهُ الطِّلا!   وقالَ قومٌ: صارَ معتوها!

فصاحَ ربُّ الدارِ: ياسيّدي   وَصفتَها، لِمْ لا تُسمّيها

أتخجلُ باسمِ منْ تهوى؟

أحسناءُ بغيرِ اسمٍ؟

فأطرقَ غيرَ مكترثٍ

وتمتمَ خاشعاً... أمي!!

*

حنة مشتاق

أَلا أيها الباكي فديتكَ باكياً … علامَ وفيما تستحثُّ المآقيا ؟
رويدكَ ما أرضى لك الحُزْنَ خِلَّةً … وهيهاتِ أن أرضاكَ بالحُزْنِ راضيا
يُعنِّفني من كُنتُ أدعوهُ صاحباً … فما انفكَّ حتى بتُّ أدعوهُ لاحيا
دَعوتُ لربّي أن دعانيَ لائمٌ … ولم أُعصِهِ أن لا يجيبَ دعائيا
لقد أرخصَ العُذّالُ عنديَ قولَهُمْ … إذا همّتِ العينانُ أرخصتُ غاليا
أأمنعُ ماءً ما يروي أخا صَدًى … وقدْ كنتُ لا أحمي المناهلَ صاديا
عليَّ البُكا والنَّوحُ ضربةُ لازبٍ … وإني لأبكي أنني لستُ باكيا
وكيفَ ارتياحي بعدَ هندٍ وبيننا … مهامهُ لا تلقى بها الريحُ هاديا ؟
يظلُّ بها السرحانُ يَعْوي من الطَّوى … نهاراً ، ويطوي ليلَهُ الخوفُ طاويا
لقد كنتُ أخشى أن يُفرِّقَ بيننا … فأصبحتُ أخشى اليومَ أن لا تلاقيا
فيا مَنْ لقلبٍ لا تنامُ هُمومُهُ … ويا مَنْ لَعَيْنٍ لا تنامُ اللياليا
رأيتُ الليالي ما تزالُ تَروعُني … بأحداثِها ، ما لليالي وما لِيَا
ولمْ يَبْقَ عندَ الدّهرِ خطبٌ أخافُهُ … فكيفَ اعتذارُ الدّهرِ إنْ رُحتُ شاكيا

إذا لم تَكُنْ لي آسياً أو مؤاسياً … فلا تَكُ لَوّاماً وَذَرْني وما بيا
فإني رأيتُ اللومَ يُذكي صَبابتي … كذاكَ عَهِدْتُ الزَّنْدَ بالقَدْحِ واريا
ألا حبّذا من سالفِ العَيْشِ ما مضى … ويا حبّذا لو كانَ يَرْجِعُ ثانيا
زمانٌ كقلبِ الطِّفلِ صافٍ وكالمُنى … لذيذٌ ، ولكنْ كانَ كالحُلْمِ فانيا
أَحِنُّ إليه في العشيِّ وفي الضُّحى … حنينَ غريبٍ جاءهُ الشّوقُ داعيا
وأذكرهُ ذكرى العجوزِ شبابَها … وأبكي لدى ذكراهُ أحرَّ قانيا
ولولا أمورٌ في الفؤادِ أُسِرُّها … جعلتُ عليهِ الدّهرَ وقفاً لسانيا
خليليَّ أعوامُ السرورِ دقائقٌ … وأيامُهُ كادتْ تكونُ ثوانيا
وأجملُ أيامِ الفتى زَمَنُ الصبى … وخيرُ الصِّبا ما كانَ في الحُبِّ ناميا
رَعَى اللهُ أيامي التي قد أضعتُها … فكنتُ كأني قد أضعتُ فؤاديا
لياليَ لا هندٌ تصدّقُ واشياً … ولا هيَ تَخشى أن أصدّقَ واشيا
ويا طالما بِتْنا ولا ثالثَ لنـا … سوى الرّاحِ نُدنيها فتُدني الأمانيا
ودارَ حديثُ الحُبِّ بيني وبينَها … فطوراً مناجاةً وطوراً تشاكيا
ألم ترَ أنّي قدْ نَظَمتُ حديثَها … لآلىءَ غنّاها الرواةُ قوافيا ؟
تولّى زمانُ الأُنْسِ كالطَّيْفِ في الكَرَى … فلستَ تراني بعدَهُ الدّهرَ لاهيا
سَئِمْتُ لذاذاتِ الحياةِ جميعَها … ولَوْ رَضِيَتْ هندٌ سَئِمْتُ شبابيا
سلامٌ على هندٍ وإن فاتَ مِسْمَعي … سلامُ التي أُهدي إليها سلاميا
تَرَى عندَها أنّي على العَهْدِ ثابتٌ … وإنْ يَكُ هذا البَيْنُ أوهى عظاميا
فواللهِ ما أخشى الحِمامَ على النّوى … ولكنّني أخشى خلوديَ نائيا

دموع وتنهدات

ألا ليتَ قلباً بين جنبيَّ دامياً ... أصابَ سلوّاً أو أصابَ الأمانيا

أجنُّ الأسى حتى إذا ضاقَ بالأسى ... تدفّقَ من عينيَّ أحمرَ قانيا

تهيجُ بيَ الذكرى البروقُ ضواحكاً ... وتُغري بيَ الوجدَ الطيورُ شواديا

فأبكي لما بي من جوى وصبابةٍ ... وأبكي إذا أبصرتُ في الأرضِ باكيا

فلا تحسباني أذرفُ الدمعَ عادةً ... ولا تحسباني أنشدُ الشعرَ لاهيا

ولكنها نفسي إذا جاشَ جأشُها ... وفاضَ عليها الهمُّ فاضتْ قوافيا

يشقُّ على الإنسانِ خدعُ فؤادِهِ ... وإنْ خادعَ الدنيا وداجى المداجيا

طلبتُ على البلوى معيناً ففاتني ... يُواسيك مَنْ يحتاجُ فيكَ مُواسيا

ومَنْ لم تضرّسْهُ الخطوبُ بنابها ... يظنُّ شكاياتِ النفوسِ تشاكيا

رُميتُ مِنَ الدنيا بما لو قليلُهُ ... رَميتَ بهِ الأيامَ صارتْ لياليا

فلا يشتكِ غيري البؤوسَ فإنني ... ضمنتُ الرزايا واحتكرتُ العواديا

تمرُّ الليالي ليلةً إثرَ ليلةٍ ... وأحزانُ قلبي باقياتٍ كما هيا

ولو أنَّ ما بي الخمرُ أو باردُ اللمى ... سلوتُ، ولكنْ أمتي وبلاديا

إذا خطرتْ مِن جانبِ الشرقِ نفحةٌ ... طربتُ فألقى منكباي ردائيا

أحنُّ إلى تلكَ المغاني وأهلِها ... وأشتاقُ مَن يشتاقُ تلكَ المغانيا

وما سرَّني أنَّ الملاهيَ كثيرةٌ ... وفي الشرقِ قومٌ يجهلونَ الملاهيا

إذا مثلوا والنومُ يأخذُ مقلتي ... بأهدابِها أمسيتُ وسنانَ صاحيا

وكيفَ اغتباطُ المرءِ لا أهلَ حولَهُ ... ولا هوَ مَن يستعذبُ الصفوَ نائيا

* * *

تبدّلتِ الدنيا مِنَ السلمِ بالوغى ... وصارَ بنوها العاقلونَ ضواريا

فما تُنبتُ الغبراءُ غيرَ مصائبٍ ... وما تُمطرُ الأفلاكُ إلّا دواهيا

وناكرَ حتى الليلُ زُهرَ نجومِهِ ... وماءُ الخضمِّ المنشآتِ الجواريا

وباتَ سبيلٌ كانَ يسري بهِ الفتى ... بلا حارسٍ، يمشي بهِ الجيشُ خاشيا

تقطّعتِ الأسبابُ بيني وبينهم ... فليسَ لهمْ نحوي وصولٌ ولا ليا

وكانَ لنا في الكتبِ عونٌ على الأسى

وفي (البرقِ) ما يُدني المدى المتراميا

فلمْ تأمنِ الأسرارُ في (السلكِ) سارقاً

ولمْ تأمنِ الأخبارُ في الطرسِ ماحيا

إذا قيلَ هذا مخبرٌ بلتُ نحوَهُ ... بسمعي ولو كانَ المحدّثُ واشيا

وتعلمُ نفسي أنهُ غيرُ عالمٍ ... ولكنني أستدفعُ اليأسَ راجيا

سرى الشكُّ حتى ما نصدّقُ راوياً ... وطالَ فبتنا ما نكذّبُ راويا

أقضي نهاري طائر النفس حائراً   وأقطع ليلي كاسف البال ساهيا
فما هم بأمواتٍ فنبكي عليهم   ولا هم بأحياءٍ فنرجو التلاقيا

***

كأني بهم قد أخرجوا من بيوتهم   حفاةً عراةً جائعين صواديا
كأني بالغوغاء ثارت عليهم   وبالجند تعطي الثائرين المواضيا
كأني بهم قد أعمل السيف فيهم   كأن الدم القاني يسيل سواقيا
كأني بالدور الحسان خرائب   كأني بالجنات صارت فيافيا
مشاهد لاحت لي فهزت فرائصي   كما ذعر الملسوع راء الأفاعيا
فبتُّ كأن السهم بين أضالعي   كأني أقلُّ الشاهقات الرواسيا
ولو أجنبيٌّ لاتقينا سهامه   ولكنما الإخوان صاروا أعاديا
أطاعوا طغاة الترك فينا وطالما   عصا فيهم التركي وفينا النواهيا

وكم راغ ما بين المسيح وأحمد
وحارب «بالسوري» أخاه «اليانيا»
فإن ينس «حوراناً» فتاه وجاره
فإن ربى حوران لم تنس (ساميا)
ألا ليت من باعوا على الغبن ودنا
من الترك باعوا ذلك الود غاليا

ويا ليت من باع البلاد وأهلها   «بفلكين» لم يختر لها البؤس شاريا

***

فيـا أمةً قد طال عهد سباتها
متى يكشف الإصباح عنك الدياجيا

إلى كم تودين البقاء لمعشرٍ   بقاؤهم يدني إليك التلاشيا
ثلاثة أجيالٍ تقضت وأنتم   تسامون منهم ما تسام المواشيا
أما آن أن يسترجع التاج أهله   ويسترجع التاج المهابة ثانيا

متى كان (جنكيز) «لقحطان» سيداً
فيمسي بنو هذا لذاك مواليا ؟

***

ويا عقلاء العرب هذا زمانكم   فكونوا لمن ضل المحجة ، هاديا
إذا عذر الأعمى الورى في ضلاله   فلا يعذرون الناظر المتعاميا
أرى ظلماتٍ مطبقاتٍ حوالكا   فإن تطلعوا فيها رأيت الدراريا
غدا ينشر التاريخ عنكم حديثه   ويتلو الذي يتلوه ما كان خافيا
فإن شئتم أمسى عليكم محامداً   وإن شئتم أمسى عليكم مساويا

***

ويا أيها الجالون إن بلادكم   تناديكم لو تسمعون مناديا
لقد عقدت فيها الخطوب عجاجة   وساق عليها جيشه الجوع غازيا

وَباتَ ذَوُوكُم يَجهلونَ مَصيرَهُمْ — كأنَّهُمُ مَـاءٌ أضاعَ المَجارِيا

مِنَ العَارِ أن يَغشى الرُّقادُ جُفونَكم — عَلى حِينَ يَغشى الدَّمعُ تِلكَ المآقِيا

مِنَ العَارِ أنْ يَكسُو الحَريرُ جُسومَكمْ — وَلَمْ تُبقِ مِنهم شِدّةُ الضَّنكِ كاسِيا

مِنَ العَارِ أنْ يَبقى عَليكمْ جُودُكمْ — وَقَدْ بَلَغَتْ تِلكَ النُّفوسُ التَّراقِيا

إذا المَالُ لَمْ يُنفِقهُ في الخَيرِ رَبُّهُ — رَآهُ عَليهِ العَالمونَ مَخازِيا

إذا المَرءُ لَمْ يَسعَ لِخَيرِ بِلادِهِ — يَكُنْ كالّذي في ضُرِّها باتَ سَاعِيا



اليتيم

خبّروني ماذا رأيتمْ ؟ أطفالاً — يَتامى أمْ موكباً علويّا ؟

كزهورِ الربيعِ عَرْفاً زكيّاً — ونجومِ الربيعِ نُوراً سنيّا

والفراشاتِ رِقّةً وسكوناً — والعصافيرِ بل ألذُّ نجيّا

إنني كلما تأملتُ طفلاً — خلتُ أني أرى ملاكاً سويّا

قل لمن يبصرُ الضّبابَ كثيفاً — إن تحتَ الضّبابِ فجراً نقيّا

أليتيمُ الذي يلوحُ زريّاً — ليسَ شيئاً لو تعلمونَ زريّا

إنّهُ غرسةٌ ستطلعُ يوماً — ثمراً طيباً وزهراً جنيّا

ربما كانَ أودعَ اللهُ فيهِ — فيلسوفاً، أو شاعراً، أو نبيّا

لم يكُنْ كلُّ عبقريٍ يتيماً — إنما كانَ كاليتيمِ صبيّا

ليسَ يَدري، لكنّهُ سوفَ يَدري، — أن ربَّ الأيتامِ ما زالَ حيّا

عندما يصبحُ الصغيرُ فتيّاً — عندما يلبسُ الشبابُ حليّا

كلُّ نجمٍ يكونُ مِنْ قبلِ أن يبدو سديماً عَنِ العيونِ خفيّا

إنْ يَكُ الموتُ قد مضى بأبيهِ — ما مضى بالشعورِ فيكَ وفيّا

وشقاهُ يُوَلِّدُ الرفقَ فينا — لَهوَ الخيرُ بالفعلِ تريّا

لا تقولوا من أمه؟ من أبوه؟ ... فـأبوهُ وأمهُ سوريا

فأعيتوهُ كي يعيشَ وينمو ... ناعمَ البالِ في الحياةِ رضيا

ربَّ ذهنٍ مثلَ النهارِ مُنيرٍ ... صارَ بالبؤسِ كالظلامِ دجيا

كم أثيمٍ في السجنِ لو أدركته ... رحمةُ اللهِ كانَ حراً سريا

حاربوا البؤسَ في الصغارِ صغيراً ... قبلَ أنْ يستبدَّ فيهم قويا

كلُّهم ذلك الجريحُ الملّقى ... فلنكنْ كلُّنا الفتى «السامريا»

عصر الرشيد

كَمْ بينَ طيّاتِ العُصورِ الخاليَهْ ... عِظَةٌ لأبنـاءِ الدُّهورِ الآتيَهْ

عِبَرُ اللّيالي كاللّيالي جَمّـةٌ ... لكنّما النّزْرُ القلوبُ الواعيَهْ

الدّهرُ يُفنينا ونَحسبُ أنّهُ ... يُفني بنَـا أيّامَهُ ولياليَهْ

فإذا مَشَى فينَا الفَنَاءُ فَراعَنا ... خَلقَ الخيالُ لَنَا الحياةَ الثانيَهْ

إنَّ الحَياةَ قَصيدةٌ ، أبياتُها ... أعمارُنَا ، والموتُ فيهَا القَافيَهْ

كَمْ تَعشقُ الدُّنيا وتُنكرُ صَدَّها ... أنسيتَ أنَّ الخُلفَ طَبعُ الغَانيَهْ؟

وتَوَدُّ لو يَبقَى عليكَ نَعيمُها ... أجَهلتَ أنَّ عليكَ ردَّ العاريَهْ؟

خَلِّ الغُرورَ بما لَديكَ فـإنّما ... دُنياكَ زَائلةٌ ونفسُكَ فَانيَهْ

إنَّ الأُلى وطِئَتْ نِعالُهمُ السُّهى ... وَطِئَتْ جباهَهمْ نِعالُ الماشيَهْ

لو أنَّ حيّاً خالدٌ فوقَ الثّرى ... ما ماتَ «هرونُ» وزَالَ «معاويَهْ»

أو كان عِزٌّ دائماً ما أصبحتْ ... «بغدادُ» في عَدَدِ الطّلولِ الباليَهْ

أخنتْ عليها الحَادثاتُ ، فدورُها ... خِرَبٌ تعاودُها الرياحُ السّافيَهْ

يأوي إليها البُومُ غيرَ مُروَّعٍ ... مِنْ كلِّ نعّابٍ أحمَّ الخافيَهْ

نَزلَ القضاءُ فما حَمَاها سورُها ... ولطالما ردَّ الجيوشَ الغازيهْ

واجتاحَ مجتاحُ العروشِ ملوكَها ... فكأنهم أعجازُ نخلٍ خاويَهْ

أينَ القصورُ الشاهقاتُ وأهلُها ... بادَ الجميعُ، فما لهمْ من باقيَهْ

درستْ معالمُها وغيَّرَها البِلى ... ولقد ترى حِلَلُ المحاسنِ كاسيَهْ

أيامَ لا دوحُ المعارفِ ذابلٌ ... ذاوٍ، ولا دورُ الصناعةِ خاليَهْ

أيامَ لا لغةُ «الكتاب» غريبةٌ ... فيها ولا هِمَمُ الأعاربِ وانيَهْ

أيامَ كانَ العلمُ يَغبِطُ أهلَهُ ... أهلُ الثراءِ، ذوو البرودِ الضافيَهْ

أيامَ كانَ لكلِّ حُسنٍ شاعرٌ ... كَلِفٌ به ولكلِّ شِعرٍ راويَهْ

أيامَ «دجلةُ» مطمئنٌّ هادئٌ ... جذلانُ يهزأُ بالبحورِ الطاميَهْ

«النيلُ» خادمُهُ الأمينُ، وعبدُه ... «نهرُ الفرات» وكلُّ عينٍ «جاريَهْ»

تهوى الكواكبُ أنها حصباؤُهُ ... أو أنهـا شجرٌ عليه حانيَهْ

وتودُّ كلُّ سحابةٍ مرتْ به ... لو أنهُ سُحُبٌ عليها هاميَهْ

وترى الغزالةُ طيفَها عندَ الضحى ... في سطحِه فتبيتُ عطشى راويَهْ

أيامَ كانَ الشرقُ مرهوبَ الحِمى ... يكسو الجلالُ سهولَهُ وروابيَهْ

أيامَ تحسُدُها العواصمُ مثلما ... حسدَ العواطلُ أختهنَّ الحاليَهْ

ولطالما كانتْ تعزُّ بعزِّها ... «مصرٌ» ويحمي ذكرها «أنطاكيَهْ»

* * *

أيامَ «هرونٌ» يُديرُ شؤونَها ... يا عصرَ «هرونٍ» عليكَ سلاميَهْ

مَلِكٌ أدالَ من الجهالةِ علمُهُ ... وأذلَّ صارمُهُ الملوكَ العاتيَهْ

ومضتْ تطوفُ في البلادِ هباتُهُ ... تغشى حواضرَها وتغشى الباديَهْ

ملأَ البلادَ عوارفاً ومعارفاً ... والأرضَ عدلاً والنفوسَ رفاهيَهْ

فتحضَّرَ البادونَ في أيامِـهِ ... واستأنستْ حتى الوحوشُ الضاريَهْ

وتسربلتْ «بغدادُ» ثوبَ مهابةٍ ... ليستْ تراهُ أو «تراهُ» ثانيَهْ

هاتيكَ أيامٌ تلاشتْ مثلما ... تمحو من الرقِّ الحروفَ الماحيَهْ

لم يبقَ إلا ذكرُها يا حسنَها ... ذكرى تهشُّ لها العظامُ الباليَهْ

لو أنَّ هذا الدهرَ سِفْرٌ كنتَ يا ... عصرَ الحضارةِ متنَهُ والحاشيَهْ

عصرٌ لئن جـاءَ البشيرُ بعودِهِ ... فلأخلعنَّ على البشيرِ شبابيَهْ !..

* * *

إيهِ «أبا المأمونِ» ذكرُكَ آبدٌ ... في الأرضِ مثلُ الشامخاتِ الراسيَهْ

باقٍ على مرِّ العصورِ بقاءَهـا ... وكذاكَ ذكرُ ذوي النفوسِ الساميَهْ

إنْ لم يكنْ لكَ منْ مثالٍ بيننا ... فلأنَّ روحَكَ كلَّ حينٍ دانيَهْ

هيَ في الخمائلِ زهرةٌ فيّاحةٌ ... هيَ في الكواكبِ شمسُها المتلاليَهْ

إني لأعجبُ كيفَ متَّ وفي الورى ... حيٌّ وكيفَ طوتكَ هذي الطاويَهْ

ومنَ الزمانِ يهدُّ مـا شيَّدتَهُ ... ويحَ الزمانِ أما تهيبُ بانيَهْ؟

تشكو إليكَ اليومَ نفسي شجوَها ... فلأنتَ مفزعُ كلِّ نفسٍ شاكيَهْ

أتراكَ تعلمُ أنَّ داركَ بُدِّلَتْ ... منْ صوتِ «إسحقَ» بصوتِ الناعيَهْ؟

أتراكَ تعلمُ أنَّ مــا أثّلتَهُ ... قدْ ضيّعتْهُ الأنفسُ المتلاهيَة؟

يا ويحَ هذا الشرقِ بعدكَ إنَّهُ ... للضَّعفِ باتَ على شفيرِ الهاويَة

ما كانَ يقنعُ بالنجومِ وسائداً ... واليومَ يقنعُ أهلُهُ بالعافيَة!..

مسترسِلون إلى الذهولِ كأنّما ... سُحِروا أوِ اصطرعوا ابنتِ الخابيَة

مستَسلمونَ إلى القضاءِ كأنّمــا ... أُخِذوا ولمّا يؤخذوا بالغاشيَة

المجدُ إدراكُ النفيسِ، وعندهمْ ... ما المجدُ إلّا شادنٌ أو شاديَة

يهوى الحياةَ الناسُ طوعَ نفوسِهِمْ ... وهُمُ يريدونَ الحياةَ كما هيَ

صغُرتْ نفوسُهمُ فباتَ عزيزُهمْ ... يخشى الجبانَ كما يخافُ الطاغيَة

حمّلوا المغارمَ ساكتينَ كأنما ... كَبُرتْ على أحناكِهِم «لا» الناهيَة(1)

لمْ تسمعِ الدنيا بقومٍ قبلَهمْ ... ماتوا وما برحوا الديارَ الفانيَة

اللهَ لوْ حرصوا على أمجادِهِمْ ... فلتلكَ عنوانُ الشعوبِ الراقيَة

ملكَ «العلوجُ» أمورَهمْ ومتاعَهمْ ... حتّى سواهُمُ وحتّى الآنيَة

وا خجلةَ العربيِّ مِنْ أجدادِهِ ... صارتْ عبيدُهُمُ الطغامُ مواليَة!..

***

أبني الغطارفةِ الجبابرةِ الأُلى ... وطِئوا «اللوار» ودوّخوا «إسبانية»

---

(1) لعله أراد «لا» التي هي ناهية؛ فأهل الشرق — على رأي الشاعر — حلوا المغارم ساكتين لا تقوى أحناكهم على قول: لا ... أي لا يرفضون شيئاً فيقولون فيه : لا ... (زهير)

مِنْ حولِكمْ وأمامَكمْ تاريخُهمْ ... فاستخبِروهُ فذاكَ أصدقُ راويَة

قادوا الجيوشَ فكلُّ سهلٍ ضيّقٌ ... ورَموا المعاقِلَ فهي أرضٌ داحيَة

وسطَوا فأسقطتِ العروشُ ملوكَها ... رُعباً وأجفلتِ الصروحُ العاليَة

ومشَوا على هامِ النجومِ فلم تزلْ ... في الليلِ مِنْ وجلٍ تحدّقُ ساهيَة

ووردتْ خيولُهمُ المجرّةَ شُزّباً ... والشهبُ من حولِ المجرّةِ صاديَة

أعطاهُمُ صرفُ الزمانِ زِمامَهُ ... أمِنوا وما أمِنَ الزمانُ دواهيَة

لا أستفزُّكمُ لمثلِ فتوحِهِمْ ... لكنْ إلى حفظِ البقايا الباقيَة

أتذلُّ آنافَ الملوكِ جدودُكمْ ... وتسومُكمْ خسفاً رعاةُ الماشيَة؟

كمْ تصبِرونَ على الهوانِ كأنكمْ ... في غِبطةٍ والذلُّ نارٌ حاميَة

يا للرجالِ! أما علمتمْ أنكمْ ... إنْ لمْ تثوروا، أمّةٌ متلاشيَة؟

***

«دارَ السلام» تحيّةٌ من شاعرٍ ... حسدتْ مدامعَهُ عليكِ قوافيَة

فأراقَ ماءَ شؤونِهِ ولوَ انَّهُ ... في الغادياتِ أراقَ ماءَ الغاديَة

لوْ كانَ مجدُكِ مسترَدّاً بالبكا ... قطرتْ محاجرُهُ الدماءَ القانيَة

فعليكِ تذهبُ كلُّ نفسٍ حسرةً ... ولمثلِ خطبِكِ تستعارُ الباكيَة!!

•

ان الحياة قصيدة!

مـــا للقبورِ كأنما لا ساكنٌ فيها، وقد حوَتِ العصورَ الماضية

طوَتِ الملايينَ الكثيرةَ قبلَنا، ولسوفَ تطوينا وتبقى خالية

أينَ المها وعيونُها وفتونُها؟ أينَ الجبابرُ والملوكُ العاتية؟

زالوا مِنَ الدنيا كأنْ لم يولدوا، سحقتهمْ كفُّ القضاء القاسية

إنَّ الحياةَ قصيدةٌ أعمارُنا أبياتها، والموتُ فيها القافية

متِّعْ لحاظكَ في النجومِ وحسنِها فلسوفَ تمضي والكواكبُ باقية

•

الاسطورة الازلية

كانَ زمانٌ، لم يَزَلْ كائناً وَحالةٌ، ما بَرِحت باقِية

مَلَّ بنو الإنسانِ أطوارَهُم وَبَرِموا بالسُّقمِ والعافِية

فاستصرَخوا خالِقَهمْ واشتَهوا لو أنَّــــهُ كوَّنَهمْ ثانِية

وَبَلَغَتْ أصواتُهُمْ عَرشَهُ في لَيلَةٍ مُقمِرةٍ صافِيَة

فَقالَ، إنِّي فاعِلٌ ما اشتَهوا لَعَلَّ فيهِ حِكمَةً خــافِيَة

وشاهَدوهُ هابطاً مِن عَلٍ فاحتَشَدا في السَّهلِ والرّابِيَة

مِنَ القُرى القانِعة الطاوِيه والمُدُنِ الجامِحةِ الغادِيَة

تألَّبوا مِنْ كلِّ صَوبٍ كما تجتَمِعُ الأمطارُ في السّاقِيَة

يُسابِقُ الصُّعلوكُ ربَّ الغِنى والأبلَهُ النّابِغةَ الدّاهِيَة

وَيدفَعُ الشَّيخُ الفَتى عودَهُ وَصارَ مِثلَ الرِّمَّةِ البالِيَة

فَتى مَضى الفَجرُ ولَمّا تَزَلْ رَوعَتُهُ في وَجهِهِ باقِيَة

وَتَزحَمُ الحسناءَ ممكورَةٌ خلّابَةٌ كالرَّوضَةِ الحالِيَة

دَميمَةٌ تُشبِهُ في قُبحِها مَدينَةً مَهجورَةً عافِيَة

فَقالَ ربُّ العَرشِ: ما خَطبُكُم؛

ما بالُكُمْ صَرخاتُكُم عالِيَة؟

هل أصبحت أرضكم عاقراً، أم غارت الأنجم في هاويه؟
أم أقلع الماء فلا جدول، وماتت الطير فلا شاديه؟
أم فقدت أعينكم نورها، أم غشيت أرواحكم غاشيه؟
أين الهوى، إن لم يكن قد قضى
فكل جرح واجد آسيه

الفتى:

قال الفتى: يا رب إن الصبا مصدر أحزاني وآلامي
ألبستنيه مونقاً بعدما أبلاه أخوالي وأعمامي
وصار في مذهبهم عصره فترة زلات وآثام
فاختلفت حالي وحالاتهم كأنني في غير أقوامي
وصرت كالجدول في فدفد أو شاعر ما بين أصنام
والأخضر المورق في يابس أو مثل صاح بين نوام
دنياهم دنياي، لكنما أعلامهم ليست كأعلامي
عندهم الروضة أشجارها والروض عندي الزهر النامي
والطير لحم ودم عندهم وليس عندي غير أنغام
سكري بها أو بالندى والشذى وسكرهم بالخمر في الجام
يسخر قلبي بلياليهم ويسخر الدهر بأيامي

كأنني جئت لتبكيتهم كأنما جاؤوا لإيلامي
عيب على نفسي هذا الصبا ألجائش المستوفز الطامي
يزرع حولي زهرات المنى وشوكها في قلبي الدامي
فان؛ له في كل فان هوى فان، ولا ينجو من الذام
خذه، وخذ قلبي وأحلامه فإنني أشقى بأحلامي
ومر يمر الدهر في لحظة كالطيف أو كالبرق قدامي
وازرع نجوم الشيب في لمتي فينجلي حندس أوهامي
فأبصر الحكمة في ضوئه إني إليها جائع ظامي

الشيخ:

وجاء شيخ حائر واجف مشتعل اللمة بالي الإهاب
كأنما زلزلة تحته لما به من رعشة واضطراب
فصاح: يا رباه خذ حكمتي
واردد على عبدك عصر الشباب
إن أماني الروح أزهارها وإن روحي اليوم قفر يباب
لا جدول، لا بلبل منشد، بلى، بها الوحشة والاكتئاب
تلك الأماني، على كذبها، لم تكن اللذة فيها كذاب
زالت وما زلت، وإن الشقا

أن تُطمسَ الآيُ ويَبقى الكتابْ

وتُسلبَ الدَّوحةُ أوراقَها   ولَم تَزلْ أعراقُها في التُّرابْ

كُنتُ غنياً في زمانِ الصِّبا

وكُنتُ صفرَ الكفِّ، صفرَ الوِطابْ

صحوتُ مِن جَهلي فأبصرتُني   كأنني سفينةٌ في العُبابْ

قيلَ لها، في البحرِ كلُّ المُنى   فلَم تجدْ في البحرِ إلا الضَّبابْ

نأتْ عنِ الشَّطِّ ولَمْ تقتربْ   شِبراً مِنَ السِّرِّ الذي في الحِجابْ

ولو تُرجّي أوبةً لاشتفتْ   لكنّما عزَّ عليها الإيابْ

مُذ تقِفِ الأيامُ عن سيرِها   فإنها تركضُ مِثلَ السَّحابْ

وتضعُ أمامي، لا ورائي، المُنى

وتطوّلُ الدربَ، وتزدْ في الصعابْ

ما لذّتي بالماءِ أروى بهِ   بلْ لذّتي بالعَدوِ خلفَ السَّرابْ

الحسناء :

وقالتِ الحسناءُ: يا خالِقي   وهبتَني الحُسنَ فأشقيتَني

وجهي سَنيٌّ مُشرِقٌ ، إنّمـــا

مَرعى عُيونِ الخَلقِ وجهي السَّني

حظّيَ مِنهُ حظُّ وردِ الرُّبى   مِن عطرِهِ الفوّاحِ والسَّوسَنِ

ومثلُ حظِّ الشروِ مِن فَيئِهِ   والطيرِ مِن تغريدِها المُتقَنِ

ومثلُ حظِّ النجمِ مِن نورِهِ   في الحِندِسِ المُعتكِرِ الأدجَنِ

لِلقائلِ الفَيءُ، ولِلسّامعِ   التغريدُ، والزَّهرةُ لِلمُجتَني

والنورُ لِلمُدلجِ والمُجتلي،   والدُّرُّ لِلغائصِ والمُقتَني

كَم ريبةٍ دبَّتْ إلى مَضجَعي   مَعَ الجمالِ الرائعِ المُمكِنِ

إنْ عشِقَتْ نفسي فويلٌ لَها   والويلُ لي إنْ دَجلُ حُبّني

الشُّمُّ والشوكُ وجمرُ الغضا   أهونُ مِن كاشحةِ الألسُنِ

كَم تقتفيني نظَراتُ الخَنا   ويلي مِنْ خائنةِ الأعيُنِ

لَم يبقَ في روحي مِن موضعٍ   يا ربِّ لَم يُخدشْ ولَم يُطعَنِ

إنَّ الغِنى في الوَجهِ لي آفةٌ   فلَيتَ أنّي دُميةٌ لَيتَني ...

الجارية :

وسكَتتْ، فصاحتِ الجاريَةْ   باكيةً مِن بؤسِها شاكيَهْ :

ذنبي إلى هذا الورى خِلقتي   فهل أنا المُجرمةُ الجانيَهْ ؟

إنْ أخطأَ الخزّافُ في جبلِهِ !!   طينٍ فأيُّ ذنبٍ لِلآنيَهْ ؟

أليسَ مَن يسخرُ بي يزدري   بالقوّةِ المُوجِدةِ البارِيَهْ ؟

لو كُنتُ حسناءَ بلَغتُ العُلى   فلِلجمالِ الرُّتبةُ العاليَهْ

فباتَ مَنْ أسجدُ قُدّامَهُ   صاغِرةً يسجُدُ قُدّاميَهْ

فإنني في ملإٍ ظالمٍ ... أحكامُهُ جائرةٌ قاسيه

ليس لذات القبح من غافرٍ ... وفيه من يغفرُ للزانيه

نفسي جزءٌ منك ، يا خالقي ... وإنها عاقلةٌ راقيه

أليس ظلماً ، وهي بنتُ العلى ، ... إن تكُ بالقبحِ إذن كاسيه ؟

فليكنِ الحسنُ رداءً لها ... ترفلُ بهِ ، أو فلتكن عاريه

الفقير :

وأقبلَ الصعلوكُ مسترحماً ... في مقلتيهِ شبحُ اليأسِ

يصرخُ يا ربّاهُ حتى متى ... تحكمُ الموسرَ في نفسي ؟

وتضعُ التاجَ على رأسهِ ... وتضعُ الشوكَ على رأسي ؟

ويشربُ اللذاتِ من كأسه ... وأشربُ الغصّاتِ من كأسي

وتنجلي الأنجمُ في ليلهِ ... ضاحكةً كالغيدِ في عرسِ

ويتوارى في نهاري السنا ... أو يتبدّى حانقَ الشمسِ

يا ربِّ لا تنقلهُ عن أنسهِ ... وإنّما انقلني إلى الأنسِ

فإن تشأ أن لا يذوقَ الهنا ... قلبي فجرّدني من الحسْ

لو لم يكن غيري في غبطةٍ ... ما شعرتْ روحي بالبؤسِ

الغني :

وقالَ ذو الثروةِ : ما أشتهي ... لا أشتهي أنّيَ ذو ثروةِ

أنفقتُ أيّامي على جمعِها ... وخلتني أدركتُ أمنيتي

فاستعبدتني في زمانِ الصبا ... وأوقرتْ بالهمِّ شيخوختي

قد ملكتني قبلما حزتُها ... وملكتني وهيَ في حوزتي

كنحلةٍ أمسكها شهدُها ... من الجناحينِ فلمْ تفلتِ

حسبتُها تكسبُني قوةً ... فافترستْ قوّتُها قوّتي

جنتْ على نفسي وأحلامِها ... جنايةَ الشوكِ على الوردةِ

ينمو فتذوي فهيَ علّيقةٌ ... يحذرُها الطائفُ بالروضةِ

من قائلٌ عنّي لمن خالني ... أمرحُ من دنيايَ في جنّةِ :

لا تنظرِ الأضواءَ في حجرتي ... وانظرْ إلى الظلماءِ في مهجتي

ولا يغرّنكَ قصري فما ... قصري سوى سجنٍ لحريّتي

أني في الصرحِ الرفيعِ الذرى ... كطائرٍ ، في قفصٍ ، ميّتِ

كم في عُبابِ البحرِ من سابحٍ ... قد ماتَ ظمآناً إلى قطرةِ

موتُ الطوى شرٌّ ولكنّما ... أفظعُ منهُ الموتُ بالتخمةِ

إن سهرَ العاشقِ من لوعةٍ ... أو سهرَ المحزونِ من كربةِ

فالشوقُ كالحزنِ لهُ آخرٌ ... وينقضي في آخرِ المدّةِ

أمّا أنا فقلقي دائمٌ ... ما دمتُ في مالي وفي فضّتي

والخوفُ من كارثةٍ لم تقعْ ... أمضُّ من كارثةٍ حلّتِ

كم من فقيرٍ مرَّ بي ضاحكاً ... كأنّما يسخرُ من غُصّتي

رأيتُه بالأمسِ من كوّتي ... فخِلتُني أنظرُ من هُوّةِ

وكنتُ كالحوتِ رأى موجةً ... ضاحكةً ترقصُ كالطفلةِ

أو حيّةٍ تدبُّ في منجمٍ ... ترنو إلى فراشةٍ حُرّةِ

قدِ اختفتْ ذاتي في بُردتي ... فما يرى الخلقُ سوى بُردتي

فهمْ إذا ما سلّموا سلّموا ... على خيوطِ البُردِ والحُلّةِ

ربّاهُ أطلِقْ من عِقالِ الغنى ... روحي، فإنّي منه في مِحنةِ

وانزعْ معَ الدينارِ من قبضتي ... صلابةَ الدينارِ من سِحنتي

وحوّلِ المالَ إلى راحةٍ ... وحوّلِ القصرَ إلى خيمةِ

الأبله :

وصرخَ الأبلهُ مستفسراً

ما القصدُ من خلقي كذا والمرادْ؟

ألمْ يكنْ يكمُلُ هذا الورى ... إلّا إذا أوجدتَني في فسادْ؟

لي صورةُ الناسِ وحاجاتُهم ... من مَطعمٍ أو مشربٍ أو رُقادْ

لكنْ لُبّي غيرُ ألبابِهمْ ... فإنّهُ مكتنِفٌ بالسّوادْ

يعجِزُني إدراكُ ما أدركوا ... كأنَّ عقلي فحمةٌ أو رَمادْ

إن كنتُ إنساناً فلِمْ يا تُرى ... لستُ بإدراكي كباقي العبادْ؟

أو لم أكنْ منهمْ فلِمْ لم أكنْ ... جرادةً أو أرنباً أو جوادْ

فالنّدُّ لا يعدمُ معْ نِدِّهِ ... ذريعةً للسِّلمِ أو للجهادْ

لا تسخرُ النملةُ من نملةٍ ... وليسَ يُزري بالقُرادِ القُرادْ

أم أنتَ كالحقلِ على رغمِهِ ... ينمو معَ الحِنطةِ فيهِ القَتادْ

الأديب :

وجــاءَ بعدَ المستريبْ ... الألمعيُّ العبقريُّ اللّبيبْ

فقالَ: إنّي تائهٌ حائرٌ ... أنا غريبٌ في مكانٍ غريبْ

أبحثُ عن نفسي فلا أهتدي ... وليسَ يهديني إليها أريبْ

أنا عليمٌ حيثُ لا عالِمٌ ... أنا لبيبٌ عندَ غيرِ اللّبيبْ

لو أنّني كنتُ بــلا فطنةٍ

سِرتُ ولمْ تكثرْ أمامي الدروبْ

وكانَ عقلي كعقولِ الورى ... وكانَ قلبي مثلَ باقي القلوبْ

وصارَ عندي كالنجومِ الورى ... فلا عدوٌّ فيهمُ أو حبيبْ

ولمْ أرَ في ضحكِهمْ والبكا

شيئاً سوى الضحكِ وغيرَ النحيبْ

ولمْ أسائلْ كوكباً طالعاً ... ما لكَ تبدو، ولماذا تغيبْ

ولمْ أقِفْ في الرّوضِ عندَ الضحى

يُذهلُني لونٌ وشكلٌ وطيبْ

وَلم أقلْ مــا كُنتُ من قَبلَما
كُنتُ ، وَلا مَا في سِجلِّ الغُيوبْ

مَا العَقلُ ، يا رَبِّ ، سِوى مِحنَةٍ
لَولاهُ لمْ تُكتَبْ عَليَّ الذُّنوبْ

الخاتمة :

لمّا وَعى اللهُ شَكايا الوَرى | قالَ لهمْ : كونوا كما تَشتَهونْ
فاستَبشَرَ الشّيخُ وَسُرَّ الفَتى | وَالكاعِبُ الحَسناءُ وَالحَزِبونْ

. . .

لكنّهمْ لمّا اضمَحلَّ الدُّجى | لمْ يَجدوا غَيرَ الّذي كانا

. . .

ثُمّ حَذّدوا القُبحَ فكانَ الجَمالْ | وَعَرّفوا الخَيرَ فكانَ الطّلاحْ
وَليسَ مِنْ نَقصٍ وَلا من كَمالْ
فالشّوكُ في التّحقيقِ مِثلُ الأقاحْ

. . .

وَذَرّةُ الرّملِ كَكُلِّ الجِبالْ | وَكالّذي عَزَّ الّذي هانا

بلادي

إني مررتُ على الرياضِ الحاليةْ
وسمعتُ أنغامَ الطيورِ الشاديةْ
فطربتُ ، لكنْ لم يجبْ فؤاديهْ
كطيورِ أرضي أو زهورِ بلادي

وشربتُ ماءَ النيلِ شيخِ الأنهرِ
فكأنني قد ذُقتُ ماءَ الكوثرِ
نهرٌ تباركَ من قديمِ الأعصرِ
عَذْبٌ ، ولكنْ لا كماءِ بلادي

وقرأتُ أوصافَ المروءةِ في السِّيَرْ
فظننتُها شيئاً تلاشى واندثَرْ
أو أنها كالغولِ ليسَ لها أثَرْ
فإذا المروءةُ في رجالِ بلادي

ورسمتُ يوماً صورةً في خاطري
للحسنِ ، إنَّ الحسنَ ربُّ الشاعرِ

وذهبتُ أنشدها فأعيا خاطري
حتى نظرتُ إلى بناتِ بلادي

قالوا: أليسَ الحسنُ في كلِّ الدنى
فعلى مَ لم تمدحْ سواها موطنا
فأجبتهمْ إني أحبُّ الأحسنا
أبداً، وأحسنُ ما رأيتُ بلادي

قالوا: رأيناها فلم نرَ طيّبا
ولّى صباها والجمالُ معَ الصبا
فأجبتهمْ: لتكنْ بلادي سبسبا
قفراً، فلستُ أحبُّ غيرَ بلادي

قالوا: تأمّلْ أيَّ حالٍ حالَها
صَدَعَ القضاءُ صروحها فأمالَها
ستموتُ ... إنَّ الدهرَ شاءَ زوالَها
أتموتُ؟ كلا، لَنْ تموتَ بلادي

هي كالغديرِ إذا أتى فصلُ الشتا
فَقَدَ الخريرَ وصارَ يحكي الميتا

أو كالهزارِ حبسته ... لكن متى
يَعُدِ الربيعُ يَعُدْ إلى الانشادِ

ألكوكبُ الوضّاحُ يبقى كوكبا
ولئنْ تستَّرَ بالدجى وتنقّبا
ليسَ الضبابُ بسالبٍ حسنَ الرُّبى
والبؤسُ لا يمحو جمالَ بلادي

لا عزَّ إلا بالشبابِ الراقي
الناهضِ العزماتِ والأخلاقِ
الثائرِ المتفجّرِ الدفّاقِ
لولاهُ لم تشمخْ جبالُ بلادي

•

الحرية

فتنته محاسنُ الحرية   لا سُليمى ولا جمالُ سمية

هي أمنيةُ الجميعِ ولكن   أرهقته الطبيعةُ البشرية

وعجيبٌ أن يُخلقَ المرءُ حراً   ثمَّ يأبى لنفسِه الحرية

غادةٌ ما عرفت قلباً خلياً   من هواها حتى القلوبُ الخلية

غرست في فؤادِه الحبَّ طفلاً   فنما الحبُّ والفؤادُ سويّة

ثمَّ لما فشى الغرامُ وذاعت   عنها في الورى أمورٌ خفية

حجبوها عساه يسلو ولكن   كان قيساً وكانتِ العامرية

بات يشكو النوى الشقيُّ وتشكو
مانعيها من أن تراهُ الشقية

مستهامٌ قضى زماناً طويلاً   في عناءٍ من القيودِ القوية

وعليهِ من الزمانِ رقيبٌ   عاشقٌ للسيادة الوهمية

ولكلٍّ مطامعٍ وأماني   يبذلُ النفسَ دونها للمنية

ويراها لديهِ أشرفَ شيءٍ   وهي أدنى من الأمورِ الدنية

زعموا أنهُ المليكُ المفدّى   بالرعايا من شرِّ كلِّ بلية

إنما تفتدي الرعيةُ مَلْكاً   باذلاً نفسهُ فِدى للرعية

ظلمَ القومَ من توهمهُ القومُ   نصيراً لــلأمةِ الوسنية

وإذا أحرجَ الضعافَ قويٌّ   نسيت ضعفها النفوسُ الأبية

خير شيء

ذهبتُ مسائلاً عن خيرِ شيءٍ	لأعرفَ كُنهَ أخلاقِ البريّةْ
فقالتْ لي الكنيسةُ خيرُ شيءٍ	هوَ الزهدُ الذي يمحو الخطيّةْ
وقالتْ لي الشريعةُ: خيرُ شيءٍ	شمولُ العدلِ أبناءَ الرعيّةْ
وقالَ الشهرةُ، الجنديُّ خيرٌ	وإنْ كانتْ تقودُ إلى المنيّةْ
وقالَ أخو الحصافةِ: خيرُ شيءٍ	هوَ الحقُّ المبينُ بلا مريّةْ
وقالَ أخو الجهالةِ: خيرُ شيءٍ	سرورُ النفسِ في الدنيا الدنيّةْ
وقالَ ليَ الفتى وصلُ الصبايا	وقالتْ لي الهوى البنتُ الصبيّةْ
ولمّا أنْ خلوتُ سألتُ نفسي	لأعرفَ رأيَها في ذي القضيّةْ
فقالتْ لا أرى خيراً وأبقى	منَ الإحسانِ للنفسِ الشقيّةْ

•

الخلود

غلطَ القائلُ إنّا خالدونْ	كلُّنا بعدَ الرّدى هيُّ بنُ بيّ[1]

•

لوْ عرفنا ما الّذي قبلَ الوجودْ
لعرفنا ما الّذي بعدَ الفناءْ
نحنُ لوْ كنّا «كما قالوا» نعودْ
لمْ تخفْ أنفسُنا ريبَ القضاءْ
إنّما القولُ بأنّا للخلودْ
فكرةٌ أوجدَها حبُّ البقاءْ

نعشقُ البقيا لأنّا زائلونْ	والأماني حيّةٌ في كلّ حيّ

•

زعموا الأرواحَ تبقى سرمدا
خدعونا ... نحنُ والشمعُ سواءْ

---

(١) هي بن بي: كناية عمن لا يُعرف ولا يعرف أبوه (القاموس).

يَلْبَثُ النُّورُ بهـــا مُتَّقِدا
فإذا مـــا احترَقَتْ بادَ الضِّياء

أينَ كانَ النُّورُ؟ أنّى وُجِدا؟
كيفَ وَلّى عِندَما زالَ البِناء؟

شمعتي فيهـــا لِطُلّابِ اليقينِ آيـــةٌ تَدفعُ عنهم كلَّ غيّ

•

لَيستِ الرُّوحُ سِوى هذا الجَسَدْ
معَهُ جـــاءتْ ومَعَهُ تَرجِعُ

لمْ تكُنْ مَوجودةً قَبلَ وُجِدْ
ولِهذا حِـــينَ يَمضي تَتْبَعُ

مِنَ الزُّورِ المُوَشّى والفَنَدْ
قولُنا: الأرواحُ لَيستْ تُصْرَعُ

تَلبثُ الأفياءُ ما دامَ الغُصونْ فإذا ما ذهبتْ لمْ يَبقَ فَيّ

•

لوْ تكونُ الرُّوحُ ما لا يَضمَحِلْ
مـــا جَزِعْنا كُلَّما جِسْمٌ هَمَدْ

لوْ تكونُ الرُّوحُ جِسماً مُستقِلْ
لرآها مَنْ يَرى هذا الجَسَدْ

كلُّ ما في الأرضِ مِن عَيْنٍ وظِلْ
سوفَ يَنحَلُّ كما انحَلَّ الزَّبَدْ

ولئنْ صَحَّ بأنّا مُنشَرونْ جازَ أنْ يَعقُبَ ذاكَ النَّشرَ طَيّ

•

لَيتَ مَنْ قالوا بأنّا كالزُّهورْ
خبَّرونا أينَ تَمضي الرائحةْ؟

أتُرى تَبقى كألحـــانِ الدُّهورْ؟
أمْ تَلاشى مِثلَ صَوتِ النائحةْ؟

لَيتَ شِعري أيُّ خُلدٍ للبُذورْ
بعدَ أنْ تُلقى بِنارٍ لافِحةْ؟

قُلْ لِمَنْ يَخبِطُ في لَيلِ الظُّنونْ لَيسَ بَعدَ الموتِ للظّامِىءِ رِيّ

•

مِثلَما يَذهبُ لَونُ الوَرَقهْ
عِندَما تَيبَسُ في الأرضِ الأُصولْ

مثلما يُفقَدُ نورُ الحدقَهْ
حين أقضي... هكذا نفسي تزولْ

كتلاشي الشمعةِ المحترِقهْ
تتلاشى بينَ ضحكٍ وعويلْ

أنا بعدَ الموتِ شيئاً لا أكونْ   حيثُ أني لم أكنْ من قبلُ شيّ!

•

إيهِ أبناءَ الثرى نسلَ القرودْ
علّلوا أنفسكمْ بالتُرّهاتْ(١)

البسُوا في صحوِكمْ ثوبَ الجمودْ
واحلموا في نومكمْ بالمعجزاتْ

فسيأتي زمنٌ غيرُ بعيدْ
تتهادى بينكمْ فيه أياةْ !!

ويحلُّ اللهُ في ماءٍ وطينْ   فيراهُ الشيخُ والشابُ الأحيْ!(٢)

(١) اشارة الى نظرية « داروين » في أن أصل الانسان قرد . (زهير)

(٢) لعلها صيغة تفضيل من الاحل حياة . (زهير)

الكريم

قالوا : ألا تصفُ الكريمَ لنا؟ فقلتُ على البديهْ:

إنَّ الكريمَ لكالربيعِ ، تحبُّهُ للحسنِ فيهْ

وتهشُّ عندَ لقائهِ ، ويغيبُ عنكَ فتشتهيهْ

لا يرتضي أبداً لصاحبهِ الذي لا يرتضيهْ

وإذا الليالي ساعفتهُ لا يُدِلُّ ولا يتيهْ

وتراهُ يبسمُ هازئاً في غمرةِ الخطبِ الكريهْ

وإذا تحرّقَ حاسدوهُ بكى ورقَّ لحاسديهْ

كالوردِ ينفحُ بالشذى حتى أنوفَ السارقيهْ

•

عروس الجمال

إذا أطلَّ البدرُ من خدرِهِ ... فــإنما يطلعُ كي تنظريه

وإنْ شدا البلبلُ في وكرِهِ ... فإنما يشدو لكي تسمعيه

وإنْ يَفُحْ عطرُ زهورِ الربى ... فــإنما يعبقُ كي تنشقيه

يا ليتني البدرَ الذي تنظرين!

يا ليتني الطيرَ الذي تسمعين!

يا ليتني العطرَ الذي تنشقين!

أواه! لو تصدقُ يا ليتني!

فهرس